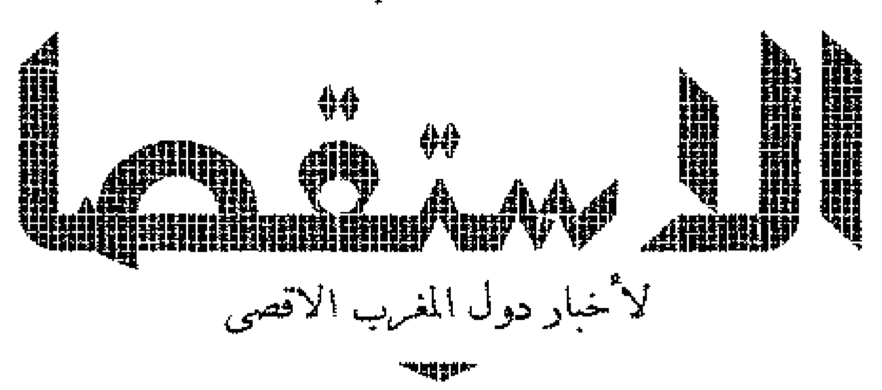
الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب



الاستقصا

لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولـــة المرينيـــة

الجزء الثالث



تحقيق وتعليق ولدى المؤلف صاحبي السادة :

الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

دار الكتاب

الدار البيضاء

١٩٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الدولة المرينية

الخبر عن دولة بني مرين ملوك فاس والمغرب وذكر أوليتهم وأصلهم

اعلم أن العلامة الرئيس أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله قسم جيل زناتة الى طبقتين ، الطبقة الاولى هى التى كان منها مغراوة ملوك فاس ، وبنو يفرن ملوك سلا ، وقد تقدم الكلام على دولتهم مستوفى، والطبقة الثانية هى التى كان منهم بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الاوسط وبنو مرين ملوك فاس والمغرب الاقصى ، وهؤلاء هم الذين تعلق الغرض الان بذكرهم .

فاعلم أن جيل زناتة فى المغرب كما قال الرئيس المذكور جيل قديم معروف العين والاثر وهم لهذا العهد آخذون من شعار العرب فى سكنى الخيام واتخاذ الابل وركوب الخيل والتقلب فى الارض وايلاف الرحلتين وتخطف الناس من العمران والاباية من الانقياد الى النصفة ، وشعارهم من بين البربر اللغة التى يتراطنون بها وهى مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر ، ومواطنهم فى سائر مواطن البربر بافريقية والمغرب

فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الاقصى حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم ، قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحى افريقية وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد، وأذعنوا لحكمهم ، والاكثر منهم بالمغرب الاوسط حتى أنه ينسب اليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناتة ، ومنهم بالمغرب الاقصى أمم أخر ، وكان بنو مرين منهم قبل استيلائهم على ملك المغرب احياء ظواعن بمجالات القفر من فيجيج الى سجلماسة الى ملوية ، وربما يخطون فى ظعنهم الى بلاد الزاب ويذكر نسابتهم أن الرياسة كانت فيهم فى تلك العصور لمحمد بن ورزيز بن

فكوس بن كرماط بن مرين ، ومرين يتصل نسبه بزانا بن يحيى أبى الجيل

وكان لمحمد المذكور سبعة من الولد اثنان منهم شقيقان وهم حمامة وعسكر وخمسة أبناء علات ، وكان يقال لهم بلسان زناتة ثيربعين ومعناه الجماعة

ويزعمون أن محمد بن ورزيز لما هلك قام بأمره فى قومه ابنه حمامة بن محمد وكان الاكبر من ولده ثم من بعده شقيقه عسكر بن محمد ثم من بعده ابنه المخضب بن عسكر وهلك سنة أربعين وخمسمائة فى بعض الحروب (*) التى كانت بين عبد المومن والمرابطين

ثم قام بأمر بنى مرين بعد المخضب ابن عمه أبو بكر بن حمامة بن محمد الى أن هلك فقام بامرهم ابنه أبو خالد محيو بن أبى بكر ولم يزل مطاعا فيهم الى أن استنفرهم يعقوب المنصور الى غزوة الارك بالاندلس فشهدوها وأبلوا فيها البلاء الحسن ، وأصابت محيو بن أبى بكر يومئذ جراحات هلك منها بصحراء الزاب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وكان من رياسة عبد الحق ابنه من بعده وبقائها فى عقبه ما نذكره ان شاء الله .

الخبر عن دخول بنى مرين أرض المغرب الاقصى

واستيلائهم عليه والسبب فى ذلك

كان السبب فى دخول بنى مرين لهذا القطر المغربى أنه لما كانت وقعة العقاب بالاندلس سنة تسع وستمائة وهزم الناصر وهلك الجمهور من حامية المغرب ورعاياه حتى خلت البلاد من أهلها ثم حدث عقب ذلك الوباء العظيم الذى تحيف الناس الاقليلا .وهلك الناصر سنة عشر بعدها فبايع الموحدون ابنه يوسف المنتصر وهو يومئذ صبى حدث لايحسن التدبير ،وشغلته مع ذلك أحوال الصبا .ولذات الملك عن القيام بأمر الرعية فتضافرت هذه الاسباب على الدولة الموحدية فأضعفتها لحينها وأمرضتها المرض الذى كان سببا لحينها ،

(*) انظر هذه الحروب فى الذخيرة السنية صفحة ١٨ وما بعدها طبع الجزائر

وكان بنو مرين يومئذ موطنين ببلاد القبلة من زاب افريقية الى سجلماسة ، يتقلبون في تلك القفار والصحارى لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا تنالهم الدولة بهضيمة ولا يؤدون اليها ضريبة كثيرة ولا قليلة ولا يعرفون تجارة ولا حرثا انما شغلهم الصيد وطراد الخيل والغارات على أطراف البلاد

وكانت طائفة منهم ينتجعون تخوم المغرب وتلوله زمان الربيع والصيف فيكتالون من أطراف البلاد ما يحتاجون اليه من الميرة ويرعون فيها تلك المدة أنعامهم وشاءهم حتى اذا أقبل فصل الشتاء اجتمع نجعهم باكرسيف ثم شدوا الرحلة الى بلادهم فكان ذلك دأبهم على مر السنين

فلما كانت سنة عشر وستمائة أقبل نجعهم على عادته للارتفاق والميرة حتى اذا أطلوا على المغرب من ثناياه ألفوه قد تبدلت أحواله وبادت خيله ورجاله وفنيت حماته وأبطاله وعريت من أهله أوطانه وخفت منها سكانه وقطانه ووجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنبت خصيبة المرعى غزيرة الماء واسعة الاكناف فسيحة المزارع متوفرة العشب لقلة راعيها مخضرة التلول والربا لعدم غاشيها فأقاموا بمكانهم وبعثوا الى اخوانهم فأخبروهم بحال البلاد وما هى عليه من الخصب والامن وعدم المحامى والمدافع ، فاغتنموا الفرصة وأقبلوا مسرعين بنجعهم وحللهم وانتشروا فى نواحى المغرب وأوجفوا عليها بخيلهم وركابهم واكتسحوا بالغارات والنهب بسيطها ولجأت الرعايا الى حصونها ومعاقلها وتم لهم ما أرادوا من الاستيلاء على بسيط المغرب وسهله وانتجاع مواقع طله ووبله.

الخبر عن رياسة الامير ابى محمد عبد الحق بن محيو المرينى رحمه الله

لما دخل بنو مرين المغرب كان الامير عليهم يومئذ عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد المرينى ، فكثر عيثهم وضررهم بالمغرب وأعضل داؤهم وتضاعف على الرعية بلاؤهم فرفعت الشكايات بهم الى الخليفة بمراكش وهو يومئذ يوسف المنتصر بن الناصر بن المنصور فجهز لهم جيشا

كثيفا من عشرين ألفا وعقد عليه لابى على بن وانودين وكتب له الى صاحب فاس السيد أبى ابراهيم بن يوسف بن عبد المومن يأمره بالخروج معه لغزو بنى مرين والاثخان فيهم وعدم الابقاء عليهم مهما قدر على ذلك

واتصل الخبر بنى مرين وهم فى جهات الريف وبلاد بطوية فتركوا أثقالهم وعيالهم بحصن تازوطا من أرض الريف وصمدوا الى الموحدين فالتقى الجمعان بوادى نكور (*) فكان الظهور لبنى مرين على الموحدين فهزموهم وقتلوهم وامتلأت الايدى من أسلابهم وأمتعتهم ورجع الموحدون الى فاس يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشعلة لكثرة الخصب يومئذ واعتمار الفدن بالزرع وأصناف الباقلى فسميت تلك السنة يومئذ بعام المشعلة وهى سنة ثلاث عشرة وستمائة ، ثم زحف الامير عبد الحق فى ذى الحجة من السنة المذكورة بجموع بنى مرين الى رباط تازة(*)حتى وقف بازاء زيتونها فيخرج عاملها لحربه فى جيش كثيف من الموحدين والعرب والحشد من قبائل تسول ومكناسة وغيرهم فقتلت بنو مرين العامل المذكور وهزموا جيوشه

وجمع عبد الحق الاسلاب والخيل والسلاح وقسم ذلك كله فى قبائل بنى مرين ، ولم يمسك منها لنفسه شيئا وقال لبنيه : اياكم أن تأخذوا من هذه الغنائم شيئا فانه يكفيكم منها الثناء والظهور على أعدائكم



(*) وتمت المعركة بحفص الوادى ما بين رباط تازا والمقرمدة (الذخيرة السنية ص ٢٧ طبع الجزائر)

(*) راجع الذخيرة السنية فى أخبار الدولة المرينية صفحة ٣١ طبع الجزائر

٧

حرب بنى مرين مع عرب رياح ومقتل الامير عبد الحق رحمه الله

لما انتصر بنو مرين على أعدائهم الموحدين حصل فى نفوس بنى عسكر ابن محمد من عشيرتهم نفاسة عليهم وضاقت صدورهم من استقلال بنى عمهم حمامة بن محمد بالرياسة دونهم ، فخالفوا الامير عبد الحق وعشيرته الى مظاهرة الموحدين وأوليائهم من عرب رياح ، وكانت رياح يومئذ أشد قبائل المغرب قوة وأقواهم شوكة وأكثرهم خيلا ورجالا لحدوث عهدهم بالعز والبداوة ، فأغراهم الموحدون يومئذ ببنى مرين لينتصفوا لهم منهم واتفقت كلمتهم عليهم وسمعت بنو مرين باقبال العرب والموحدين وبنى عسكر اليهم ، فاجتمعوا الى أميرهم عبد الحق فقالوا له : ما ترى فى أمر هؤلاء العرب المقبلين الينا ؟ فقال : يامعشر مرين أما مادمتم فى أمركم مجتمعين ، وفى آرائكم متفقين وكنتم على حرب عدوكم أعوانا وفى ذات الله اخوانا ، فلا أخشى أن ألقى بكم جميع أهل المغرب وان اختلفت أهواؤكم وتشتت آراؤكم ظفر بكم عدوكم فقالوا له : «انا نجددلك الان بيعة على السمع والطاعة وأن لا نختلف عليك ولانفر عنك أو نموت دونك فانهض بنا اليهم على بركة الله» فنهض الامير عبد الحق فى جموع بنى مرين فكان اللقاء بمقربة من وادى سبو على أميال من تافرطاست فكانت بينهم حرب بعد العهد بمثلها وقتل فيها الامير عبد الحق وكبير أولاده ادريس

ولما رأت بنو مرين ما وقع بأميرها وابنه حميت وغضبت وأقسمت بايمانها أن لايدفن حتى يأخذوا بثاره فصمموا العزم لقتال رياح واستأنفوا الجد لقراعهم ، وصبروا صبرا جميلا فنصرهم الله على عدوهم فهزموا رياحا وقتلوا منهم خلقا كثيرا وشردوهم فى الشعاب والاودية ورؤوس الهضاب ، واحتووا على ما كان فى محلتهم من السلاح والخيل والاثاث ، وقام بأمر بنى مرين بعد هلاك عبد الحق ابنه عثمان على ما نذكره ان شاء الله

٨

بقية اخبار الامير عبد الحق وسيرته

قالوا كان الامير عبد الحق المريني مشهورا في قومه بالتقى والفضـ
والدين ، موسوما بالصلاح وصحة اليقين معروفا بالورع والعفاف ، مو
في سيرته بالعدل والانصاف يطعم الطعام ويكفل الايتام ويوثر المساكيـ
ويحنو على المستضعفين وكانت له بركة معروفة ودعوة مستجابة موصوفـ
وكانت قلنسوته وسراويله يتبرك بهما في جميع أحياء زناتة ، وكانوا يحمـ
فضلة وضوئه فيستشفون بها لمرضاهم وكان يسرد الصوم فلا يزال صائمـ
طول عمره في الحر والبرد لايرى مفطرا الا في أيام الاعياد ، كثير الذكـ
والاوراد لايفتر عنها في سائر الحالات متحريا لاكل الحلال لايقتات الا
لحوم ابله وألبانها أو ما يعانيه من الصيد ، معظما في بني مرين مطاعا فيـ
يقفون عند أمره ولا يصدرون الا عن رأيه

حكى ابن أبي زرع عمن حدثه من الثقات أنه قدم على أمير المسلميـ
يعقوب بن عبد الحق في وفد من أعيان فاس وفقهائها وذلك في رمضان سنـ
ثلاث وثمانين وستمائة والامير يعقوب يومئذ برباط الفتح يريد العبور الـ
الاندلس برسم الجهاد قال : فجرى في مجلسه ذكر والده الامير عبد الحـ
فقال الامير يعقوب «كان الامير عبد الحق رحمه الله صادق القول اذا قـ
فعل واذا عاهد وفى لم يحلف بالله قط بارا ولا حانثا ولم يشرب مسكرا قط
ولا ارتكب فاحشة ، تضع الحوامل ببركة ازاره متى عسرت عليهن الولاد
وكان يسرد الصوم ويقوم أكثر الليل واذا سمع بخير صالح أو عابد قصـ
لزيارته ، واستوهب منه الدعاء شديد الخوف من الصالحين متواضعا لهم
وكان مع ذلك سما لاعدائه قاهرا لهم وما وجدنا الا بركته وبركة من دعا لـ
من الصالحين » .

قالوا : وكان الامير عبد الحق في ابتداء أمره قليل الاولاد فرأى ذات ليلة في
منامه كأن شعلا أربعا من نار خرجن منه فعلون في جو المغرب ثم احتوين على

جميع أقطاره ، فكان تأويلها تمليك بنيه الاربعة من بعده وهذا مثل الرؤيا التى رآها عبد الملك بن مروان من بونه فى المحراب أربع مرات فكان تأويلها أن ولي الخلافة أربعة من بنيه الوليد وسليمان ويزيد وهشام .

وكان للامير عبد الحق تسعة من الولد : ادريس وهو أكبرهم وقتل معه في حرب رياح وعثمان ومحمد وأبوبكر ويعقوب وهؤلاء الاربعة هم الذين ولوا الامر بعده ، وعبد الله وعبد الرحمن ويقال له بلسانهم رحو وزيان وأبو عياد وبنت هي العاشرة والله أعلم

الخبر عن رياسة الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق رحمه الله

لما فرغ بنو مرين من حرب رياح ورجعوا من اتباعهم اجتمعوا الى الامير أبى سعيد عثمان بن عبد الحق وكان أكبر بنى أبيه بعد ادريس فعزوه بمصاب أبيه وأخيه وبايعوه عن رضى منهم فاجتمعت عليه كلمتهم ولما فرغ الامير أبو سعيد من تجهيز أبيه واخيه ودفنهما أقسم أن لايرجع عن حرب رياح حتى يثأر بمائة شيخ منهم فسار اليهم وأثخن فيهم حتى شفا نفسه وأذعنوا الى الطاعة ولاذوا بالسلم ، فسالمهم على اتاوة يؤدونها اليه كل سنة

ثم ضعفت شوكة الموحدين وتداعى أمرهم الى الاختلال وأشرف ملكهم على ربوة الاضمحلال وتقلص ظل حكامهم عن البدو جملة وفسدت السابلة واختلط المرعى بالهمل

فلما رأى الامير أبو سعيد ما عليه أمر الموحدين من الضعف وما نسزل برعايا المغرب من الجور والعسف جمع أشياخ مرين وندبهم الى القيام بأمر الدين والنظر فى مصالح المسلمين فأسرعوا الى اجابته وبادروا لتلبية دعوته ،

فسار بهم أبو سعيد فى نواحي المغرب يتقري مسالكه وشعوبه ويتتبع تلوله ودروبه ويدعو الناس الى طاعته والدخول في عهده وحمايته ، فمن أجابه منهم أمنه ووضع عليه قدرا معلوما من الخراج ، ومن أبى عليه نابذه وأوقع به فبايعه من قبائل المغرب هوارة وزكارة ثم تسول ومكناسة ثم بطوية وفشتالة ثم سدراتة وبهلولة ومديونة ففرض عليهم الخراج وفرق فيهم العمال ، ثم

فرض علي أمصار المغرب مثل فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها علي رأس كل حول علي أن يكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم

ثم لما كانت سنة عشرين وستمائة غزا بلاد فازاز ومن بها من ظواعن زناتة فأثخن فيهم حتى أذعنوا للطاعة وقبض أيديهم عن اذاية الناس بالغارات والنهب في الطرقات

ثم في سنة احدى وعشرين بعدها غزا عرب رياح أهل أزغار وبلادالهبط فأثخن فيهم حتى كاد يأتي عليهم ولم يزل دأبه ذلك من تدويخ بلاد المغرب وأقطاره حتى هلك باغتيال علج له كان رباه صغيرا ،فشب وسول له الشيطان الفتك به فترصد غرته وطعنه بحربة في منحره فمات لوقته سنة ثمان وثلاثين

وكان ذا نجدة وشجاعة وعزم وكرم وايثار مكرما للفقهاء وأهل الصلاح سالكا في ذلك سنن أبيه رحمه الله

الخبر عن رياسة الامير ابي معرف محمد بن عبد الحق رحمه الله

لما هلك الامير أبو سعيد قام بالامر بعده أخوه أبو معرف محمد بن عبد الحق ، فاقتفى سنن أخيه في تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم من باديته ، وبعث الرشيد بن المامون صاحب مراكش قائده أبا محمد بن وانودين لحرب بني مرين وعقد له على مكناسة فأجحف بأهلها في المغارم ، ثم نزل بنومرين في بعض الاحيان بنواحيها وأجلبوا عليها فنادى أبو محمد في عسكره وخرج اليهم فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين ، وبارز محمد بن ادريس بن عبد الحق قائدا من قواد الفرنج فاختلفا ضربتين هلك العلج باحداهما وجرح محمد بالاخرى فاندمل جرحه وصار أثرا في وجهه لقب من أجله بأبي ضربة ، ثم شد بنو مرين على الموحدين فانكشفوا ورجع بن وانودين الى مكناسة مفلولا

وبقي بنو عبد المومن من أثناء ذلك في مرض من الايام وتثاقل عن الحماية ثم أومضت دولتهم ايماضة الخمود وذلك أنه لما هلك الرشيد بن المامون سنة

أربعين وستمائة وولى أخوه علي وتلقب بالسعيد وبايعه أهل المغرب انصرفت عزائمه الى غزو بني مرين ، وقطع أطماعهم عما سمت اليه من تملك المواطن فجهز عساكر الموحدين لقتالهم ومعهم قبائل العرب والمصامدة وجموع الفرنج فنهضو سنة اثنتين واربعين وستمائة في جيش كثيف يناهز عشرين ألفا ، فسمع الامير أبو معرف باقبالهم فاستعد لقتالهم وزحف اليهم فكان اللقاء بموضع يعرف بصخرة أبي بياش من أحواز فاس فدارت بينهم حرب شديدة وصبر الفريقان ، ولما كان عشي النهار قتل الامير أبو معرف بن عبد الحق في الجولة بيد زعيم من زعماء الفرنج تحاملا فعثر فرس أبي معرف به ، وأمكنت العلج فيه الفرصة فاغتنمها وطعنه فمات ، فانهزمت بنو مرين وتبعهم الموحدون فاتخذوا الليل جملا وأسروا طول ليلتهم بحللهم وعيالاتهم وأموالهم فأصبحوا بجبال غياثة من نواحي تازا فاعتصموا بها أياما ثم خرجوا الى بلاد الصحراء وولوا عليهم أبا بكر بن عبد الحق على ما نذكره ، وكانت هذه الوقعة وهلاك الامير أبي معرف عشية يوم الخميس تاسع جمادى الاخرة سنة اثنتين وأربعين وستمائة

الخبر عن دولة الامير أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله

هذا الامير هو الذي رفع من راية بني مرين وسما بها الى مرتبة الملك وكنيته أبو يحيى وهو أول من جند الجنود منهم ، وضرب الطبول ونشر البنود وملك الحصون والبلاد واكتسب الطارف والتلاد . بايعه بنو مرين بعد مهلك أخيه أبي معرف في التاريخ المتقدم فكان أول ما ذهب اليه ورآه من النظر لقومه : أن قسم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين بني مرين وأنزل كلا منهم بناحية منه سوغهم اياها سائر الايام طعمة لهم وأمر كل واحد من أشياخ بني مرين أن يستركب الرجل ويستلحق الاتباع فحسنت حالهم وكثرت غاشيتهم وتوفرت جموعهم

١٢

استيـــــلاء الامير أبي بكر على مكناسة

وبيعة أهلها لابن أبي حفص بواسطته

ثم سار الامير أبو بكر بمحلته فنزل جبل زرهون ودعا أهل مكناســـة الى بيعة الامير أبي زكرياء بن أبي حفص صاحب افريقية لانه كان يومئذ على دعوته وفي ولايته ، وحاصرها وضيق عليها بمنع المرافق وترديد الغارات الى أن أذعنوا لطاعته ، فافتتحها صلحا بمداخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعيمهـــا أبي الحسن ابن أبي العافية وبعثوا ببيعتهم الى الامير أبي زكرياء الحفصـــي ، وكانت البيعة من انشاء أبي المطرف بن عميرة المخزومي وكان من أعلام ذلك العصر ومشاهيره ، ولي القضاء لبني عبد المومن بمدينة سلا ، ثم استقضـــوه بعدها بمكناسة فشهد هذه القضية وكتب البيعة

ولما فتح الامير أبو بكر مكناسة أقطع أخاه يعقوب ثلث جبايتها جزاء لـــه على وساطته وكان فتح مكناسة سنة ثلاث واربعين وستمائة ، ثم آنس الامير أبوبكر من نفسه الاستبداد ومن قبيله الاستيلاء فاتخذ الالة لذلك وسما بنفسه الى مرتبة الملك وأعد له عدته وانتهى الخبر الى السعيد صاحب مراكـــش بتغلب الامير أبي بكر على مكناسة وصرفها لابن أبي حفص فوجم لها وفاوض الملا من أهل دولته في أمره وأراهم كيف اقتطع الامر عنهم شيئا فشيئا حتى لم يبق بيدهم الا قرارة مراكش وما حولها بعد امتداد ظل ملكهم على المغربين وافريقية والاندلس

ثم نهض السعيد من مراكش سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبني مرين أولا ، ثم تلمسان ويغمراسن بن زيان ثانيا ثم افريقية وابن أبي حفص آخرا

ولما وصل الى وادي بهت عرض جيوشه وميزها واتصل الخبر بالامير أبي بكر وهو بمكناسة فخرج وحده ليلا يتجسس الاخبار ويستطلع أحوال السعيد وجموعه فتقدم حتى أشرف على محلة السعيد من كثب ولا علم لاحد به

فرأى مالا طاقة له به ورأى من الرأى أن يتخلى للسعيد عن البلاد ولا يناجزه الحرب فلحق بمكناسة واستدعى بنى مرين من أماكنهم التى عين لهم ، فتلاحقوا به وساروا الى قلعة تازوطا من بلاد الريف فتحصنوا بها

وتقدم السعيد الى مكناسة فتلقاه أهلها خاضعين مستشفعين اليه بشيوخهم وصبيانهم فعفا عنهم ، ثم سار الى فاس فنزل بظاهرها من ناحية القبلة وخرج اليه أشياخها فسلموا عليه وسألوه الدخول الى البلد فتكرم عنهم وأبى ، ثم ارتحل الى رباط تازا فنزل بظاهرها وهناك بعث اليه الامير أبوبكر ببيعته فقبلها وكتب له ولقومه بالامان وكان فيما خاطبه به الامير أبوبكر أن قال له : «ارجع يا أمير المومنين الى حضرتك وأنا أكفيك أمر يغمراسن وأفتح لك تلمسان» فشاور السعيد خاصته في ذلك فقالوا : « لا تفعل ياأمير المومنين فان الزناتي أخو الزناتي لايسلمه ولا يخذله وانا نخاف أن يصطلحا على حربك» فأسعفهم وكتب الى الامير أبي بكر يقول له : «أقم بموضعك وابعث الى بحصة من قومك» فأمده بخمسمائة من بنى مرين وعقد عليها لابن عمه أبي عياد بن أبي يحيى ابن حمامة

وتقدم السعيد الى تلمسان فكان من هلاكه على قلعة تامزردكت ماقدمناه في أخبار دولته ، وكان الامير أبو بكر لما نزل حصن تازوطا وأهل ذلك الحصن يومئذ هم بنو وطاس بطن من بنىمرين أجمعوا الفتك به غيرة ونفاسة عليه فدس اليه بذلك بعض شيوخهم وأعلمه بما تواطأوا عليه من غدره فارتحل الامير أبو بكر عنهم الى بنى يزناسن وكانوا نازلين يومئذ بعيون الصفا فأقام هنالك معهم حتى رجعت اليه الحصة التى كانت مع السعيد وأعلموه بمقتله وافتراق جموعه فانتهز الامير أبو بكر الفرصة في فل الموحدين واعترضهم بأكرسيف فاستلبهم وانتزع الالة من أيديهم وأدلو اليه كتيبة الفرنج والناشبة من الاغزاز ، واتخذ المركب الملوكى من يومئذ ثم أغذ السير الى مكناسة فدخلها واستولى عليها وأقام بها أياما ثم نهض الى أعمال وطاط وحصون ملوية فافتتحها ودوخ جبالها وذلك أواخر صفر سنة ست وأربعين وستمائة

١٤

استيلاء الامير أبى بكر على فاس وبيعة أهلها له

لما فرغ الامير أبو بكر من فتح حصون ملوية صرف عزمه الى فتح فاس وانتزاعها من يد بنى عبد المومن وكان العامل بها يومئذ السيد أبا العباس من بنى عبد المومن فأناخ عليها الامير أبو بكر بخيله ورجله وتلطف فى مداخلة أهلها وضمن لهم جميل النظر وحميد السيرة وكشف الاذى عنهم ، فأجابوه ووثقوا بعهده وغنائه وأووا الى ظله وركنوا الى طاعته وانتحال الدعوة الحفصية بأمره ونبذوا طاعة بنى عبد المومن يأسا من صريخهم فبايعوه بالرابطة خارج باب الشريعة وحضر هذه البيعة الشيخ أبو محمد الفشتالى ونشده الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذب عنهم وسلوك طريق العدل فيهم فكان حضوره ملاك تلك العقدة والبركة التى يتعرف أثرها خلفهم فى تلك البيعة

ودخل الامير أبو بكر مدينة فاس زوال يوم الخميس السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ست واربعين وستمائة بعد موت السعيد صاحب مراكش بشهرين ، ولما دخل الامير أبو بكر قصبة فاس أمن السيد أباالعباس عامل الموحدين بها وأخرجه من القصبة بعياله وأولاده وبعث معه سبعين فارسا يبلغونه الى مأمنه فأجازوه وادى أم الربيع ورجعوا .

ثم نهض الامير أبو بكر الى منازلة تازا وبها يومئذ السيد أبو على بن محمد أخو أبى دبوس فنازلها أربعة أشهر حتى نزلوا على حكمه فقتل بعضهم ومن على آخرين منهم وسد ثغورها وأقطع أخاه يعقوب بن عبد الحق رباط تازا وحصون ملوية ورجع الى فاس فأقام بها نحو سنة واستقامت له الامور ، وقدمت عليه الوفود وأمر القبائل بالنزول فى البسائط وعمارة القرى والمداشر وأمنت الطرقات وتحركت التجار ورخصت الاسعار وصلح أمر الناس واغتبطوا بولايته

انتقاض أهل فاس على الامير أبي بكر ومحاصرته اياهم

لما استولى الامير أبو بكر على المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرنا نهض في ربيع الاول سنة سبع وأربعين وستمائة الى معدن العوام من بلاد فازاز لفتح بلاد زناتة وتدويخ نواحيها واستخلف على فاس مولاه السعود بن خرباش من جماعة الحشم أحلاف بني مرين وكان الامير أبو بكر لما فتح فاسا استبقى من كان فيها من عسكر بني عبد المومن من غير نسبهم على الوجه الذى كانوا عليه من الخدمة مع الموحدين ، وكان من جملتهم طائفة من النصارى نحو المائتين ، وعليهم قائد منهم يقال له شريد الفرنجي فكانوا من حصة السعود هنالك ، فوقعت بينهم وبين شيعة الموحدين من أهل فاس مداخلة وعزم الفاسيون على الفتك بالسعود وتحويل الدعوة الى المرتضى فاجتمعوا الى القاضي أبي عبد الرحمن المغيلي وفاوضوه في ذلك فوافقهم على رأيهم ، فاستدعوا شريدا وقالوا له : «تقتل هذا الاسود وتضبط البلد حتى نكتب الى المرتضى فيبعث الينا من يقوم بأمرنا» فأجابهم الى ذلك وكان ميله الى الموحدين وهواه معهم لكونه صنيعتهم وكان الذى مشى في هذه الثورة وتولى كبرها المشرف ولد القاضي المذكور وابن جشار وأخوه وابن أبي طاط وولده .

فلما كانت صبيحة الثلاثاء الموفى عشرين من شوال سنة سبع واربعين وستمائة طلع الاشياخ المذكورون الى القصبة للسلام على السعود على عادتهم في ذلك فدخلوا عليه بمجلس حكمه وهاجوه ببعض المحاورات فغضب وانتهرهم فوثبوا به ونادوا بشعارهم وكان شريد الفرنجي واقفا في عسكره أمام القصبة قد واطأهم على ذلك فاقتحم على السعود فقتله وقتل معه أربعين من رجاله واحتز العامة رأسه ورفعوه على عصا وطافوا به في أسواق البلد وسككها واقتحموا القصر فانتهبوه وسبوا الحرم ونصبوا النصراني لضبط البلد وبعثوا ببيعتهم الى المرتضى صاحب مراكش واتصل الخبر بالامير أبي بكر وهو منازل بلاد فازاز فافرج عنها وأغذ السير الى فاس فاناخ عليها بعساكره وشمر لحصارها وقطع المادة عنها .

وبعث أهل فاس الى المرتضى بالصريخ فلم يرجع اليهم قولا ولا ملك لهم ضرا ولا نفعا ولا وجد لكشف ما نزل بهم حيلة ولا وجها ، سوى أنـــــه استجاش على الامير أبي بكر بيغمراسن ابن زيان صاحب تلمســــان وأملــه لكشف هذه النازلة عمن انجاش الى طاعته فأجابه يغمراسن الى ذلك وطمـع ان يكون ذلك سببا له في تملك المغرب وسلما للصعود الى ذروة ملكه فاحتشد لحركته ونهض من تلمسان للاخذ بحجزة الامير ابي بكر عن فاس وأهلها .

واتصل بالامير أبي بكر خبر نهوضه اليه لتسعة أشهر من منازلته فاسا ، فجمر الكتائب عليها وصمد اليه قبل فصوله عن تخوم بلاده فلقيه بـــــوادى ايسلي من بسيط وجدة فتزاحف القوم وكانت ملحمة عظيمة هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد ابراهيم بن هشام من بنى عبد الواد

ثم انكشفت بنو عبد الواد ونجا يغمراسن بن زيان الى تلمسان بـــــراس طمرة ولجام وترك محلته بما فيها فاحتوى عليها الامير أبو بكر وانكفأ راجعا الى فاس للاخذ بمخنقها فوصل اليها في جمادى الاخرة سنة ثمان وأربعين وستمائة وأناخ عليها بكلكله واستأنف الجد وأرهف الحد وشدد في الحصار وأيس أهل فاس من اغاثة المرتضى وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ولم يجدوا وليجة من دون مراجعة طاعة بني مرين فسألوا الامير أبا بكر الامان فبذله لهم على غرم ما أتلفوا له بالقصر من المال يوم الثورة وقدره مائـــــة ألف دينار فتحملوها وأمكنوه من قياد البلد فدخلها في الثالث والعشرين من الشهر المذكور فأقام بها الى رجب الموالى له وطالبهم بالمال فسوفوه وتلووا فى المقال.

فلما رأى ذلك منهم قبض على جماعة من أشياخهـا وأمنائهـا وأثقلهـم بالحديد وطالبهم بالمال والاثاث الذى انتهبوه من القصر فقال له شيـــخ يعرف بابن الخضا : «انما فعل الذنب ستة فكيف تهلكنا بمافعل السفهاء منا؟ ولو فعل الامير ما أشير به عليه لكان صوابا من الرأى » فقال : « وما ذلك ؟» قال : « تعمد الى هؤلاء النفر الستة الذين سعوا فى الفتنة فتأخذ رؤوسهم وتشرد بهم من خلفهم ثم تأخذنا نحن بغرم المال » فقال : « لعمرى لقد أصبت »

ثم أمر بالقاضي المغيلي وابنه وابن أبي طاط وابنه وابن جشار وأخيه فقتلوا ورفعت على الشرفات رؤوسهم وأخذ الباقين بغرم المال طوعا وكرها قال ابن خلدون : « فكان ذلك مما عبد رعية فاس وقادها لاحكام بني مرين وضرب الرهب على قلوبهم فخشعت منهم الاصوات وانقادت منهم انهمم ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمس يدفي فتنة» وكان مقتل النفر المذكورين خارج باب الشريعة يوم الاحد الثامن من رجب المذكور

استيلاء الامير ابي بكر على مدينة سلا ثم ارتجاعها منه وهزيمة المرتضى بعد ذلك

لما أكمل الله للامير أبي بكر فتح مدينة فاس واستوسق أمر بني مرين بها رجع الى ما كان فيه من منازلة بلاد فازاز فافتتحها ودوخ أوطسان زناتة واقتضى مغارمهم وحسم علل الثائرين بها ، ثم تخطى ذلك الى مدينة سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين وستمائة فملكها وتاخم الموحدين بثغرها ، واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق وعقد له على ذلك الثغر وضم الاعمال اليه

وبلغ الخبر بذلك الى المرتضى بمراكش فأهمه الشأن وأحضر الملا من الموحدين وفاوضهم واعتزم على حرب بني مرين وسرح العساكر سنة خمسين وستمائة فأحاطت بسلا ثم افتتحوها وعادت الى طاعة المرتضى وعقد عليها لابي عبد الله بن يعلو من مشيخة الموحدين ثم أجمع المرتضى النهوض بنفسه الى بني مرين فبعث في المدائن والقبائل حاشرين فأهرعت اليه أمم الموحدين والعرب والمصامدة وغيرهم وفصل من مراكش سنة ثلاث وخمسين وستمائة في نحو الثمانين ألفا ، ووالى السير حتى انتهى الى جبال بهلولة من نواحي فاس وصمد اليه الامير أبو بكر في عساكر بني مرين ومن اجتمع اليهم من ذويهم

والتقى الجمعان هنالك وصدقهم بنو مرين الجلاد فاختل مصاف الموحدين وانهزمت عساكر المرتضى وأسلمه قومه ورجع الى مراكش مفلولا ، واستولى بنو مرين على معسكره واستباحوا سرادقه وانتهبوا فساطيطه وغنموا جميع ما وجدوا بها من المال والذخيرة واستاقوا سائر الكراع والظهر ، وامتلات أيديهم من الغنائم واعتز أمرهم وانبسط سلطانهم وكان يوما له ما بعده ، وفي القرطاس أن انهزام جيش المرتضى في هذه المرة كان عن جولان فرس بين أخبيتهم ليلا فحسبوا أن بني مرين قد أغاروا عليهم فانهزموا لا يلوون على شيء والله أعلم .

ثم غزا الامير أبو بكر بعد هذا بلاد تادلا فاستباح حاميتها من بني جابر عرب جشم واستلحم أبطالهم والان من حدهم وخضد من شوكتهم وفي خلال هذه الحروب كان مقتل على بن عثمان بن عبد الحق وهو ابن أخي الامير أبي بكر شعر منه بفساد الدخلة والاجماع للتوثب على الامر فدس لابنه أبي حديد مفتاح ابن أبي بكر بقتله فقتله في جهات مكناسة سنة احدى وخمسين وستمائة والله تعالى أعلم

استيلاء الامير ابي بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة

لما كانت سنة خمس وخمسين وستمائة نهض الامير أبو بكر الى محاربة يغمراسن بن زيان وسمع به يغمراسن فنهض اليه أيضا ، فكان اللقاء بأبي سليط فاقتتلوا وانهزم يغمراسن واعتزم الامير أبو بكر على اتباعه فثناه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين يغمراسن فرجع

ولما انتهى الى القرمدة من أحواز فاس بلغه أن يغمراسن قصد سجلماسة ودرعة لمداخلة كانت له من بعض أهلها وعورة أطمعته في ملكهما فأسرع الامير أبوبكر السير بجموعه الى سجلماسة فدخلها قبل وصول يغمراسن اليها بيوم ، ثم جاء يغمراسن حتى نزل خارجها بباب تاحسنت وسقط في يده

ويئس من غلبة الامير أبي بكر عليها ودارت بينهما حرب تكافأ الفريقان فيها وهلك سليمان بن عثمان بن عبد الحق بن أخي الامير أبي بكر ، وانقلب يغمراسن الى بلده وعقد الامير أبو بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن واستعمل على الجباية عبد السلام الاوربي وجعل مسلحة الجند بها لنظر أبي يحيى القطراني وملكه قيادتهم وانكفأ راجعا الى فاس والله تعالى أعلم .

وفاة الامير ابي بكر رحمه الله

لما رجع الامير أبو بكر من حرب يغمراسن على سجلماسة أقام بفاس أياما ثم نهض الى سجلماسة أيضا متفقدا لثغورها فانقلب منها عليلا ووصل الى فاس فتوفي بقصره من قصبتها أواسط رجب سنة ستوخمسين وستمائةودفن داخل باب الجيزيين من أبواب عدوة الاندلس بازاء الشيخ أبي محمد الفشتالي حسبما أوصى بذلك وتصدى للقيام بالامر بعده ابنه عمر على ما نذكره

الخبر عن دولة ابي حفص الامير عمر بن ابي بكر بن عبد الحق رحمه الله

لما مات الامير أبو بكر رحمه الله اشتمل العامة من بني مرين على ابنه أبي حفص عمر فبايعوه ونصبوه للامر وتباروا في خدمته ، ومالت المشيخة وأهل العقد والحل الى عمه يعقوب بن عبد الحق وكان غائبا عند مهلك أخيه بتازا فلما بلغه الخبر أسرع اللحاق بفاس وتوجهت اليه وجوه الاكابر ، وأحس عمر بميل الناس الى عمه يعقوب فقلق لذلك وأغراه أتباعه بالفتك بعمه فاعتصم بالقصبة ، ثم سعى الناس في الاصلاح بينهما فتفادى يعقوب من الامر ودفعه الى ابن أخيه على أن تكون له بلاد تازا وبطوية وملوية التي كان أقطعه اياها أخوه من قبل ، فانفصلوا على ذلك وخلص الامر لعمر واستمر بفاس أشهرا الى أن غلب عليه عمه المذكور حسبما نقص عليك

الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

هذا السلطان جليل القدر عظيم الشأن وهو سيد بني مرين على الاطلاق وستسمع من أخباره الحسنة ما يستغرق الوصف ويستوقف السمع والطرف وهو رابع الاخوة الاربعة الذين ولوا الامر بالمغرب من بني عبد الحق وكانت أمه واسمها أم اليمن بنت علي البطوى رأت وهي بكر كأن القمر خرج من قبلها حتى صعد الى السماء وأشرق نوره على الارض فقصت رؤياها على أبيها فسار الى الشيخ الصالح أبي عثمان الورياكلي فقصها عليه فقال ان صدقت رؤياها فستلد ملكا عظيما فكان كذلك ولما انفصل الامير يعقوب بن عبد الحق عن ابن أخيه عمر بولاية تازا وما أضيف اليها اجتمع اليه كافة بني مرين وعذلوه فيما كان منه من التخلي عن الملك وحملوه على العود في الامر ووعدوه من أنفسهم المظاهرة والنصر الى أن يتم أمره فأجاب وبايعوه وصمد الى فاس فبرز الامير عمر للقائه

ولما تراءى الجمعان خذل عمر جنوده وأسلموه فرجع الى فاس مفلولا ووجه الرغبة الى عمه أن يقطعه مكناسة وينزل له عن الامر ، فأجابه الى ذلك ودخل السلطان يعقوب مدينة فاس فملكها سنة سبع وخمسين وستمائة ونفذت كلمته في بلاد المغرب ما بين ملوية وأم الربيع وما بين سجلماسة وقصر كتامة واقتصر عمر على امارة مكناسة فتولاها أياما ثم اغتاله بعض عشيرته فقتلوه لنحو سنة من امارته فكفي الامير يعقوب أمره واستقام سلطانه وذهب التنازع والشقاق عن ملكه

وكان يغمراسن بن زيان لما سمع بموت قرنه الامير أبي بكر سماله أمل في الاجلاب على المغرب فجمع لذلك قومه من بني عبد الواد واستظهر ببني توجين ومغراوة ووعدهم ومناهم وأطمعهم في غيل الاسد ، ثم نهض بهم الى المغرب حتى اذا انتهوا الى كلدمان صمد اليهم الامير يعقوب ففلهم وردهم على أعقابهم ومر يغمراسن في طريقه بتافرسيت من بلاد بطوية فأحرق وانتسف

واستباح وأعظم النكاية ورجع الامير يعقوب الى فاس واقتفى مذهب أخيه الامير أبي بكر فى فتح أمصار المغرب وتدويخ أقطاره وكان مما اكرمه الله بـه أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدى نصارى الاصبنيول فكان له بها أنس جميل وذكر خالد رحمه الله

استيسلاء نصارى الاصبنيول على مدينة سلا وايقاع السلطان يعقوب بهم وطردهم عنها

كان يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق قد استعملهعمه الامير أبو بكـــر ابن عبد الحق على مدينة سلا لما ملكها كما ذكرناه ولما استرجعها الموحدون من يده أقام يتقلب فى جهاتها مترصدا للفرصة وامكانها فيها ولما بويع عمـه السلطان يعقوب بن عبد الحق آسفته بعض الاحوال منه فذهب مغاضبا حتـى نزل عين غبولة وألطف الحيلة فى تملك رباط الفتح وسلا ليعتدهما ذريعـة لما أسر فى نفسه من التوثب على الامر فتمت له الحيلة وملك سلا وركـب عاملها أبو عبد الله بن يعلو البحر فارا الى آزمور وخلف أمواله وحرمـه ، فتملك يعقوب بن عبد الله ذلك وتمكن من البلد وجاهر بالخلع ، وصـرف الى منازعة عمه السلطان يعقوب وجوه العزم وتمكنت الوحشة بين اليعقوبين

وداخل يعقوب سلا تجار الحرب من الاصبنيول فـى الامداد بالسـلاح فتباروا فى ذلك وكثرت سفن المترددين منهم اليها حتى كثروا أهلـها وزاد عددهم فعزموا على الثورة بها واهتبلوا فيها غرة عيد الفطر من سنة ثمان وخمسين وستمائة عند اشتغال الناس بعيدهم وثاروا بسلا فى اليوم الثانى من شوال فوضعوا السيف فىأهلها وقتلوا الرجال وسبوا الحرم وانتهبوا الاموال وكان الحادث بها عظيما وضبطوا البلد وتحصن يعقوب بـن عبد الله برباط الفتح

وطار الصريخ الى السلطان يعقوب بن عبد الحق وهو يومئذ بمدينة تازا

دخلها أوائل شعبان من السنة المذكورة لاستشراف أحوال يغمراسن بن زيان فوصل اليه الخبر فى اليوم الرابع من شوال المذكور فنهض السلطان يعقوب من فوره بعد أن صلى العصر بتازا من ذلك اليوم فأسرى ليلته تلك فى نحو الخمسين فارسا ومن الغد صلى العصر بظاهر سلا فكان قطعه مسافة ما بينهما فى يوم وليلة ، وهذا أمر خارق للعادة بلا شك أظهره الله على يد هذا السلطان لصدق عزمه وحسن نيته والا فالمسافة ما بين تازا وسلا ست مراحل أو أكثر، ثم تلاحقت به جيوش المسلمين من القبائل المتطوعة من جميع آفاق المغرب فحاصر النصارى بها وضيق عليهم ووالى القتال عليهم بالليل والنهار حتى اقتحمها عليهم عنوة لاربع عشرة ليلة من حصارها وأثخن فيهم بالقتل ونجا من نجا منهم الى سفنهم فنشروا قلوعهم وذهبوا يلتفتون وراءهم ، ثم شرع السلطان يعقوب رحمه الله فى بناء السور الغربى من سلا الذى يقابل الوادى منها فانها كانت لاسور لها من تلك الجهة من آيام عبد المومن بن على فانه كان قد هدم اسوار قواعد المغرب مثل فاس وسبتة وسلا حسبما قدمنا الخبر عنه فى دولته ومن هذه الثلمة كان دخول النصارى الى سلا فشرع السلطان يعقوب رحمه الله فى بنائه فبناه من أول دار الصناعة قبلة الى البحر جوفا وكان رحمه الله يقف على بنائه بنفسه ويناول الحجر بيده ابتغاء ثواب الله وتواضعا وسعيا فى صلاح المسلمين حتى تم السور المذكور على أحسن وجه وأكمله

ودار الصناعة المذكورة فى هذا الخبر هى الدار التى كانت تصنع بها الاساطيل البحرية والمراكب الجهادية يجلب اليها العود من غابة المعمورة فتصنع هنالك ثم ترسل فى الوادى وكان ذلك من الامر المهم فى دولة الموحدين حسبما سلف قال فى الجذوة : « دار الصناعة بسلا بناها المعلم أبو عبد الله محمد ابن على بن عبد الله بن محمد بن الحاج من أهل اشبيلية وكان من العارفين بالحيل الهندسية ومن أهل المهارة فى نقل الاجرام ورفع الاثقال بصيرا باتخاذ الالات الحربية الجافية » اه

وأما يعقوب بن عبد الله الثائر فانه خشى بادرة السلطان يعقوب بن عبد الحق فخرج من رباط الفتح وأسلمه فضبطه السلطان وثقفه ثم نهض الى بلاد

تامسنا فاستولى عليها وملك مدينة آنفي وهي المسماة الان بالدار البيضاء ، فضبطها ولحق يعقوب بن عبد الله بحصن علودان من جبال غمارة فامتنع به وسرح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعلي بن زيان لمنازلته وسار هو الى لقاء يغمراسن فلقيه وعقد معه المهادنة وافترقا على السلم ووضع أوزار الحرب ورجع السلطان الى المغرب فخرج عليه بنو أخيه ادريس على ما نذكره

خروج بني ادريس بن عبد الحق على عمهم السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

قد تقدم لنا أن الامير عبد الحق المريني كان له تسعة من الولد أكبرهم ادريس وقتل مع والده في حرب رياح وكان لادريس هذا عدة أولاد بقوا في كفالة أعمامهم ولما أفضى الامر الى السلطان يعقوب وكان أولاد ادريس قد ملكوا أمر أنفسهم واشتدت شكيمتهم فنفسوا عليه ما آتاه الله من الملك ورأوا أنهم أحق به منه لان أباهم هو الاكبر من ولد عبد الحق كما مر فخرجوا على عمهم يعقوب ولحقوا بقصر كتامة وتابعوا ابن عمهم يعقوب بن عبد الله على رأيه واجتمعوا الى كبيرهم محمد بن ادريس بن عبد الحق وانضم اليهم من كان على رأيهم من عشيرتهم ومواليهم واعتصموا بجبال غمارة فنهض اليهم السلطان يعقوب وتلطف بهم حتى استنزلهم واسترضاهم وعقد لعامر بن ادريس منهم سنة ستين وستمائة على عسكر من ثلاثة الاف فارس أو يزيدون من المتطوعة من بني مرين وأغزاهم الاندلس لجهاد العدو بها وحملهم وفرض لهم في العطاء وشفع بهذه الفعلة الحسنة عمله في واقعة سلا وهو أول جيش عبر البحر الى الاندلس من بني مرين فكان لهم في الجهاد والمرابطة مواقف مذكورة ومقامات محمودة تبع الخلف فيها السلف ودام ذلك فيهم برهة من الدهر وقاموا عن أهل المغرب والاندلس بهذا الواجب العظيم رحمهم الله وجزاهم عن المسلمين خيرا .

وأما يعقوب بن عبد الله صاحب سلا فانه أقا مخارجا بالنواحي متنقلا فى الجهات الى أن قتله طلحة بن محلى من أولياء السلطان يعقوب على ساقية غبولة من ناحية رباط الفتح سنة ثمان وستين وستمائة فكفى السلطان يعقوب أمره .

حصار السلطان يعقوب حضرة مراكش ونزوع أبي دبوس منها إليه وهلاك المرتضى بعد ذلك

لما فرغ السلطان يعقوب من شأن الخارجين عليه من عشيرته أجمع رأيه لمنازلة المرتضى والموحدين فى دارهم وحضرتهم ورأى أنه أوهن لشوكتهم وأقوى لامره عليهم ، فبعث فى قومه وحشد أهل مملكته واستكمل التعبئة وسار سنة ستين وستمائة حتى انتهى الى جبل جيليز فشارف دار الخلافة ونزل بعقرها وأخذ بمخنقها وخفقت ألويته على جنباتها ، وعقد المرتضى على حربه لابى دبوس ادريس بن محمد بن أبى حفص بن عبد المومن فعبأ كتائبه ورتب مصافه وبرز لمدافعتهم ظاهر الحضرة فكانت بينهم حرب بعد العهد بمثلها هلك فيها الامير عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق فقت مهلكه فى عضدهم وارتحلوا عنها الى أعمالهم واعترضتهم عساكر الموحدين بوادى أم الربيع وعليهم يحيى ابن عبد الله بن وانودين فاقتتلوا فى بطن الوادى وانهزمت عساكر الموحدين هزيمة شنعاء وتركوا الاموال والاثاث فاحتوى بنو مرين على ذلك كله وهى واقعة أم الرجلين

ثم سعى سماسرة الفتن عند الخليفة المرتضى فى ابن عمه وقائد حربه أبى دبوس بأنه يطلب الامر لنفسه وشعر هو بالسعاية فى جانبه فخشى بادرة المرتضى ولحق بالسلطان يعقوب سنة احدى وستين وستمائة عند دخوله الى فاس من محاصرته مراكش فأقام عنده مليا ثم سأله الاعانة على أمره بعسكر يمده به وآلة يتخذها لملكه ومال يصرفه فى ضرورياته ، على أن يشركه فى

الفتح والغنيمة والسلطان فأمده السلطان يعقوب بخمسة آلاف من بني مرين وبالمستجاد من الالة والكفاية من المال وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل مملكته وغيرهم أن يكونوا معه يدا واحدة حتى يبلغ مراده من فتح مراكش ، وسار أبو دبوس في الكتائب حتى شارف الحضرة ودس الى أشياعه من الموحدين بأمره فثاروا بالمرتضى فكان من فراره الى آزمور ونزوله على صهره ابن عطوش ومقتله على يده ما قدمنا ذكره في دولته ، واستتب أمر أبي دبوس بمراكش وثبت قدمه بها فبعث اليه السلطان في الوفاء بالمشارطة فاستنكف واستكبر ونقض العهد وأساء الرد فنهض اليه السلطان يعقوب في جموع بني مرين وعساكر المغرب فخام عن اللقاء واعتصم بالاسوار فزحف اليه السلطان يعقوب وحاصره أياما ثم سار في الجهات والنواحي يحطم الزروع وينسف الأقوات وعجز أبو دبوس عن مدافعته فاستجاش عليه بيغمراسن بن زيان ليفت في عضده ويشغله عما أمامه بما وراءه فكان ما نذكره

وقعة تلاغ بين يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان

لما نزل السلطان يعقوب حضرة مراكش وربض على ترائبه للتوثب عليها لم يجد أبو دبوس ملجأ من دون الاستظهار عليه بيغمراسن بن زيان ليأخذ بحجزته عنها فبعث اليه بالصريخ في ذلك وأكد العهد وأسنى الهدية فشمر يغمراسن لاستنقاذه وجذب السلطان يعقوب عنه من خلفه بشن الغارات على ثغور المغرب وايقاد نار الفتنة بها ، فهاج عليه من السلطان يعقوب ليث عاديا وأرهف منه حدا ماضيا فأفرج للوقت عن مراكش ورجع عوده على بدئه يريد تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان فنزل فاسا وتلوم بها أياما حتى أخذ أهبة الحرب وعدة النزال ثم نهض الى تلمسان منتصف محرم سنة ست وستين وستمائة وسلك على أكرسيف ثم على تافرطاست .

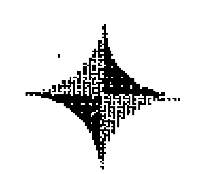
وتزاحف الفريقان بوادي تلاغ وعبأ كل منهما كتائبه ورتب مصافه وبرز

النساء في القباب سافرات على سبيل التحريش والتحريض والتحم القتال وطال القراع والنزال ، ولما فاء الفيء ومال النهار وكثرت حشود بني مرين جموع بني عبد الواد ومن اليهم انكشفوا ومنحوا العدو أكتافهم وهلك في الحومة أبو حفص عمر بن يغمراسن بن زيان وكان كبير أولاده وولي عهده وهلك معه جماعة من عشيرته ، ولما انهزم بنو عبد الواد بقي يغمراسن في ساقتهم حاميا لهم من بني مرين أن تركبهم من خلفهم فكان ردءا لهم الى أن وصلوا الى بلادهم ، وكانت وقعة تلاغ يوم الاثنين الثاني عشر من جمادى الاخيرة من السنة المذكورة ورجع السلطان يعقوب الى مكانه من حصار مراكش والله غالب على أمره .

فتح حضرة مراكش ومقتل أبي دبوس وانقراض دولة الموحدين بها

لما قفل السلطان يعقوب من حرب يغمراسن صرف عزمه الى غزو مراكش والعود الى حصارها كما كان أول مرة فنهض اليها من فاس في شعبان سنة ست وستين وستمائة ولما عبروا وادي أم الربيع بث السرايا وشن الغارات وأطلق الاعنة والايدي للنهب والعيث فحطموا زروعها وانتسفوا آثارها وتقرى نواحيها كذلك بقية عامه ، ثم غزا عرب الخلط من جشم بتادلا فأثخن فيهم واستباحهم ، ثم نزل وادي العبيد فأقام هنالك أياما ثم غزا بلاد صنهاجة فاستباحها ولم يزل ينقل ركابه في أحواز مراكش ويجوس خلالها الى آخر ذي القعدة من سنة سبع وستين وستمائة فاجتمع أشياخ القبائل من العرب والمصامدة عند أبي دبوس وقالوا له : «يامولانا كم تقعد عن حرب بني مرين وقد ترى ما نزل بنا في حريمنا وأموالنا منهم فاخرج بنا اليهم لعل الله يجعله سبب الفتح فانهم قليلون وجمهورهم وذوو الشوكة منهم قد بقوا برباط تازا لحراسة ذلك الثغر من بني عبد الواد ولم يزالوا يفتلون له في الذروة والغارب حتى أجابهم الى رأيهم فاستعد للحرب وبرز من حضرة مراكش في جيوش ضخمة وجموع

وافرة ، فاستجره السلطان يعقوب بالفرار أمامه ليبعد عن مدد الصريخ فيستمكن منه ، فلم يزل أبو دبوس يسعى خلفه حتى نزل ودغفوا فحينئذ كر عليه السلطان يعقوب فالتحمت الحرب واختل مصاف أبي دبوس وفر يسابق الى مراكش وأين منه مراكش فأدركته الخيول وحطمته الرماح فخر صريعا واحتز رأسه وجيء به الى السلطان يعقوب فسجد شكرا لله تعالى وذلك يوم الاحد ثاني محرم سنة ثمان وستين وستمائة ، ثم تقدم السلطان يعقوب نحو مراكش وفر من كان بها من الموحدين الى تينملل وبايعوا اسحق أخا المرتضى فبقي ذبالة هنالك الى أن قبض عليه سنة أربع وسبعين وستمائة وجيء به فـي جماعة من قومه الى السلطان يعقوب فقتلوا جميعا وانقرض أمر بني عبدالمومن والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ثم خرج الملا وأهـل الشورى من الحضرة الى لقاء السلطان يعقوب ففرح بهم وأمنهم ووصلهم ، ودخل مراكش في عسكر ضخم وموكب فخم يوم الاحد التاسع من محرم المذكور وورث ملك آل عبد المومن وتملاه واستوسق أمره بالمغرب وتطامن الناس لبأسه وسكنوا لظل سلطانه ، وأقام بمراكش الى رمضان من سنته ثم أغزا ابنه الامير أبا مالك عبد الواحد بن يعقوب بلاد السوس فافتتحها وأوغل في ديارها ودوخ أقطارها ورجع الى أبيه واستمر السلطان يعقوب بمراكش يصلح شؤونها الى رمضان من سنة تسع وستين وستمائة فخرج بنفسه الى بلاد درعة فأوقع بعربها الوقيعة المشهورة التي خضدت من شوكتهم ورجع لشهرين من غزاته ، ثم أجمع الرحلة الى دار ملكه بفاس فعقد على مراكش لمحمد بن علي ابن يحيى من كبار أوليائهم ومن أهل خؤلته وكان من طبقة الوزراء وأنزله بقصبة مراكش وجعل المسالح في أعمالها لنظره وعهد اليه بتدويخ الأقطار ومحو آثار بني عبد المومن وفصل من مراكش قاصدا حضرة فاس في شوال من السنة المذكورة والله تعالى أعلم



٣٨

مراسلة السلطان أبي عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصي
للسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمهما الله

كانت دولة بني أبي حفص أصحاب تونس وافريقية فرعا من دولة بني عبد المومن وشعبة منها حسبما نبهنا عليه غير مرة ، ولما ضعفت دولة بني عبد المومن بمراكش والمغرب كان صاحب افريقية أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد الهنتاتي يأمل الاستيلاء عليها والتملك لها ويتمنى ذلك لو ساعده القدر لانه كان يرى أنه أولى بتلك الحضرة من غيره حتى من بني عبد المومن لانها أرض سلفه وموطن أصله وعشيرته لان عمالة مراكش لم تعرف الا للمصامدة من قديم الزمان وقبيلة هنتاتة هي صميمها وذؤابتها فبهذا ونحوه كان بنو أبي حفص يتطاولون الى ملك مراكش ، ولما نبغ بنو مرين بالمغرب وغلبوا على الكثير من ضواحيه كانوا يدعون الى أبي زكرياء الحفصي تأليفا لاهل المغرب واستجلابا لمرضاتهم واتيانا لهم من ناحية أهوائهم اذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم فلو دعوا الى غيرها من أول الامر لحاصوا عنها حيصة حمر الوحش ، ولما لم يمكن بني مرين أن يدعوا الى بني عبد المومن لانهم أقتالهم واياهم ينازعون ولهم يحاربون ويجالدون دعوا الى طاعة الحفصيين الذين هم فرع منهم والدعوة الى الفرع كالدعوة الى أصله ، فلم تنفر نفوس أهل المغرب عنها وانما كان بنو مرين يسرون من ذلك حسوا في ارتغاء ولهذا لما استقل السلطان يعقوب بالامر وتمكن له السلطان بالمغرب قطع دعوة الحفصيين حالا بعد أن كان أولا يدعو اليها هو واخوته من قبله وكان بنو أبي حفص ينتحلون لذلك ويهادون بني مرين ويمدونهم بالمال والسلاح وغير ذلك ولما عزم السلطان يعقوب على منازلة مراكش كتب الى أبي عبد الله محمد المستنصر بالله بن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص يخبره بذلك ويستمده حتى كأنه نائب عنه لا غير وأرسل بكتابه مع ابن أخيه عامر بن ادريس بن عبد الحق في جماعة من وجوه دولته فأكرم المستنصر وفادتهم ، ثم لما فتح السلطان

يعقوب مراكش واستولى عليها بعث اليه المستنصر بهدية فيها من أصناف الخيل الجياد والسلاح والثياب الرفيعة ما اختاره واستحسنه وبعث بذلك مع جماعة من وجوه دولته أيضا وفيهم الكاتب أبو عبد الله محمد الكناني فتلطف الكاتب المذكور في ذكر المستنصر على منبر مراكش حتى تم له ذلك بمحضر وفد الموحدين فعظم سرورهم وانقلبوا الى صاحبهم بالخبر واتصلت المودة والمهاداة بين المستنصر والسلطان يعقوب سائر أيامهم ، ولما هلك المستنصر وبويع ابنه أبو زكرياء يحيى المدعو بالواثق اقتفى سنن أبيه في ذلك فبعث الى السلطان يعقوب بهدية حافلة مع قاضي بجاية أبي العباس الغماري سنة سبع وسبعين وستمائة فعظم موقعها من السلطان يعقوب وكان لابي العباس الغماري هذا بالمغرب ذكر تحدث الناس به دهرا وقطع السلطان يعقوب لاول أمره الدعوة الى الحفصيين كما قلنا والله تعالى أعلم

عقد السلطان يعقوب ولاية العهد لابنه أبي مالك بسلا وما نشأ عن ذلك من خروج قرابته عليه

كان السلطان يعقوب حين خرج من مراكش بعد فتحها قاصدا حضرة فاس دار ملك بني مرين اجتاز بمدينة سلا فأراح بها أياما فطرقه مرض وعك منه وعكا شديدا ، فلما أبل من مرضه جمع قومه وعقد العهد لاكبر أولاده أبي مالك عبد الواحد بن يعقوب لما علم من أهليته لذلك وأخذ له البيعة عليهم جميعا فأعطوها طواعية وعز ذلك على القرابة من بني عبد الحق وهم أولاد سوط النساء بنو ادريس بن عبد الحق وبنو عبد الله بن عبد الحق وبنو رحو بن عبد الحق وانما قيل لهم أولاد سوط النساء لان هؤلاء الثلاثة من بني عبد الحق كانوا أشقاء أمهم اسمها سوط النساء ، فلما بايع السلطان يعقوب لابنه أبي مالك بولاية العهد آسفهم ذلك لانهم كانوا يرون أنهم أحق بالامر حسبما سلف فارتدوا على أعقابهم وقلبوا لعمهم ظهر المجن وعادت هيف الى أديانها وأسروا

من ليلتهم من سلا ولم يصبحوا الا بجبل علودان من بلاد غمارة عش خلافهم ومدرج فتتهم وكان ذلك فى عيد الفطر من سنة تسع وستين وستمائة وانضم اليهم بنو أبى عياد بن عبد الحق وشايعوهم على رأيهم ، فخرج السلطان يعقوب فى أثرهم وقدم بين يديه ابنه الامير يوسف بن يعقوب فى خمسة آلاف فأحاط بهم وأخذ بمخنقهم ولحق به أخوه أبو مالك فى عسكره ومعه مسعود بن كانون شيخ سفيان ثم لحق بهم السلطان يعقوب فى عساكره فحاصروهم ثلاثة ولما رأوا أن قد أحيط بهم سألوا الامان فبذله لهم وأنزلهم ومسح صدورهم واسترضاهم واستل سخائمهم ووصل بهم الى حضرته فسألوا منه الاذن فى اللحاق بتلمسان حياء مما ارتكبوه من الخلاف فأذن لهم فأجازوا البحر الى الاندلس وخالفهم عامر بن ادريس لما آنس من ميل عمه اليه فبقى بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد الى قومه بعد منازلة السلطان يعقوب لتلمسان حسبما نذكره عن قريب .

قال ابن خلدون : « واحتل هؤلاء القرابة من بنى عبد الحق بأرض الاندلس على حين أقفر من الحامية جوها واستأسد العدو على ثغورها وتحلبت شفاهه لالتهامها ، فتبوأوها أسودا ضارية وسيوفا ماضية معودين لقاء الابطال وقراع الحتوف والنزال مستقلقلين بخشونة البداوة وصرامة العز وبسالة التوحش فعظمت نكايتهم فى العدو واعترضوا فى صدره سجى دون الوطن الذى كان طعمة له فى ظنه وارتدوه على عقبه ونشطوا من همم المسلمين المستضعفين وراء البحر وبسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيتهم وزاحموا أمير الاندلس فى رياستها بمنكب قوى فتجافى لهم عن خطة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدوة من أعياصهم وغيرهم من أمم البربر وثافنوه فى مستقر عزه وساهموه ، فى الجباية بفرض العطاء والديوان فبذله لهم واستعدوا على العدو وحسن أثرهم فيه حسبما تلمع بالبعض من ذلك ان شاء الله



٣١

هجوم النصارى على العرائش وتيشمس من ثغور المغرب

لما كان المحرم من سنة ثمان وستين وستمائة هجم النصارى على مدينة العرائش وتيشمس من ثغور العدوة المغربية فقتلوا رجالها وسبوا نساءهـا وانتهبوا أموالها وأضرموها نارا ورجعوا عودهم على بدءهم فركبوا أجفانهم ولحقوا ببلادهم ولم تنلهم شوكة السلطان يعقوب لانه كان مشغولا بفتح مراكش في التاريخ المذكور ولم يبين في القرطاس هؤلاء النصارى من هم

وقعة ايسلى بين السلطان يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان

لما أنعم الله على السلطان يعقوب بامتداد ظل ملكه في أقطار المغرب ونواحيه ونفوذ كلمته في حواضره وبواديه وتمم له الصنع بفتح مراكش ووراثة كرسي بنى عبد المومن بها وعاد الى فاس كما قلنا تحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن بن زيان وما آسفه به من تخذيل عزائمه ومجاذبته عن قصده ورأى أن وقعة تلاغ لم تشف صدره ولا أطفأت نار موجدته فأجمع أمره لغزوه ونشطه لذلك ما صار اليه من الملك وسعة السلطان ، فحشد جميع أهل المغرب وعزم على استئصاله وقطع دابره فعسكر بفاس وبعث ولده أبا مالك الى مراكش في جماعة من خواصه حاشرين في مدائنها وضواحيها ، فاجتمع عليه من قبائل العرب والمصامدة وصنهاجة وبقايا عساكر الموحدين بالحضرة وحامية الامصار من جند الفرنج وناشبة الغزو ، واستكثر من ذلك كله واحتفل السلطان يعقوب بفاس كذلك ، ثم نهض منها غرة صفر سنة سبعين وستمائة فسار حتى نزل وادي ملوية فأقام عليه أياما حتى لحقه ابنه أبو مالك في جموعه وتوافت لديه أمداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا الذين هم سفيان والخلط والعاصم وبنو جابر ومن معهم من الاثبج وقبائل ذوى حسان والشبانات من معقل أهل

السوس الاقصى وقبائل رياح أهل أزغار وبلاد الهبط ، فعرض هنالك عساكره وميزها ورتبها فيقال انها بلغت ثلاثين ألفا وارتحل يريد تلمسان

ولما انتهى الى أنكاد قدمت عليه رسل ابن الاحمر ووفد أهل الاندلس يستصرخونه على العدو ويسألونه الاعانة والنصر ويخبرونه بأنه قد كلب عليهم وشره لالتهام بلادهم فتحركت همته رحمه الله للجهاد ونصر المسلمين واغاثة المستضعفين منهم ، ونظر في صرف الشواغل عن ذلك وجنح للسلم مع يغمراسن وعزم عليها واستشار الملأ من أشياخ العرب ، وبني مرين في ذلك فصوبوا رأيه لما كانوا عليه أيضا من ايثار الجهاد ومحبته ، فبعث السلطان يعقوب جماعة من أشياخ القبائل الى يغمراسن يدعونه الى الصلح واجتماع الكلمة وقال لهم في جملة قوله : « ان الصلح خير كله فان جنح يغمراسن اليه وأناب فذاك والا فأسرعوا الي بالخبر . » فسار الاشياخ الى يغمراسن فوافوه بظاهر تلمسان وقد أخذ أهبته واستعد للقاء وحشد قبائل زناتة المجاورين له في تلك البلاد من بني عبد الواد وبني راشد وأحلافهم ومغراوة من عرب بني زغبة فبلغوه الرسالة وعرضوا عليه مقالة السلطان يعقوب فأبى واستكبر وصم عن سماع قولهم وموعظتهم وقال: «أبعد مقتل ولدي أصالحه» والله لاكان ذلك أبدا حتى أثأر به وأذيق أهل المغرب النكال من أجله » فرجعت الرسل الى السلطان يعقوب بالخبر ، وتزاحف الفريقان فكان اللقاء على وادي ايسلي من بسيط وجدة وعبأ السلطان يعقوب كتائبه ورتب مصافه وجعل ابنه عبد الواحد في الميمنة وابنه يوسف في الميسرة ووقف هو في القلب ، ودارت بينهم رحى الحرب وركدت مليا وهلك في الحومة أبو عنان فارس بن يغمراسن بن زيان في جماعة من بني عبد الواد ، وهلك عامة عسكر الفرنج الذين كانوا معهم لثباتهم بثبات يغمراسن فطحنتهم رحى الحرب وتقبض على قائدهم برنيس وانهزم الباقون ، ونجا يغمراسن في فله حاميا لهم ومدافعا عنهم من خلفهم ، ومر في هزيمته بفساطيطه فأضرمها نارا تفاديا من حصرة استيلاء العدو عليها وانتهبت بنو مرين باقي معسكره واستبيحت حرمه وارتحل السلطان يعقوب من الغد في أثره حتى اذا انتهى الى وجدة وقف عليها فأمر بهدمها فتسارعت ايدي

الجند اليها وجعلوا عاليها سافلها والصقوا بالرغام جدرانها وتركوها قاعا صفصفا، وكانت هذه الوقعة منتصف رجب من سنة سبعين وستمائة .

ثم تقدم الى تلمسان فنزل عليها وحاصرها أياما وأطلق الايدى فـى ساحتها بالنهب والعيث ثم شن الغارات على البسائط فاكتسحها سبيا ونسفها نسفا وهلك في طريقه الى تلمسان وزيره عيسى بن ماساى وكان من علية وزرائه وحماة ميدانه وله في ذلك أخبار مذكورة ، وكا نميلكه في شوال من السنة المذكورة وفدم عليه وهو محاصر لتلمسان الامير أبو زيان محمد ابن عبد القوى بن العباس بن عطية كبير بنى توجين من زناتة فـى جيش كثيف من قومه مباهيا بنوده وطبوله وآلة حربه ، وكان قدومه هذا بقصد مظاهرة السلطان يعقوب على يغمراسن وتلمسان لعداوة كانت بينهما فأكرم السلطان يعقوب وفادته واستركب الناس للقائه واتخذ رتبة السلاح لمباهاته واستمر الحصار على تلمسان ، وعظمت نكاية بنى توجين فيها بتخريب الرباع وانتساف الجنات وقطع الثمار وافساد الزرع وتحريق القرى والضياع لما كان يغمراسن يعاملهم في بلادهم بمثل ذلك أوأكثر ، ولماامتنعت تلمسان على السلطان يعقوب وأيس من فتحها لحصانتها واشتداد شوكة حاميتها عزم على الافراج عنها وأشار على الامير محمد بن عبد القوى بالقفول الى مأمنه قبل أن ينهض هو عن تلمسان ووصله وقومه وملا حقائبهم من التحف وجنب لهم مائة من الخيل المقربات الجياد بمراكبها وأراح عليهم ألف ناقة حلوب وعمهم بالخلع الفاخرة والصلات الوافرة واستكثر لهم من السلاح والفازات والفساطيط وحملهم على الظهر وارتحلوا الى منجاتهم ومقرهم من جبل وانشريس ، وتلوم السلطان يعقوب عليهم أياما ريثما وصلوا حذرا عليهم من يغمراسن أن ينتهز الفرصة في اتباعهم ، ثم أقلع السلطان عن تلمسان وثنى عنانه الى المغرب فوصل الى رباط تازا في أول يوم من ذى الحجة من السنة المذكورة فعيد بها عيد النحر ثم ارتحل الى فاس فدخلها فاتسح سنة احدى وسبعين وستمائة فأقام بها الى اليوم الحادى عشر من صفر فتوفي ولده وولى عهده الامير أبو مالك عبد الواحد بن يعقوب فأسف لفقده ثم صبر واحتسب

ثم نهض * الى مراكش فدخلها أوائل ربيع الثانى من السنة المذكورة فأقام بها شهرا حتى أصلح من شأنها ثم نهض الى طنجة وسبتة على ما نذكره

فتح طنجة وسبتة وما كان من أمر العزفى بهما

قدتقدم لنا في دولة أبى حفص عمر المرتضى أن الفقيه أبا القاسم العزفى استبد عليه بسبتة وتوارث ذلك بنوه من بعده وكان هؤلاء العزفيون من بيوتات سبتة وأهل الرياسة والعلم والدين فيهم ، ولما ضعف أمر بنى عبد المومن بالمغرب استقل الفقيه أبو القاسم بن أبى العباس العزفى برياستها وضبطها وانتظم فى طاعته سائر أعمالها ، ولما كانت سنة ثلاث وستين وستمائة بعث الفقيه المذكور أجفانه الى مدينة أصيلا فهدموا أسوارها ونقضوا قصبتها لانه خاف عليها من خلائها أن يملكها العدو ويتمنع بها ، واستمرت أموره فى سبتة ونواحيها على السداد وكانت طنجة تالية لسبتة في سائر أحوالها وكانتا معا من أحصن بلاد المغرب فدخل صاحب طنجة وهو أبو الحجاج يوسف بن محمد الهمدانى المعروف بابن الامير فى طاعة أبى القاسم المذكور ، ثم انتقض عليه لمضى سنة من طاعته واستبد وخطب لابن أبى حفص صاحب افريقية ثم للخليفة العباسى صاحب بغداد ثم لنفسه ، وسلك فى طنجة مسلك العزفى فى سبتة ولبثوا على ذلك ما شاء الله ، حتى اذا ملك بنو مرين المغرب وافتتحوا

(*) قال فى الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ما نصه : فلما انقضى شهر صفر الذى توفى فيه له والده أبو مالك ارتحل أمير المسلمين إلى حضرة مراكش فوصل إلى رباط الفتح فى الثانى عشر من ربيع الاول فأخذ البيعة لولده الامير أبى يعقوب على بنى مرين بولاية العهد بها لولده الامير أبى يعقوب ثم سار إلى مراكش فدخلها فى نصف ربيع الاخر فقعد بها أياما ثم ارتحل إلى بلاد السوس الخ ... وهذا خلاف ما عند المؤلف هنا فراجع ذلك ص ١٥٤ طبع الجزائر .

معاقله وحصونه وهلك الامير أبو بكر بن عبد الحق وابنه أبو حفص عمر من بعده فتحيز بنوه فى أتباعهم وحشمهم الى ناحية طنجة واصيلا فأوطنوا ضاحيتها وعاثوا فى نواحيها وضيقوا على أهل طنجة حتى شارطهم ابن الامير على خراج معلوم على أن يكفوا الاذية ويحموا الحوزة ويصلحوا السابلة فاتصلت يده بيدهم وترددوا الى البلد لاقتضاء حاجاتهم ، ثم مكروا وأضمروا الغدر فدخلوا فى بعض الايام متأبطين السلاح وفتكوا بابن الامير غيلة ، فثارت بهم عامة أهل طنجة واستلحموهم لحينهم فى مصرع واحد سنة خمس وستين وستمائة ، واجتمعوا على ولده فبايعوه وبقيت فى ملكته خمسة أشهر. ثم استولى عليها أبو القاسم العزفى فنهض اليها بعساكره من الرجل برا وبحرا وملكها وفر ابن الامير فلحق بتونس ونزل على المستنصر الحفصى واستقرت طنجة فى ايالة العزفى فضبطها وقام بأمرها وولى عليها من قبله وأشرك الملأ من أشرافها فى الشورى

ولما استولى السلطان يعقوب على حضرة مراكش ومحا دولة آل عبد المومن منها وفرغ من أمر عدوه يغمراسن هم بتلك الناحية وأحب أن يضيفها الى ما بيده ليصفو له أمر المغرب الاقصى كله فنهض الى طنجة ونازلها مفتتح اثنتين وسبعين وستمائة لانها كانت فى البسيط دون سبتة فكان أمرها أسهل فحاصرها نحو ثلاثة أشهر فامتنعت عليه ويئس منها وعزم على الافراج عنها فبينما هو يقاتل فى عشى اليوم الذى عزم على النهوض فى غده اذا بجماعة من رماتها قاموا على برج ورفعوا لواء أبيض ونادوا بشعار بنى مرين ، وذلك لخلاف وقع بينهم داخل البلد فتسارع الجند اليهم فملكوهم البرج فتسوروا اليه الحيطان وقاتلوا عليه سائر ليلتهم الى الصباح ثم تكاثرت جيوش بنى مرين واقتحموا البلد عنوة ونادى منادى السلطان يعقوب بالامان فلم يهلك من أهلها الا نفر يسير ممن رفع يده للقتال وشهر السلاح ساعة الدخول ، وكان ذلك فى ربيع الاول سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، ولما فرغ السلطان يعقوب من طنجة بعث ولده الامير يوسف الى سبتة فحاصر بها العزفى أياما ثم لاذ بالطاعة على أن يبقى ممتنعا بحصنه ويؤدى للسلطان خراجا معلوما كل سنة فقبل السلطان منه ذلك وأفرجت عنه عساكره وعاد الى فاس والله غالب على أمره

فتح سجلماسة وما كان من أمرها

قد ذكرنا ما كان من استيلاء الامير أبي بكر بن عبد الحق على سلجماسة ودرعة وانه عقد على مسلحتها لابي يحيى القطراني الذي كان السبب في فتحها عليه ، ولما هلك الامير أبو بكر استبد القطراني المذكور بسجلماسة ثم غلبه عليها المرتضى وقتل القطراني بواسطة القاضي ابن حجاج حسبما تقدم ذلك كله ثم غلب عليها بعد حين يغمراسن بن زيان بواسطة عرب المنبات من بني معقل أهل الصحراء وعقد عليها لعبد الملك بن محمد العبد الوادي المعروف بابن حنينة نسبة الى أمه وهي أخت يغمراسن بن زيان ولما فتح السلطان يعقوب بلادالمغرب وانتظمها في ملكه وجه عزمه الى افتتاح سجلماسة وانتزاعها من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها فنهض اليها في رجب سنة اثنتين وسبعين وستمائةفي جموع بني مرين وقبائل المغرب من العرب والبربر ، ونازلها ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وغير ذلك

قال ابن خلدون : « ونصب عليها هندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة امام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قـــدرة بارئها » اه كلامه . قلت وفيه فائدة : أن البارود كان موجودا في ذلك التاريخ وأن الناس كانوا يقاتلون به ويستعملونه في محاصراتهم وحروبهم يومئذ وفيه رد لما نقله أبو زيد الفاسي في شرح منظومته الموضوعة في العمل الجاري بفاس قال : « كان حدوث البارود سنة ثمان وستين وسبعمائة حسبما ذكره بعضهم في تأليف له في الجهاد وأنه استخرجه حكيم كان يعمل الكيمياء ففرقع له فأعاده فأعجبه فاستخرج منه هذا البارود » اه وصرح الشيخ أبو عبد الله بناني في حاشيته على مختصر الشيخ خليل بان حدوثه كان في وسط المائة الثامنة وهو غير صواب لما علمت من كلام ابن خلدون أنه كان موجودا قبل ذلك بنحومائة سنة ويغلب على ظني أن لفظ الستمائة تصحف بالسبعمائة فسرى الغلط من ذلك والله أعلم

وأقام السلطان يعقوب على حصار سجلماسة حولا كاملا وكــان سفهاؤها يصعدون فوق الاسوار ويعلنون بالسب والفحش الى أن هنك المنجنيــق ذات يوم طائفة من سورها فدخلت من هنالك عنوة بالسيف وعاث الجند في أهلها * فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية وأتى القتل على عاملها عبد الملك ابن حنينة ومــن كان بها من أشياخ بنى عبد الواد وعرب المنبات وكان فتحها آخر صفر وقيل يوم الجمعة ثالث ربيع الاول سنة ثلاث وسبعين وستمائة وكمل بفتحها للسلطان يعقوب فتح بلاد المغرب وتمشت طاعته فى أقطاره فلم يبق فيه أهل حصــن يدينون بغير دعوته ولا جماعة تتحيز الى غير فئته

أخبار السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المرينى في الجهــاد وما كان له بالاندلس من الذكر الجميل والفخر الجزيل رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان للعدو الكافر على المسلمين فى وقعة العقاب من الظهور والغلبة وأن تلك الوقعة كانت سبب ضعف المسلمين بالمغرب والاندلس واستيلاء العدو الكافر على جل ثغورها وحصونها ، ولما ضعف أمر الموحدين بالمغرب استبد السادة منهم بالاندلس وصاروا الى المنافسة فيما بينهم واستظهار بعضهــم على بعض بالطاغية واسلام حصون المسلمين اليه فى سبيل تلك الفتنة فمشت رجالات الاندلس بعضهم الى بعض وأجمعوا على اخراج الموحدين من أرضهم فثاروا بهم لوقت واحد وأخرجوهم وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامى ثم من بعده محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر ونازع ابن هود الرياسة بالاندلس ، ولا تسأل عما ذهب فى منازعتهما من حصــون المسلمين الكثيرة وبلادهم العديدة الشهيرة التى منها قرطبة واشبيلية قاعدتــا أرض الاندلس كان كل واحد من هذين الثائرين يتقرب الى الطاغية بما غلب

(*) الذى في الذخيرة السنية صفحة ١٥٨ أن السلطان يعقوب أمن سائر اهلها وعفا عنهم ونظر في مصالحهم ورفع مظالمهم وأصلح احوالهم وبلادهم

عليه من ذلك ليعينه علي صاحبه والامر لله وحده ، وانقرض أمر ابن هود عن أمد قريب واستمرت دولة ابن الاحمر فى عقبه الى اخر المائة التاسعة ولما استتب أمر ابن الاحمر بالاندلس عقد السلم مع الطاغية على أن ينزل له عن جميع بسائط عرب الاندلس فنزل له عنها أجمع ولجأ بالمسلمين الى سيف البحر معتصمين بأوعاره ومتشبثين بمعاقله وحصونه ، واختار ابن الاحمر لنزوله مدينة غرناطة واتخذها كرسى مملكته وابتنى بها لسكناه حصن الحمراء

وكان ابن الاحمر هذا يدعى بالشيخ وكان قد عهد الىولده القائم من بعده محمد المعروف بالفقيه لانتحاله طلب العلم فى صغره وأوصاه اذا نابه أمر من العدو أو وصل اليه مكروه أن يستنصر عليه ببنى مرين ويدرأ بهم فى نحره ويجعلهم وقاية بين العدو وبين المسلمين ، فلما تكالب الطاغية على بلاد الاندلس بادر محمد الفقيه الى العمل باشارة والده وأوفد (*) مشيخة الاندلس كافة على السلطان يعقوب رحمه الله فلقيه وفدهم منصرفا من فتح سجلماسة فتبادروا للسلام عليه وألقوا اليه كنه الخبر عن كلب العدو على المسلمين وثقل وطأته فحيا وفدهم واستبشر بمقدمهم وبادر لاجابة داعى الله وايثار الجنة وكان السلطان يعقوب رحمه الله منذ أول أمره موثرا عمل الجهاد كلفابه مختارا له لو أعطى الخيار على سائر أعماله حتى لقد كان اعتزم على الغزو الى الاندلس أيام أخيه الامير أبى بكر وطلب اذنه فى ذلك فلم يأذن له فكان فى نفسه من ذلك شغل وله اليه صاغية ، فلما قدم عليه هذا الوفد نبهوا عزيمته وايقظوا همته فأعمل فى الاحتشاد وبعث فى النفير ونهض من فاس فى شوال سنة ثلاث وسبعين وستمائة فوصل الى طنجة وأقام هنالك وجهز خمسة آلاف من قومه أزاح عللهم وأجزل أعطياتهم وعقد عليهم لابنه أبى زيان وأعطاه الراية واستدعى من العزفى صاحب سبتة السفن لاجازتهم فوافاه بقصر المجاز منه

(*) راجع نص الكتاب الذى جاء به مشيخة الاندلس من ابن الاحمر إلى السلطان يعقوب يستنهضه فيه للجهاد فى كتاب الذخيرة السنية صفحة ١٥٩ طبع الجزائر .

وراجع ايضا جواب السلطان يعقوب على كتاب ابن الاحمر فى الذخيرة السنية ايضا صفحة ١٦٢ .

عشرون أسطولا فأجاز العسكر المذكور ونزل بطريف في السادس عشر من ذى القعدة من السنة المذكورة فأراح الامير أبو زيان بطريف ثلاثاء ثم دخل دار الحرب وتوغل فيها وأجلب على ثغورها وبسائطها وامتلات أيديهم مسن المغانم وأثخنوا بالقتل والاسر وتخريب العمران ونسف الآثار حتى نزل بساحة شريش فخام حاميتها عن اللقاء وتحصنوا بالاسوار وقفل الامير أبو زيان الى الجزيرة الخضراء وقد امتلات أيدى عسكره من الاموال وحقائبهم من السبى وركائبهم من السلاح والاثاث ورأى أهل الاندلس أن قد ثأروا بعام العقاب بعد أن لم تنصر لهم راية من ذلك اليوم الى الآن والله غالب على أمره .

الجواز الاول للسلطان يعقوب الى الاندلس برسم الجهاد

ثم اتصل الخبر بالسلطان يعقوب رحمه الله أن العدو قد أخذ في الاستعداد وعزم على الخروج الى بلاد المسلمين فاعتزم على الغزو بنفسه ، وخشى على ثغور بلاده من عادية يغمراسن صاحب تلمسان فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد بن يعقوب في وفد من بنى مرين لعقد السلم مع يغمراسن والرجوع للاتفاق والموادعة ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد فأكرم موصله وموصل قومه ، وبادر الى الاجابة والالفة وأوفد مشيخة بنى عبد الواد على السلطان يعقوب لعقد السلم وبعث معهم الرسل وأسنى الهدية وجمع الله كلمة الاسلام وعظم موقع هذه السلم من السلطان يعقوب لما كان في نفسه من الميل الى الجهاد وايثار مبرورات الاعمال ، فبث الصدقات شكرا لله تعالى على ما منحه من التفرغ لذلك ، ثم استنفر الكافة واحتشد القبائل والجموع ودعا المسلمين الى جهاد عدوهم وخاطب في ذلك سائر أهل المغرب من زناتة والعرب والموحدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة وجميع قبائل البربر من المرتزقة والمتطوعة وأهاب بهم وشرع في عبور البحر فأجازهم مسن فرضة قصر المجاز في صفر سنة أربع وسبعين وستمائة واحتل بساحل طريف

وكان السلطان يعقوب حين استصرخه ابن الاحمر وأوفد عليه مشايخ الاندلس اشترط عليه السلطان يعقوب النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضه لاحتلال عساكره بها فتجافى له عن رندة وطريف

ولما أحس الرئيس أبو محمد بن اشقيلولة باجازة السلطان يعقوب قدم اليه الوفد من أهل مالقة ببيعتهم وصريخهم وكان أبو محمد بن اشقيلولة وأخوه أبو اسحق من أصهار ابن الاحمر وكانا مستوليين على مالقة ووادي آش وقمارش ووقعت بينهما وبين ابن الاحمر منافسة فخرجا عن طاعته ، ولما عبر السلطان يعقوب الى الاندلس بادر أبو محمد بن اشقيلولة اليه واتصل به وأمحضه الود والنصح وسابق ابن الاحمر في ذلك ونازعه في برور مقدمه والاذعان له وربما صدرت من ابن اشقيلولة في حق ابن الاحمر جفوة بمحضر السلطان يعقوب أدت الى بعض الفساد وانصرف ابن الاحمر مغاضبا للسلطان من أجل ذلك

ولما احتل السلطان بناحية طريف ملأت كتائبه ساحة الارض ما بينها وبين الجزيرة الخضراء ، ثم نهض الى العدو قبل أن يسبق اليهم الخبر فدخل دار الحرب وانتهى الى الوادى الكبير فعقد هنالك لولده الامير يوسف على خمسة آلاف من عسكره قدمها بين يديه ثم تبعه على أثره وسرح كتائبه في البسائط وخلال المعاقل تنسف الزروع وتحطم الغروس وتخرب العمران وتنتهب الاموال وتكتسح السرح وتقتل المقاتلة وتسبى النساء والذرية حتى انتهى الى حصن المدور وبياسة وأبدة واقتحم حصن بلمة عنوة ، وأتى على سائر الحصون في طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها

وقفل السلطان يعقوب رحمه الله والارض تموج سبيا الى أن عرس باستجة من تخوم دار الحرب وجاءه النذير باتباع العدو آثاره لاستنقاذ أسراه واسترجاع أمواله وأن زعيم الفرنج وعظيمهم نونه خرج في طلبهم في أمم النصرانية من المحتلم الى الشيخ فقدم السلطان الغنائم بين يديه وسرح ألفا من الفرسان أمامها وسار يقتفيها من خلفها حتى اذا أطلت رايات العدو من ورائهم كان الزحف ورتب المصاف وجرد السيف وذكر اسم الله وراجعت زناتة بصائرها وعزائمها وتحركت هممها وأبلت في طاعة ربها والذب عن دينها

وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها فى مقاماتها ومواقفها فلم يكن الا كلا ولاحتى هبت ريح النصر وظهر أمر الله وانكشفت جموع النصرانية وقتل الزعيم نونه وكان هذا اللعين زعيم النصرانية بالاندلس قد قدمه الفنش على جيوشه واستعمله على حروبه وفوض له فى جميع أموره وكان النصارى قد سعدوا بطائره وتيمنوا بنقيبته لانه لم تهزم له قط راية وكان وبالا على بلاد الاسلام كثير الغارات عليها حتى جمع الله بينه وبين السلطان يعقوب فأراحه من تعب الحرب وكد الغارات وألحقه بأمه الهاوية ، ومنح المسلمين رقاب الفرنج واستحر فيهم القتل حتى بلغت قتلاهم عدد الالوف وجمعوا من رؤوسهم ما أذن أذنوا عليها لصلاتى الظهر والعصر ، واستشهد من المسلمين ما يناهز الثلاثين(*) أكرمهم الله تعالى بالشهادة وآثرهم بما عنده ونصر الله حزبه وأعز أولياءه وأظهر دينه ، وبدا للعدو ما لم يكن يحتسبه بمحاماة هذه العصابة عن الملة وقيامها بنصر الكلمة وبعث السلطان يعقوب رحمه الله برأس الزعيم نونه الى ابن الاحمر فيقال انه بعثه سرا الى قومه بعد أن طيبه وأكرمه ولاية أخلصها لهم ، ومداراة وانحرافا عن السلطان يعقوب ظهرت شواهد ذلك عليه بعد حين

واعلم أن هذا الزعيم يسميه كثير من المؤرخين دون نونه ولفظة دون معناها فى لسانهم السيد أو العظيم أو ما أشبه ذلك فلذا أسقطناها

وقفل السلطان يعقوب من غزاته هذه الى الجزيرة الخضراء منتصف ربيع من السنة المذكورة فقسم فى المجاهدين الغنائم وما نفلوه من أموال عدوهم وسباياهم واسراهم وكراعهم بعد الاستئثار بالخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه فى مصارفه ، ويقال كان مبلغ الغنائم فى هذه الغزاة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفا من السبى ومن الاسارى سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثون ومن الكراع أربعة عشر ألفا وستمائة ، وأما الغنم فاتسعت عن الحصر كثرة حتى لقد زعموا أنه قد بيعت الشاة الواحدة بدرهم وكذلك السلاح

وأقام السلطان يعقوب بالجزيرة أياما ثم نهض فى جمادى الاولى من

(*) ذكر فى الذخيرة السنية أن عددهم أربعة وعشرون صفحة ١٧٣ طبع الجزائر .

السنة المذكورة غازيا اشبيلية فجاس خلالها وتقرى نواحيها وأقطارها واثخن بالقتل والنهب في جهاتها وعاث في عمرانها وأوغل في مسيره حتى وقف على بابها وقرعت طبوله في جوها وخفقت ألويته على جنباتها ولجأت الفرنج الى الاسوار واعتمدوا على الحصار ولم يخرج اليه منهم أحد ، ثم ارتحل الى شريش فأذاقها من وبال العيث والاكتساح مثل ذلك أو أكثر ورجع الى الجزيرة لشهرين من غزاته فبيعت الفرنجية من سبيه بها بمثقال ونصف لكثرة السبي حينئذ (*)

ودخل فصل الشتاء فنظر السلطان يعقوب في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدوة لنزول عسكره متبذا عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العسكر وجفائهم وتخير لهامكانا ملاصقا للجزيرة فأوعز ببناء المدينة المشهورة بالبنية ، ثم أجاز البحر الى المغرب في رجب من سنته أعني سنة أربع وسبعين وستمائة فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر واحتل بقصر مصمودة وأمر ببناء السور على بادس مرفأ السفن ومحل العبور من بلاد غمارة ثم رحل الى فاس فدخلها في النصف من شعبان من السنة المذكورة

فتح جبل تينملل ونبش قبور بني عبد المؤمن على يد المليانى عفا الله عنه

قد تقدم لنا أن جبل تينملل كان حصنا للموحدين وملجأ لهم اذا نابهم مكروه وكان مسجده مزارا عظيما لهم لانه مدفن أمامهم وملحد خلفائهم فكانوا يعكفون عليه ويلتمسون بركة زيارته ويقدمون ذلك بين يدي غزواتهم قربة يتقربون بها الى الله تعالى ، ولما استولى السلطان يعقوب على مراكش فر من كان بها من الموحدين الى الجبل المذكور واعتصموا به وبايعوا اسحق أخا المرتضى

(*) ذكر في الذخيرة السنية أن السلطان يعقوب كتب بهذا الفتح لبلاد العدوة وقرئ كتابه على المنابر و كذلك كتب الفقيه أبو القاسم العزفي رسالة إلى فقهاء المغرب وصلحائه بشرح هذه الغزاة فانظرها هنالك صفحة ١٧٥ طبع الجزائر .

وأملوا منه رجع الكرة وادالة الدولة واستمر الحال على ذلك الى هذه السنة فنهض عامل مراكش من قبل السلطان يعقوب وهو محمد بن علي بن محلي أحد خؤلته ونازل الجبل المذكور وحاصره مدة ثم اقتحمه عنوة وافتض عذرته وفك ختامه وتقبض على خليفة الموحدين اسحق وابن عمه السيد أبي سعيد بن أبي الربيع ومن معهما من الاولياء وجنبوا الى مصارعهم بباب الشريعة من مراكش فضربت أعناقهم وصلبت أشلاؤهم وكان فيمن قتل منهم الكاتب القبائلي وأولاده

وعاثت عساكر بني مرين في جبل تينملل واكتسحوا أمواله ونبشوا قبور خلفاء بني عبد المومن واستخرجوا أشلاءهم وكان فيها شلو يوسف بن عبد المومن وابنه يعقوب المنصور فقطعت رؤوسهم وتولى كبر ذلك أبو علي بن أحمد الملياني ، كان أبو علي هذا ثار على الحفصيين بمدينة مليانة فجهزوا اليه عساكرهم وأجهضوه عنها ففر الى السلطان يعقوب فقبله وآواه وأقطعه بلد أغمات اكراما له ، فحضر هذه الوقعة في جملة العسكر وارتكب هذا الفعل الشنيع ورأى أنه قد شفى نفسه باستخراج هؤلاء الخلائق من أرماسهم والعبث بأشلائهم وقد انكر الناس عامة والسلطان يعقوب خاصة هذه الفعلة منه ولم يرضوها ومع ذلك فقد تجاوز له السلطان يعقوب عنها تأنيسا لغربته ورعيا لجواره ولما توفي السلطان يعقوب وولي بعده ابنه يوسف سعى اليه في الملياني هذا فنكبه على ما نذكره ان شاء الله . . . .

ولما وصل السلطان يعقوب من غزوته الى فاس انتقض عليه طلحة بن محلي أحد أخواله وتمنع بجبل آصروا من بلاد فازاز فسار اليه السلطان يعقوب وحاصره به فأناب الى الطاعة ونزل على الامان(*) وذلك في منتصف رمضان سنة أربع وسبعين وستمائة وفي ثاني يوم من شوال من هذه السنة ثارت العامة باليهود بفاس بسبب حدث أحدثوه فقتلوا منهم أربعة عشر يهوديا ولولا أن السلطان ركب بنفسه ورد العامة عنهم لكانت اياها . . . . .

---

* وطلب من السلطان أن يبيح له التوجه إلى المشرق وأداء فريضة الحج وأسعفه ووصله بمال جليل وخيل عتاق وما يحتاج إليه . الذخيرة السنية صفحة ١٨٦ طبع الجزائر

بناء المدينة البيضاء المسماة اليوم بفاس الجديد

لما فتح جبل تينملل ومحيت منه بقية آل عبد المومن وتمهد ملك المغرب للسلطان يعقوب واستفحل أمره وكثرت غاشيته رأى أن يختط بلدا ينسب اليه ويتميز بسكناه وينزل فيه بحاشيته وأوليائه الحاملين لسرير ملكه، فأمر ببناء المدينة البيضاء ملاصقة لمدينة فاس على ضفة واديها المخترق لها من جهة أعلاه وشرع في تأسيسها ثالث شوال من سنة أربع وسبعين وستمائة ، وركب السلطان بنفسه فوقف عليها حتى خطت مساحتها وأسست جدرانها وجمع الايدى عليها وحشر الصناع والعملة لبنائها وأحضر لها أهل النجامة والمعدلين لحركات الكواكب فاختاروا لها من الطوالع ما يرضون أثره ويحمدون سيره وأسست فيه وكان في أولائك المعدلين امامان شهيران أبو الحسن بن القطان * وأبو عبد الله ابن الحباك المقدمان في الصناعة فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم رحمه الله وكما رضى ، ونزلها بحاشيته وذويه سنة أربع وسبعين المذكورة ، واختط الناس بها الدور والمنازل وأجريت فيها المياه الى القصور ، وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الايام

قال ابن أبي زرع : ومن سعادة طالعها أنه لايموت فيها خليفة ولم يخرج منها لواء قط الا كان منصورا ولا جيش الا كان ظافرا

ثم أمر رحمه الله ببناء قصبة مكناسة فشرع في بنائها وبناء جامعها في السنة المذكورة ثم استوزر صنيعه أبا سالم فتح الله السدراتي وأجرى له رزق الوزارة على عادتهم

ثم كافأ يغمراسن بن زيان على هديته التى كان بعث بها اليه قبل اجازته الى الاندلس فبعث اليه فسطاطا رائقا كان صنع له بمراكش وثلاثين من البغال الفارهة ذكرانا واناثا وغير ذلك مما يباهى به ملوك المغرب

وفي سنة خمس وسبعين وستمائة أهدى اليه الامير محمد بن عبدالقوى

(*) في الذخيرة السنية بدل ابن القطان أبو الربيع سليمان الغياش صفحة ١٨٧ طبع الجزائر

التوجيني صاحب جبل وانشريس أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة ورأى أنها على قلة عددها أحفل هدية وفي نفسه أثناء هذا كله من أمر الجهاد شغل شاغل يتخطى اليه سائر أعماله حسبما نذكره ان شاء الله

الجواز الثاني للسلطان يعقوب إلى الاندلس برسم الجهاد

لما قفل السلطان يعقوب من غزوته الاولى واستنزل الخوارج وثقف الثغور وهادى الملوك واختط المدينة البيضاء لنزوله كما ذكرنا ، خرج فاتح سنة خمس وسبعين وستمائة الى جهة مراكش لسد ثغورها وتثقيف أطرافها وتوغل في أرض السوس وبعث وزيره فتح الله السدراتي في العساكر فجاس خلالها ثم انكفأ راجعا وهناك خاطب السلطان يعقوب رحمه الله قبائل المغرب كافة بالنفير الى الجهاد فتثاقلوا عليه فلم يزل يحرضهم وهم يسوفون الى أن دخلت سنة ست وسبعين بعدها ، ولما رأى تثاقل الناس عليه نهض الى رباط الفتح وتلوم به أياما في انتظار الغزاة فأبطأوا عليه فخف في خاصته وتقدم في حاشيته حتى انتهى الى قصر المجاز ، وقد تلاحق به الناس من كل جهة لما رأوا من عزمه وتصميمه فأجاز بهم البحر واحتل بطريف آخر محرم من السنة المذكورة ، ثم ارتحل الى الجزيرة الخضراء ثم الى رندة ، فوافاه بها الرئيسان أبو محمد عبد الله بن أبي الحسن على بن اشقيلولة صاحب مالقة وأخوه أبو اسحق ابراهيم بن أبي الحسن برسم الجهاد معه

ثم ارتحل السلطان من رندة فاتح ربيع الاول من السنة المذكورة حتى انتهى الى اشبيلية فعرس عليها يوم المولد النبوي وكان بها يومئذ ملك الجلالقة ابن اذفونش فلم يجد بدا من الخروج اليه بعد أن خام عن اللقاء أولا فبرز في جموعه وصفها على ضفة الوادي الكبير من ناحية السلطان وأظهر من أبهة الحرب ما قدر عليه فكانت جيوشه كلها في الدروع السوابغ والبيض اللوامع والسيوف البواتر وغير ذلك من آلات الحرب التي يكاد

شعاعها يدهش البصر وزحفت اليه السلطان يعقوب رحمه الله بعد أن صلى ركعتين ودعا الله تعالى ووعظ الناس وذكرهم فرتب مصافه وجعل ولده الامير يوسف في المقدمة وزحف على التعبية فاقتتلوا مليا ، ثم انهزمت الفرنج فسافط بعضهم في الوادي وانحدر آخرون مع ضفته وتصاعد آخرون كذلك واقتحم المسلمون عليهم وسط الماء وقتلوهم في لجته حتى صار الماء أحمر وطفت جيفهم من الغد عليه فكان فيهم عبرة لمن اعتبر ، وبات السلطان والمسلمون تلك الليلة على صهوات خيولهم يقتلون ويأسرون وأضرموا النيران بساحة اشبيلية حتى صار الليل نهارا وباتت الفرنج على الاسوار ينفخون في القرون ويحترسون طول ليلتهم

ثم ارتحل السلطان من الغد الى جبل الشرف وبث السرايا في نواحيه فلم يزل يتقرى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها ودخل حصن قطنيانة وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة وأثخن في القتل والسبي ثم ارتحل بالغنائم والاثقال الى الجزيرة الخضراء فدخلها في الثامن والعشرين من ربيع الاول المذكور فأراح بها وقسم الغنائم في المجاهدين ثم خرج غازيا مدينة شريش منتصف ربيع الاخر فنازلها وأذاقها نكال الحرب ووبال الحصار وقطع الزياتين والاعناب وسائر الاشجار وأباد خضراءها وحرق ديارها وأثخن فيها بالقتل والاسر وكان السلطان يعقوب يباشر قطع الشجر والثمر بيده وسرح ولده الامير يوسف من معسكره في سرية للغارة على اشبيلية وحصون الوادي الكبير فبالغ في النكاية واكتسح حصن روطة وشلوقة وغليانة والقناطر ثم صبح اشبيلية فاكتسحها وانكفأ راجعا بالمغانم والسبي الى السلطان يعقوب فسر بمقدمه وقفلوا جميعا الى الجزيرة الخضراء فأراح السلطان بها أياما وقسم في المجاهدين غنائمهم ثم جمع أشياخ القبائل وندبهم الى غزو قرطبة وقال : « يامعشر المجاهدين ان اشبيلية وشريش وأحوازهما قد ضعفت وبادت ولم يبق لكم بها كبير نفع ولا نكاية وان قرطبة وأعمالها بلاد حصينة عامرة وعليها اعتماد الفرنج ومنها معاشهم وما دتهم فان غزوتموها واستأصلتم خضراءها مثل ما فعلتم باشبيلية وشريش كان ذلك سبب ضعف النصرانية

بهذا القطر » فأجابوا بالسمع والطاعة فدعا لهم وفرق فيهم الاموال والخلع وخاطب ابن الاحمر يستفره للجهاد معه وقال : « ان خروجك معي الى قرطبة يكون لك مهابة في قلوب الفرنج ما عشت سوى ما تستوجبه من الله تعالى من الثواب في ذلك»

ونهض السلطان الى قرطبة فاتح جمادى الاولى من سنة ست وسبعين المذكورة فوافاه ابن الاحمر بناحية شدونة فاكرم موصله وشكر خفوفه الى الجهاد وبداره اليه ونازلوا حصن بني بشير فدخلوه عنوة وقتلت المقاتلة وسبيت النساء وتفلت الاموال وهدم الحصن حتى لم يبق له أثر ثم بث السلطان رحمه الله السرايا والغارات في البسائط. فاكتسحها وامتلات الايدي وأثرى العسكر وفاض عليهم من الغنم والبقر والمعز والخيل والبغال والحمير والقمح والشعير والزيت والعسل ما لا يوصف ثم ساروا يتقرون المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها وخفقت ألوية السلطان في نواحيها وزعقت طبوله في فضائها وتقدم في أبطاله وحماته حتى وقف على بابها ثم دار بأسوارها ينظر كيف الحيلة في قتالها ووقف ابن الاحمر بعساكر الاندلس أمام محلة المسلمين يحرسونها خوفا من كرة العدو وخنس الفرنج وراء الاسوار وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحي قرطبة وقراها ، فنسفوا آثارها وخربوا عمرانها وترددوا على جهاتها ودخلوا حصن الزهراء بالسيف وأقام السلطان على قرطبة ثلاثا ثم ارتحل عنها الى حصن بركونة فدخله عنوة ثم ارجونة كذلك ثم قدم بعثا الى مدينة جيان فقاسمها حظها من الخسف والدمار ، وخام الطاغية عن اللقاء وأيقن بخراب عمرانه واتلاف بلاده فجنح الى السلم وخطبه من السلطان يعقوب ورغب فيه اليه وبعث الاقسة والرهبان للوساطة في ذلك فرفعهم السلطان يعقوب الى ابن الاحمر وجعل الامر في ذلك اليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه وقال لوفد الفرنج : « انما أنا ضيف والضيف لا يصالح على رب المنزل» فساروا الى ابن الاحمر وقالوا له: «ان السلطان يعقوب قد رد الامر اليك ونحن قد جئناك لنعقد معك صلحا مؤبدا لا يعقبه غدر ولا

حرب ، وأقسموا له بصلبانهم ان لم يرضه الفنش ليخلعنه لانه لم ينصر الصليب ولا حمى الحوزة فأجابهم ابن الاحمر اليه بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس اذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الاندلس اليه منذ المدد الطويلة فانعقد السلم فى آخر شهر رمضان من السنة المذكورة وقفل السلطان يعقوب من غزاته هذه وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الاحمر وخرج له عن الغنائم كلها فاحتوى عليها ابن الاحمر وساقها الى غرناطة وقال له السلطان يعقوب: «يكون حظ بنى مرين من هذه الغزاة الاجر والثواب مثل ما فعل يوسف ابن تاشفين رحمه الله مع أهل الاندلس يوم الزلاقة »

ولما قفل السلطان يعقوب من هذه الغزوة اعتل الرئيس أبو محمد بن اشقيلولة ثم هلك غرة جمادى من السنة المذكورة فلحق ابنه محمد بالسلطان يعقوب آخر شهر رمضان وهو متلوم بالجزيرة الخضراء منصرفه من الغزو كما ذكرناه فنزل له عن مالقة ودعاه الى حوزها منه وقال لـه : « ان لم تحزها أعطيتها للفرنج ولا يتملكها ابن الاحمر » فحازها السلطان يعقوب منه وعقد عليها لابنه أبى زيان منديل بن يعقوب فسار اليها وتملكها ، وعز ذلك على ابن الاحمر غاية لانه لما بلغه وفاة أبى محمد بن اشقيلولة سما أمله اليها وأن ابن أخته وهو محمد الوافد على السلطان يعقوب شيعة له لايبغى به بدلا فأخطأ ظنه وخرج الامر بخلاف ما كان يرتقب ، ولما قضى السلطان يعقـــوب بالجزيرة الخضراء صومه ونسكه خرج الى مالقة فدخلها سادس شوال من السنة وبرز اليه أهلها فى يوم مشهود واحتفلوا لهاحتفال آيام الزينة سرورا بمقدم السلطان واغتباطا بدخولهم فى دعوته وانخراطهم فـى سلك رعيتـه ، وأقام فيهم الى خاتم سنته ثم عقد عليها لعمر بن يحيى بن محلى من صنائع دولتهم ، وأنزل معه المسالح وترك عنده زيان بن أبى عياد بن عبد الحق فـى طائفة لنظره من أبطال بنى مرين ، واستوصاه بمحمد بن اشقيلولة وارتحل الى الجزيرة الخضراء ، ثم أجاز منها الى المغرب فاتح سنة سبـع وسبعيـن وستمائة وقد اهتزت الدنيا لمقدمه وامتلأت القلوب سرورا بما هيأه الله من نصر المسلمين بالاندلس وعلو راية الاسلام على كل راية وعظمت بذلك كله موجدة ابن الاحمر ونشأت الفتنة كما نذكره ان شاء الله

حدوث الفتنة بين السلطان يعقوب وابن الاحمر وما نشأ عن ذلك من حصار الجزيرة الخضراء وغير ذلك

قد تقدم لنا أن بنو اشقيلولة كانوا أصهارا لابن الاحمر وأنهم لما قدموا على السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء في جوازه الاول صدرت من ابن اشقيلولة كلمات أحفظت ابن الاحمر وغاظته فذهب لاجلها مغاضبا وانحرف عن السلطان يعقوب ولم يشهد معه الغزو ولا عرج على الجهاد ، ولما نصر الله السلطان يعقوب على عدوه وقتل العلج وبعث برأسه الى ابن الاحمر طيبه وبعثه الى قومه انحرافا عن السلطان وموالاة للعدو ، ولما جاز السلطان يعقوب الجواز الثاني انقبض عنه ابن الاحمر ولم يلقه حتى خاطبه السلطان واستنفره الى الجهاد فلحقه بشدونة كما مر ، ولما صنع الله للسلطان ماصنع من الظهور والعز الذى لاكفاء له واستولى على مالقة من يد ابن اشقيلولة ارتاب ابن الاحمر بمكانه وظن به الظنون وتخوف منه ما كان من يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف فغص بمكانه وأظلم الجو بينهما ودارت بينهما مخاطبات شعرية على ألسنة الكتاب في معنى العتاب ولم تزل القوارص بين السلطانين تجرى وعقارب السعاية تدب وتسرى وخوف ابن الاحمر على ملكه يشتد ويزيد وأوامر الاخوة الاسلامية تتلاشى وتبيد الى أن استحكمت البغضاء وضاق بينهما رحب الفضاء ففزع ابن الاحمر الى مداخلة الطاغية في شأنه واتصال يده بيده وحبله بحبله وأن يعود الى منزلة أبيه معه من ولايته ليدافع به السلطان يعقوب وقومه عن أرضه ويأمن معه من زوال سلطانه فاغتنم الطاغية هذه الفرصة ونكث عهد السلطان يعقوب ونقض السلم وأعلن بالحرب وأغزا أساطيله الجزيرة الخضراء حيث كانت مسالح السلطان يعقوب وجنوده وأرست بالزقاق حيث فراض المجاز وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر وحال العدو بينهم وبين اغاثته اياهم واتصلت يد ابن الاحمر بيد الطاغية واتفقا على منع السلطان يعقوب من عبور البحر وداخل

ابن الاحمر عمر ابن يحيى بن محلى صاحب مالقة فى النزول له عنها بعوض فنعل واستولى ابن الاحمر عليها ثم راسل هو والطاغية يغمراسن بن زيان من وراء البحر وراسلهم هو فى مشاقة السلطان وافساد ثغوره وانـــزال العوائق المانعة له من حركته والاخذ بأذياله عن النهوض الى الغزو وأسنوا فيما بينهما الهدايا والتحف وجنب يغمراسن الى ابن الاحمر ثلاثين من عتاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف ، وبعث اليه ابن الاحمر مكافأة على ذلك عشرة آلاف دينار فلم يرض بالمال ورده وأصفقت آراؤهم جميعا على السلطان يعقوب ورأوا أن قد أبلغوا فى احكام أمرهم وسد مذاهبه اليهم .

واتصل خبر هذا كله بالسلطان وهو بمراكش كان خرج اليها مرجعه من الغزو فى المحرم سنة سبع وسبعين وستمائة لما كان من عيث عرب جشم بتامسنا وافسادهم السابلة ، فثقف أطرافها وحسم مادة فسادها ، ثم اتصل به خبر ابن محلى ونزوله عن مالقة لابن الاحمر ومنازلة الطاغية باساطيله للجزيرة الخضراء وتضييقه على المسلمين بها ، فبلغ ذلك منه كل مبلغ ونهض من مراكش ثالث شوال من السنة يريد طنجة فوصل الى قرية مكول من بلاد تامسنا فتوالت عليه بها الامطار والسيول وعاقته عن النهوض ، وبينما هو فى ذلك ورد عليه الخبر أيضا بنزول الطاغية على الجزيرة الخضراء برا واحاطة عسكره بها بعد أن كانت أساطيله منازلة لها فى البحر منذ ستة أشهر أو سبعة وانه مشرف على التهامها وبعثوا اليه يستصرخونه ويخبرونه بالحال فاعتزم على الرحيل .

ثم اتصل به الخبر ثالثا بخروج مسعود بن كانون السفيانى ببلاد نفيس من أرض المصامدة خامس ذى القعدة من السنة وان الناس اجتمعوا اليه من قومه وغيرهم ، فانخرقت على السلطان الفتوق وتوالت عليه الخطوب ولم يدر ما يصنع ، الا أنه رأى أن يقدم أمر ابن كانون والعرب فكر راجعا اليه وقدم بين يديه حافده تاشفين بن أبى مالك ووزيره يحيى بن حازم العلوى وجاء هو على ساقتهم ، وفر مسعود بن كانون وجموعه أمام السلطان فانتهب معسكرهم وحللهم واستباح عرب الحارث من سفيان ، ولحق مسعود بجبل

سكسيوة فاعتصم به وشايع عبد الواحد السكسيوى القائم به على خلافه ، ونازله السلطان يعقوب بعساكره أياما وسرح ابنه الامير أبا زيان منديل الى بلاد السوس لتمهيدها وتدويخ أقطارها فأوغل فى ديارها وقفل الى أبيه فى آخر يوم من السنة المذكورة .

واتصل بالسلطان ما تضاعف على أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال واعواز الاقوات ، وانهم ختنوا الاصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر فاهمه ذلك .

وكان أقسم أن لا يرتحل عن ابن كانون حتى ينزل على حكمه أو يهلك دون ذلك فاعمل النظر فيما يكسون به خلاص أهل الجزيرة فعقد لولى عهده ابنه الامير يوسف ، وكان بمراكش على الغزو اليها وكان أهل الجزيرة كما قلنا قد أحاط بهم العدو برا وبحرا وانقطعت عنهم المواد وعميت عليهم الانباء الا ما يأتيهم به الحمام من جبل طارق ، وفنى أكثرهم بالقتل والجوع وسهر الليل على الاسوار وشدة الحصار حتى أشرف بقيتهم على الهلاك وأيسوا من الحياة ، فحينئذ جمعوا صبيانهم وختنوهم كما مر وبينما هم على ذلك قدم الامير يوسف بجيوشه الى طنجة وكان قدومه فى اوائل صفر من سنة ثمان وسبعين وستمائة

وكان السلطان يعقوب لما بعث ابنه الامير يوسف الى طنجة قد كتب الى الثغور باعداد الاساطيل وعمارتها وتوجيهها اليه وقسم الاعطاءات وحض الناس على النهوض فتوفرت همم المسلمين على الجهاد وأجابوا من كل ناحية ، وأبلى الفقيه أبو حاتم العزفى صاحب سبتة لما بلغه الخطاب من السلطان فى شأن الاساطيل البلاء الحسن، وقام فيه المقام المحمود ، فهيأ خمسة وأربعين أسطولا واستنفر كافة أهل بلده من المحتلم الى الشيخ فركبوا البحر أجمعون ولم يبق بسبتة الا النساء والشيوخ والصبيان ، ورأى ابن الاحمر ما نزل بأهل الجزيرة واشراف الطاغية على أخذها فندم على ممالاته اياه وأعد أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة فكانت اثنى عشر اسطولا

فبعثها مددا للمسلمين ، وقدم من بادس وسلا وآنفى خمسة عش
فنهض في الوقت اثنان وسبعون أسطولا واجتمعت كلها بمرفا سبت
أخذت بطرفى الزقاق فى أحفل زى وأكمل استعداد ثم تقدمت
ليراها الامير يوسف فشاهدها وسر بها وعقد لهم رايته مع جماعة
بنى مرين رغبوا في الجهاد .

ثم أقلعت الاساطيل عن طنجة ثامن ربيع الاول سنة ثما
وستمائة وانتشرت قلوعهم في البحر فأجازوه وباتوا ليلة المولد ا
بمرفا جبل الفتح وصبحوا العدو وأساطيله يومئذ تناهز أربعمائة فـ
المسلمون في دروعهم وأسبغوا من شكتهم وأخلصو
عزائمهم وتنادوا بالجنة وشعارها ووعظ خطباؤهم وذكر صلحاؤهم
القتال ونزل الصبر فلم يكن الا كلا ولا حتى تضحوا العدو بالنبـل
أفروطتهم واختل مصافهم وانكشفوا وتساقطوا في عباب البحر ، فأ
السيف وغشيهم اليم واستولى المسلمون على أساطيلهم فملكوها
قائدها الملند في جماعة من حاشيته ، واستمر متقفا بفاس حتى فر بعد
وسر المسلمون الذين بداخل الجزيرة بفساد أفروطة العدو وهلاكه

ولما رأى عسكر الطاغية الذي في البر ما أصاب أهل البحر منهم من القتـ
داخلهم الرعب وخافوا من هجوم الامير يوسف عليهم اذ كان مقيم
طنجة مستعدا للعبور فقوضوا أبنيتهم وأفرجوا عن البلد لحينهم وا
المسلمون والنساء والصبيان بساحة البلد كأنما نشروا من قبر وغلبت
كثيرا من عسكر العدو على متاعهم فغنموا من الحنطة والادام والفواكـ
أسواق البلد أياما حتى وصلتها الميرة من النواحى

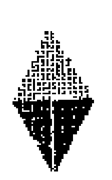
وأجاز الامير يوسف البحر من حينه فاحتل بساحل الجزيرة و
العدو في كل ناحية لكنه صده عن الغزو شأن الفتنة مع ابن الاحمر
أن يعقد مع الطاغية سلما ويصل يده بيده لمنازلة غرناطة دار ابن ا
فأجابه الطاغية الى ذلك رهبة من بأسه وموجدة على ابن الاحمر فى ما

الجزيرة وبعث أساقفته لعقد ذلك واحكامه فأجازهم الامير يوسف الى أبيه وهو بناحية مراكش فغضب لها وأنكر على ابنه وزوى عنه وجه رضاه ، وأقسم أن لايرى أسقفا منهم الا أن يراه بارضه ورجعهم الى طاغينهم مخفقي السعي كاسفي البال

ووصلت في هذه السنة هدية السلطان أبي زكرياء يحيى الواثق الحفصي مع أبي العباس الغماري حسبما مرت الاشارة اليه قبل هذا

ثم ان السلطان يعقوب رحمه الله رجع الى فاس وبعث خطابه الى الافاق مستنفرا للجهاد وفصل عنها غرة رجب من سنة ثمان وسبعين وستمائة حتى انتهى الى طنجة وعاين ما اختل من أحوال المسلمين في تلك الفترة وماجرت اليه فتنة ابن الاحمر من اعتزاز الطاغية وما حدثته نفسه من التهام الجزيرة الاندلسية ، ومن فيها وكان قد أمر أمره في هذه المدة وظاهره أعداء ابن الاحمر من بني اشقيلولة وغيرهم عليه حتى حاصروا غرناطة ومرج أمر الاندلس وتغلبت أطرافها وأشفق السلطان يعقوب رحمه الله على المسلمين الذين بها وعلى ابن الاحمر مما ناله من خسف الطاغية فراسله في الموادعة واتفاق الكلمة على أن ينزل له عن مالقة التي خادع عنها ابن محلي كما تقدم ، فامتنع ابن الاحمر وأساء الرد في ذلك فرجع السلطان يعقوب الى ازالة العوائق عن شأنه في الجهاد وكان من أعظمها فتنة يغمراسن واستيقن ما دار بينه وبين ابن الاحمر والطاغية ابن اذفونش من الاتصال والاصفاق على تعويقه عن الغزو فبعث الى يغمراسن يسأله عن الذي بلغه عنه ويطلب منه تجديد الصلح وجمع الكلمة ، فلج في الخلاف وكشف وجه العناد وأعلن بسما وقع بينه وبين أهل العدوة الاندلسية مسلمهم وكافرهم من الوصلة وأنه معتزم على وطء بلاد المغرب فصرف السلطان يعقوب عزمه الى غزو يغمراسن وقفل الى فاس لثلاثة أشهر من حلوله بطنجة فدخلها ءاخر شوال من السنة المذكورة وأعاد الرسل الى يغمراسن لاقامة الحجة عليه وقال له فيما خاطبه به : «الى متى يا يغمراسن هذا النفور والتمادي في الغرور ؟ أما آن أن تنشرح الصدور وتنقضي هذه الشرور ؟» في

كلام غير هذا فصم يغمراسن عن ذلك كله ولم يرفع بـه رأسا ، ولما أيـس السلطان يعقوب من اقلاعه ورجوعه نهض اليه مـن فاس آخـر سنة تسـع وسبعين وستمائة وقدم ابنه الامير يوسف في العساكر وتبعه فأدركه بتازا ، ولما انتهى الى ملوية تلوم أياما في انتظار العساكر ثم ارتحل حتى نزل وادى تافنا وصمد اليه يغمراسن بجموع زناتة والعرب بحللهم ونجعهـم وشائهـم ونعمهم وانتقت طوالع القوم أولا فكانت بينهما حرب ثم ركب على آثارهما المعسكران والتحم القتال سائر النهار ، وكان الزحف بالموضع المعروف بالملعب من أحواز تلمسان ثم انكشف بنو عبد الواد عند ما أراح القـوم وانتهـب معسكرهم بما فيه من الكراع والسلاح والفساطيط والمتـاع وبات عسكـر السلطان يعقوب تلك الليلة على متون جيادهم واتبعوا من الغد آثار عدوهم ، واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن وامتلأت أيـدى بنى مرين من شائهم ونعمهم وتوغلوا فـي أرض يغمراسن ، ووافـاه هنا لك محمد بن عبد القوى أمير بنى توجين لقيه بناحية القصبات وعاثوا جميعا في بلاده تخريبا ونهبا ثم أذن السلطان يعقوب لبنى توجين في اللحاق ببلادهم وأخذ هو بمخنق تلمسان محاصرا لها حتى يصل محمد بن عبد القـوى الى مأمنه من جبل وانشريس خوفا عليه من غائلة يغمراسـن واتباعه اياه ، ثـم أفرج عنها وقفل الى المغرب فدخل حضرة فاس في رمضان سنـة ثمانيـن وستمائة ، ثم نهض الى مراكش فدخلها فاتح سنة احدى وثمانين بعدها فبنى بها بامرأة مسعود بن كانون السفياني لانه كان قد هلـك قبل هـذه السنـة وسرح ابنه الامير يوسف الى السوس لتدويخ أقطاره ثم وافاه وهو بمراكش صريخ الطاغية على ما نذكره الان



الجواز الثالث للسلطان يعقوب إلى الاندلس مغيثا للطاغية ومغتنما فرصة الجهاد

لما كان السلطان يعقوب رحمه الله بمراكش سنة احدى وثمانين وستمائة قدم عليه كتاب طاغية الاصبنيول واسمه هراندة مع وفد من بطارقته وزعماء دولته مستصرخا له على ابنه سانجة الخارج عليه في طائفة من النصارى وأنهم غلبوه على أمره زاعمين بأنه شاخ وضعف عن تدبيرهم ولم يقدر على القيام بنصرتهم فاستنصره عليهم ودعاه لحربهم وأمله لاسترجاع ملكه من يدهم فاغتنم السلطان يعقوب هذه الفرصة في الحال وجعل جوابه نفس النهوض والارتحال فسار معهم لم يعرج على شيء حتى أتى قصر المجاز وهو قصر مصمودة فعبر منه واحتل لوقته بالجزيرة الخضراء في ربيع الثاني من سنة احدى وثمانين المذكورة وأوعز الى الناس بالنفير الى الجهاد واجتمعت عليه مسالح الثغور بالاندلس وسار حتى نزل صخرة عباد وهناك قدم عليه الطاغية هراندة ذليلا لعزة الاسلام مؤملا صريخ السلطان فأكرم موصله وأكرم وفادته .

وذكر ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما من الاثبات :

« ان هذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبل يده اعظاما لقدره وخضوعا لعزه فدعا السلطان رحمه الله بماء فغسل يده من تلك القبلة بمحضر من كان هنالك من جموع المسلمين والفرنج ثم التمس الطاغية من السلطان أن يمده بشيء من المال ليستعين به على حربه ونفقاته ، فأسلفه السلطان مائة ألف دينار من بيت مال المسلمين رهنه الطاغية فيها تاجه الموروث عن سلفه ، قال ابن خلدون : »ويقي هذا التاج بدار بني يعقوب بن عبد الحق فخرا للاعقاب لهذا العهد« قلت : »وما أبعد حال هذا الطاغية المهين من حال عطارد بن حاجب التميمي الذي لم يسلم قوس أبيه على تطاول السنين والقصة مشهورة فانظر ما بين الهمم العربية والعجمية من البون وحال الفريقين في الابتذال والصون«

ثم ان السلطان يعقوب رحمه الله تقدم مع الطاغية ودخل دار الحرب غازيا حتى نازل قرطبة وبها يومئذ سانجة بن الطاغية الخارج عليه مع طائفته فقاتلهم أياما ثم أفرج عنها وتنقل في جهاتها وبعث سراياه الى جيان فأفسدوا زروعها ثم ارتحل الى طليطلة فعاث في جهاتها وخرب عمرانها حتى انتهى الى حصن مجريط من أقصى الثغر فامتلأت أيدى المسلمين وضاق معسكرهم بغنائمهم التى استافوها فقفل السلطان من أجل ذلك الى الجزيرة فاحتل بها فى شعبان وأقام بها الى آخر السنة المذكورة وكانت غزوة لم يسمح الدهر بمثلها وفى هذه السنة توفي يغمراسن بن زيان على ما فى القرطاس . وذكر ابن خلدون : أنه لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان وقال له : « يابني ان بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على حضرة الخلافة بمراكش لاطاقة لنا بلقائهم فاياك أن تحاربهم فان مددهم موفور ومددك محصور ولا يغرنك انى كنت أحاربهم ولا أنكص عن لقائهم لانى كنت أخشى معرة الجبن عنهم بعد التمرس بهم والاجتراء عليهم وأنت لايضرك ذلك لانك لم تحاربهم ولم تمرس بهم فعليك بالتحصن ببلدك متى زحفوا اليك وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين أصحاب تونس يستفحل بها ملكك وتكافىء حشد العدو بحشدك » قال : « فعمل ابنه عثمان على وصيته وأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب وهو بالاندلس فى جوازه الرابع فعقد معه السلم على ما أحب وانكفأ راجعا الى أخيه فطابت نفسه وتفرغ لافتتاح البلاد الشرقية

انعقاد الصلح بين السلطان يعقوب وابن الاحمر والسبب في ذلك

لما اتصلت يد السلطان يعقوب رحمه الله بيد الطاغية وقام معه فى ارتجاع ملكه خشى ابن الاحمر عاديته فجنح الى موالاة ابنه سانجة الخارج عليه ووصل يده بيده وأكد له العقد واضطرمت الاندلس نارا وفتنة بسبب هذا الخلاف ، ولما قفل السلطان يعقوب من غزوته مع الطاغية وقد ظهر على ابنه

اجمع على منازلة مالقة التى استحوذ عليها ابن الاحمر وخدع عنها ابن محلى فنهض السلطان اليها من الجزيرة الخضراء فاتح سنة اثنتين وثمانين وستمائة فغلب اولا على الحصون الغربية كلها ثم أسف الى مالقة فأناخ عليهابعساكره وضاق على ابن الاحمر النطاق ولم تغن عنه موالاة سانجة شيئا وبدا له سوء المغبة فى شأن مالقة وندم على تناولها فاعمل نظره فى الخلاص من ورطتها ولم ير لها الا الامير يوسف ابن السلطان يعقوب فخاطبه بمكانه من المغرب مستصرخا له لرقع هذا الخرق ورتق هذا الفتق وجمع كلمة المسلمين على عدوهم فأجابه واغتنم المثوبة فى مسعاه وعبر البحر الى الاندلس فى صفر سنة اثنتين وثمانين المذكورة فوافى أباه بمعسكره على مالقة ورغب منه السلم لابن الاحمر فى شأنها والتجافى له عنها فاسعف رغبة ابنه لما يؤمل فى ذلك من رضى الله عز وجل فى جهاد عدوه واعلاء كلمته ، وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الاحمر وتجددت عزائم المسلمين للجهاد وقفل السلطان يعقوب الى الجزيرة الخضراء فبث السرايا فى دار الحرب فأوغلو وأثخنوا ثم استأنف الغزو بنفسه الى طليطلة فخرج من الجزيرة غازيا غرة ربيع الثانى من سنة اثنتين وثمانين المذكورة حتى انتهى الى قرطبة فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح الحصون ثم ارتحل نحو البرت وترك محلته على بياسة بالمغانم والاثقال وترك معها خمسة آلاف فارس يحمونها من كرة العدو ثم أغذ السير فى أرض قفرة ليلتين حتى انتهى الى البرت من نواحى طليطلة فسرح الخيل فى البسائط وجالت فى أكنافها ولم تنته الى طليطلة لتثاقل الناس بكثرة الغنائم وأثخن فى القتل وقفل على غير طريقه فأثخن وخرب

واتنهى الى أبدة فوقف بساحتها وقاتلها ساعة من نهار فرماه علج من خلف السور بسهم أصاب فرسه فارتحل عنها الى معسكره ببياسة فأراح بها ثلاثا ينسف آثارها ويقتلع أشجارها وقفل الى الجزيرة وبين يديه من السبى والغنائم ما يعجز عنه الوصف فدخلها فى شهر رجب من السنة المذكورة فقسم الغنائم ونفل من الخمس وولى على الجزيرة حافده عيسى بن عبد الواحد بن يعقوب فهلك شهيدا على شريش بسهم مسموم لشهرين من ولايته

ثم عبر السلطان الى المغرب فاتح شعبان ومعه ابنه أبو زيان منديل فأراح بطنجة ثلاثا ثم نهض الى فاس فدخلها آخر شعبان ولما قضى صيامه ونسك عيده ارتحل الى مراكش لتمهيدها وتفقد أحوالها وقسم من نظره لنواحى سلا حظا فأقام برباط الفتح شهرين اثنين وتوفيت في هذه المدة الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوى وهى أم الامير يوسف وكانت وفاتها برباط الفتح فدفنت بشالة . ثم نهض السلطان يعقوب الى مراكش فدخلها فاتح ثلاث وثمانين وستمائة وبلغه مهلك الطاغية هراندة بن اذفونش واجتماع النصرانية على ابنه سانجة الخارج عليه فتحركت همته الى الجهاد ثم سرح ابنه الامير يوسف ولى عهده بالعسكر الى بلاد السوس لغزو العرب الذين بها وكف عاديتهم ومحو آثار الخوارج المنتزين على الدولة فأجفلوا أمامه واتبع آثارهم الى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس فهلك أكثر العرب فى تلك القفار جوعا وعطشا وقفل راجعا لما بلغه من اعتلال والده السلطان يعقوب فوصل الى مراكش وقد أبل من مرضه وعزم على الجهاد شكرا لله تعالى على نعمة العافية ، وفى هذه السنة وصل ماء عين غبولة الى قصبة رباط الفتح بأمر السلطان يعقوب وكان ذلك على يد المعلم المهندس أبى الحسن على بن الحاج والله تعالى أعلم

الجواز الرابع للسلطان يعقوب إلى الاندلس برسم الجهاد

لما اعتزم السلطان يعقوب على العبور الى الاندلس عرض جنوده وحاشيته وأزاح عللهم وبعث فى قبائل المغرب بالنفير ونهض من مراكش فى جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وستمائة واحتل برباط الفتح منتصف شعبان فقضى به صومه ونسكه ثم ارتحل الى قصر المجاز وشرع فى اجازة العساكر والحشود من المرتزقة والمتطوعة خاتم سنته ، ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين بعدها واحتل بظاهر طريف ، ثم سار الى الجزيرة

الخضراء فأراح بها أياما ثم خرج غازيا حتى انتهى الى وادى لك وسرح الخيول فى بلاد العدو وبسائطه يحرق وينسف . فلما خرب بلاد النصرانية ودمر أرضهم قصد مدينة شريش فنزل بساحتها وأناخ عليها فى العشرين من صفر سنة أربع وثمانين المذكورة وبث السرايا والغارات فى جميع نواحيها وبعث عن المسالح التى كانت بالثغور فتوافت لديه ولحقه حافده عمر ابن عبد الواحد بجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرسانا ورجالا ووافته حصة العزفى صاحب سبتة غزاة ناشبة تناهز خمسمائة وأوعز الى ولى عهده الامير يوسف باستنفار من بقى من أهل العدوة .

وكان السلطان رحمه الله لما أناخ علي شريش بعث وزيره محمد بن عطوا ومحمد بن عمران عيونا فوافوا حصن القناطر وروطة واستكشفوا ضعف الحامية واختلال الثغور وعادوا الى السلطان فأخبروه ، ثم عقد السلطان لحافده منصور بن عبد الواحد على ألف فارس من بنى مرين والغز وعرب العاصم والخلط والاثبج وأعطاه الراية وبعثه لغزو اشبيلية وذلك فى يوم الاحد التاسع والعشرين من صفر من السنة المذكورة فغنموا ومروا بقرمونة فى منصرفهم فاستباحوها وأثخنوا بالقتل والاسر ورجعوا وقد امتلات أيديهم من الغنائم ، ثم عقد ثانية لحافده عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان فى يوم الخميس الثالث من شهر ربيع الاول من السنة وأعطاه الراية وسرحه الى بسائط وادى لك فرجعوا من الغنائم بما ملا العساكر بعد أن أثخنوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الثمار وأبادوا عمرانها .

ثم سرح ثامن ربيع المذكور عسكرا من خمسمائة فارس للاغارة على حصن ركش فوافوه على غرة فاكتسحوا اموالهم وسبوا ، ثم عقد تاسع ربيع ايضا لابنه ابى معرف على الف من الفرسان وسرحه لغزو اشبيلية فساروا حتى هجموا عليها يوم المولد الكريم وتحصنت منه حاميتها بالاسوار فخرب عمرانها وقطع أشجارها وامتلأت ايدى عسكره سبيا واموالا ورجع الى محلة السلطان وهى نازلة على شريش كما قدمنا مملو الحقائب .

ثم عقد ثالثة لحافده عمر منتصف ربيع المذكور لغزو حصن كان بالقرب من

معسكره كان أهله يقطعون الطريق على من خرج من المحلة مفردا أو فى
فئة يسرح معه الرجل من الناشبة والفعلة بآلات من المساحى والفؤس ،
و مده بالرجل من المصامدة وغزاة سبتة فافتحموه عنوة على أهله وقتلوا
مقاتله وسبوا النساء والذرية والصقوا خده بالتراب ونسفوا آثاره نسفا ،
ولسبعة عشر من الشهر ركب السلطان الى حصن مرتقوط قريبا من معسكره
فخربه وحرقه بالنار واستباحه وقتل المقاتلة وسبى الاهل ، ولعشرين من
شهره المذكور وصل ولى عهده الامير يوسف من العدوة المغربية بنفير أهل
المغرب وكافة القبائل فى جيوش ضخمة وعساكر موفورة وركب السلطان
للقائهم وبرور مقدمهم وعرض العساكر القادمة معه يومئذ فكانت ثلاثة عشر
الفا من المصامدة وثمانية الاف من برابرة المغرب كلهم متطوع بالجهاد
فعقد السلطان لولى العهد على خمسة آلاف من المرتزقة وألفين من المتطوعة
وثلاثة عشر ألفا من الرجل وألفين من الناشبة وذلك فى يوم الجمعة الخامس
والعشرين من ربيع الاول المذكور وسرحه لغزو اشبيلية والاثخان فى
نواحيها فعبا كتائبه ونهض لوجهه وبث الغارات بين يديه فأثخنوا وسبوا
وقتلوا واقتحموا الحصون واكتسحوا الاموال وعاج ولى العهد على الشرف
والغابة من بسيط اشبيلية فنسف قراها واقتحم بعض حصونها وقفل الى
معسكر السلطان وهو بمكانه من حصار شريش . وفى يوم الاثنين السادس
من ربيع الثانى قدم أبو زيان منديل ابن السلطان يعقوب من المغرب فى
جيش كثيف فيهم خمسمائة فارس من عرب بنى جابر أهل تادلا مع كبيرهم
يوسف ابن قيطون وفيهم من المتطوعة والناشبة عدد كبير فعقد له السلطان
غداة وصوله وأمده بعسكر آخر وأغزاه قرمونة والوادى الكبير فأغار على
قرمونة وطمعت حاميتها فى المدافعة فبرزوا له وصدقهم القتال فانكشفوا حتى
أدخلوهم البلد ثم أحاطوا ببرج كان قريبا من البلد فقاتلوه ساعة من نهار
واقتحموه عنوة ولم يزل يتقرى المنازل والعمران حتى وقف بساحة اشبيلية
وأغار واقتحم برجا كان هنالك عينا على المسلمين وأضرمه نارا وامتلات
أيدى عسكره وقفل الى معسكر السلطان على شريش ، ولثلاث عشرة ليلة

من ربيع الثانى عقد السلطان لولى العهد الامير يوسف لمنازلة جزيرة كنور فصمد اليها وقاتلها واقتحمها عنوة ، وفى ثانى جمادى الاولى عقد السلطان للحاج أبى الزبير طلحة بن يحيى بن محلى وكان بعد مداخلته أخاه عمر فى شان مالقة سنة خمس وسبعين خرج الى الحج فقضى فرضه ورجع ومر فى طريقه بتونس فاتهمه الدعى ابن أبى عمارة كان بها يومئذ فاعتقله سنة اثنتين وثمانين ثم سرحه ولحق بقومه بالمغرب ثم عبر الى الاندلس غازيا مع السلطان يعقوب فعقد له فى هذا اليوم على مائتين من الفرسان وسرحه الى اشبيلية ليكون ربيئة للمعسكر وبعث معه لذلك عيونا من اليهود والمعاهدين من النصارى يتعرفون له أخبار الطاغية سانجة ، والسلطان يعقوب رحمه‌الله أثناء هذا كله يغادى شريش ويراوحها بالقتل والتخريب ونسف الآثار وبث السرايا كل يوم وليلة فى بلاد العدو فلا يخلو يوم من تجهيز عسكر أواغزاء جيش أو عقد راية أو بعث سرية حتى انتسف العمران فى جميع بلاد النصرانية وخرب بسائط اشبيلية ولبلة وقرمونة واستجة وجبال الشرف وجميع بسائط الفرتيرة

وأبلى فى هذه الغزوات عياد بن أبى عياد العاصمى من شيوخ جشم والخضر الغزى من أمراء الاكراد بلاء عظيما وكان لهم فيها ذكر وصيت وكذلك غزاة سبتة وكذا سائر المجاهدين من عرب جشم وغيرهم مثل مهلهل ابن يحيى الخلطى صهر السلطان ويوسف بن قيطون الجابرى وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم

فلما دمرها تدميرا وأوسعها تخريبا ونسفها نسفا واكتسحها غارة ونهبا وهجم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر اعتزم السلطان على القفول وأفرج عن شريش لآخر جمادى الاولى من السنة المذكورة بعد أن حاصرها نحوا من ثلاثة أشهر وعشرة أيام واتصل به أن العدو أوعز الى أساطيله باحتلال الزقاق والاعتراض دون الفراض فاوعز السلطان الى جميع سواحله من سبتة وطنجة وبلاد الريف ورباط الفتح والمنكب والجزيرة وطريف بتوجيه أساطيلهم فتوافت منها ستة وثلاثون أسطولا متكاملة فى عدتها

وأحجمت أساطيل العدو عنها وارتدت على أعقابها واحتل السلطان يعقوب بجزيرة الخضراء وهي المسماة اليوم بخوزيرت غرة رمضان من سنة أربع وثمانين وستمائة ونزل بقصره من المدينة الجديدة التي بناها بازائها فبرزت أساطيل المسلمين أمامه بالمرسى وهو جالس بمشور قصره فلعبوا بمرأى منه في البحر وتجاولوا وتناطحوا وتطاردوا كفعلهم ساعة الحرب فسر بذلك وأحسن اليهم وصرفهم الى حال سبيلهم

وفادة الطاغية على السلطان يعقوب بأحواز الجزيرة الخضراء وعقد الصلح بينهما والسبب في ذلك

قال ابن خلدون رحمه الله : لما نزل ببلاد النصرانية من السلطان يعقوب ما نزل من تدمير قراهم واكتساح أموالهم وسبي نسائهم وابادة مقاتلتهم وتخريب معاقلهم وانتساف عمرانهم زاغت منهم الابصار وبلغت القلوب الحناجر واستيقنوا أن لاعاصم لهم من أمير المسلمين فاجتمعوا الى طاغيتهم سائحة خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة متوجعين مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب وأليم النكال وحملوه على الضراعة لامير المسلمين في السلم وايفاد الملا من كبار النصرانية عليه في ذلك والا فلا تزال تصيبهم منه قارعة أو تحل قريبا من دارهم فأجاب الى ما دعوه اليه من الخسف والهضيمة لدينه وأوفد على أمير المسلمين وهو بالجزيرة الخضراء وفدا من بطارقتهم وشمامستهم يخطبون السلم ويضرعون في المهادنة والابقاء ووضع أوزار الحرب فردهم أمير المسلمين اعتزازا عليهم ، ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط ما شاء من عز دينه وقومه فأسعفهم أمير المسلمين وجنح الى السلم لما تيقن من صاغيتهم اليه وذلهم لعز الاسلام وأجابهم الى ما سألوه واشترط عليهم ما تقبلوه من مسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه والوقوف عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم ورفع الضريبة عن تجار المسلمين

بدار الحرب من بلاده وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة ، واستدعى السلطان الشيخ أبا محمد عبد الحق الترجمان وبعثه لاشتراط ذلك واحكام عقده فسار عبد الحق الى الطاغية سانجة وهوباشبيلية فعقد معه الصلح واستبلغ وأكد في الوفاء بهذه الشروط ، ووفدت رسل ابن الاحمر على الطاغية وهو عنده لعقد السلم معه على قومه وبلاده دون أمير المسلمين وان يكون معه يدا واحدة عليه فأحضرهم الطاغية بمشهد عبد الحق وأسمعهم ما عقد مع أمير المسلمين على قومه وأهل ملته كافة ، وقال لهم : « انما أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقام السلم والحرب وهذا أمير المسلمين على الحقيقة ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عن نفسي فكيف عنكم » فانصرفوا ولما رأى عبد الحق ميله الى رضا السلطان وسوس اليه بالوفادة عليه لتتمكن الالفة وتستحكم العقدة وأراه مغبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة فمال الى موافقته وسأله لقي الامير يوسف ولي عهد السلطان أولا ليطمئن قلبه فوصل اليه ولقيه على فراسخ من شريش وباتا بمعسكر المسلمين هنالك ثم ارتحلا من الغد للقاء السلطان يعقوب وكان قد أمر الناس بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه واظهار شعائر الاسلام وأبهته وأن لايلبسوا الا البياض ، فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا عز الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية

وقدم الطاغية في جماعته سود اللباس خاضعين ذليلين فاجتمعوا بالامير بحصن الصخرات على مقربة من وادي لك وذلك يوم الاحد العشرين من شعبان سنة أربع وثمانين وستمائة وتقدم الطاغية فلقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يلقى بها مثله من عظماء الملل وقدم الطاغية بين يديه هدية من طرف بلاده أتحف بها السلطان وولي عهده كان فيها زوج من الخيول الوحشي المسمى بالفيل وحمارة من حمر الوحش الى غير ذلك من الطرف فقبلها السلطان وابنه وأضعفوا له المكافأة وكمل عقد السلم وقبل الطاغية سائر الشروط ورضي بعز الاسلام عليه وانقلب الى قومه بملء صدره من الرضى والمسرة وسأل منه السلطان أن يبعث اليه بكتب العلم التي بأيدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الاسلام فبعث اليه منها ثلاثة عشر حملا

فيه جملة من مصاحف القرآن الكريم وتفاسيره كابن عطية والثعلبي ومن كتب الحديث وشروحاتها كالتهذيب والاستذكار ومن كتب الاصول والفروع واللغة والعربية والادب وغير ذلك فأمر السلطان رحمه الله بحملها الى فاس وتحبيسها على المدرسة التي أسسها بها لطلبة العلم وقفل السلطان فاحتفل بقصره من الجزيرة لليلتين بقيتا من شعبان فقضى صومه ونسك عيده وجعل من قيام ليله جزءاً لمحاضرة أهل العلم وأعد الشعراء كلمات أنشدوها يوم عيد الفطر بمشهد الملا في مجلس السلطان ، وكان من أسبقهم في ذلك الميدان شاعر الدولة أبو فارس عبد العزيز الملزوزى الاصل المكناسي الدار ويعرف بعزوز أتى بقصيدة طويلة من بحر الوافر على روى الباء المفتوحة المردوفة بالالف ذكر فيها سيرة السلطان وغزواته وغزوات بنيه وحفدته وامتدح قبائل مرين ورتبهم على منازلهم وذكر فضلهم وقيامهم بالجهاد وذكر قبائل العرب على اختلافها وانشدت بمحضر السلطان والحاشية فأمر لمنشئها بألف دينار وخلعة ولمنشدها بمائتي دينار ، ثم أعمل السلطان نظره في الثغور فرتب بها المسالح وبعث ولده الامير أبا زيان منديلا ليقف على الحد بين أرضه وأرض ابن الاحمر وعقد له على تلك الناحية وأنزله بحصن ذكوان قرب مالقة وأوصاه أن لا يحدث في بلاد ابن الاحمر حدثا وعقد لعياد بن أبي عياد العاصمي على مسلحة أخرى وأنزله بأسطبونة وأجاز ابنه الامير يوسف الى المغرب لتفقد أحواله ومباشرة أموره وأمره ان يبنى على قبر والده ابي الملوك عبد الحق بتافرطاست زاوية فاختط هنالك رباطا حفيلا وبنى على قبر الامير عبد الحق ادريس أسنمة من الرخام ونقشها بالكتابة ورتب عليها قراء لتلاوة القرآن ووقف على ذلك ضياعا وأرضا تسع حرث أربعين زوجا رحم الله الجميع بمنه



وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

وفي آخر ذي القعدة من سنة أربع وثمانين وستمائة مرض السلطان يعقوب بن عبد الحق مرضه الذي توفي منه فلم يزل ألمه يشتد وحاله يضعف الى ان توفي بقصره من الجزيرة الخضراء من أرض الاندلس في ضحى يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم فاتح سنة خمس وثمانين وستمائة وحمل الى رباط الفتح من بلاد العدوة فدفن بمسجد شالة وقبره اليوم طامس الاعلام رحمه الله

بقية أخبار السلطان يعقوب بن عبد الحق وسيرته

كان السلطان يعقوب رحمه الله أبيض اللون تام القد معتدل الجسم حسن الوجه واسع المنكبين كامل اللحية معتدلها أشيب نقي البياض حليما متواضعا جوادا مظفرا منصور الراية ميمون النقيبة لم يقصد جيشا الا هزمه ولا عدوا الا قهره ولا بلدا الا فتحه صواما قواما دائم الذكر كثير البر لا تزال سبحته في يده مقربا للعلماء مكرما للصلحاء صادرا في أكثر أموره عن رأيهم ولما استقام له الامر بنى المرستانات للمرضى والمجانين ورتب لهم الاطباء لتفقد أحوالهم وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال وكذا فعل بالجذمى والعمي والفقراء رتب لهم مالا معلوما يقبضونه في كل شهر من جزية اليهود وبنى المدارس لطلبة العلم ووقف عليها الاوقاف وأجرى عليهم بها المرتبات كل ذلك ابتغاء ثواب الله تعالى نفعه الله بقصده

الخبر عن دولة السلطان الناصر لدين الله

يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله تعالى

لما مرض السلطان يعقوب بقصره من الجزيرة الخضراء مرضه تساوه وطيرن بالخبر الى ولى عهده الامير يوسف وكان يومئذ بالمغرب فاتصل به الخبر وهو بأحواز فاس فأسرع السير الى طنجة وقد مات أبوه قبل وصوله فأخذ البيعة له الوزراء والاشياخ ولما عبر اليهم البحر واحتل بالجزيرة جددوا له البيعة غرة صفر سنة خمس وثمانين وستمائة وأخذوها له على الكافة فاستتب ملكه واستقام أمره ففرق الاموال وأجزل الصلات وسرح السجون ورفع عن الناس الاخذ بزكاة الفطر ووكلهم فيها الى أماناتهم وكف أيدى الظلمة والعمال عن الناس وأزال المكوس ورفع الانزال عن دور الرعية وصرف اعتناءه الى اصلاح السابلة فأزال أكثر الرتب والقبالات التى كانت بالمغرب الا ما كان منها فى الاقطار الخالية والمفازات المخوفة فخضعت مرين تحت قهره وصلح أمر الناس فى أيامه ، وكان أول شيء أحدث من أمره أن بعث الى ابن الاحمر وضرب له موعدا للاجتماع به فبادر اليه ولقيه بظاهر مربالة فى العشر الاول من ربيع الاول من السنة المذكورة فلقاه السلطان مبرة وتكريما وتجافى له عن جميع الثغور الاندلسية التى كانت فى ملكة أبيه ونزل له عنها ما عدى الجزيرة ورندةوطريف وتفرقا من مكانهما على أكمل حالات المصافاة والوصلة ورجع السلطان يوسف الى الجزيرة فقدم عليه بها وفد الطاغية سانجة مجددين عقد السلم الذى عقده لهم السلطان يعقوب رحمه الله

ولما تمهد للسلطان يوسف امر الاندلس عقد لاخيه أبى عطية العباس بن يعقوب على الثغور الغربية وأوصاه بضبطها وعقد للشيخ المجاهد أبى الحسن على بن يوسف بن يزكاتن على مسلحتها وجعل اليه أمر الحرب وأعنة الخيل وأمده بثلاثة آلاف من بنى مرين والعرب ثم عبر البحر الى المغرب

يوم الاثنين سابع ربيع الآخر من السنة المذكورة فنزل بقصر المجاز ثم سار الى حضرة فاس فدخلها ثاني عشر جمادى الاولى منها ولحين استقراره بهسا خرج عليه محمد بن ادريس بن عبد الحق في بنيه واخوته ومن انضم اليه ولحق بجبال ورغة ودعا لنفسه فسرح اليه السلطان يوسف أخاه أبا معرف محمد بن يعقوب فبدا له في النزوع اليهم فلحق بهم وشايعهم على رأيهم من الخلاف فاغزاهم السلطان يوسف عساكره وردد اليهم البعوث والكتائب تسم تلطف في استنزال أخيه حتى نزل على الامان وفر بنو ادريس الى تلمسسان فقبض عليهم أثناء طريقهم وجيء بهم في الحديد الى تازا فبعث السلطان يوسف أخاه أبا زيان فقتلهم خارج باب الشريعة منها في رجب من السنة ورهب الاعياص من بني عبد الحق يومئذ وخافوا بادرة السلطان يوسف فلحقوا بغرناطة ملتفين على بني ادريس منهم ثم ارتحل السلطان في رمضان من السنة المذكورة الى مراكش لتمهيد نواحيها وتثقيف أطرافها فدخلها في شوال وأقام بها الى رمضان القابل من سنة ست وثمانين وستمائة فنهض من مراكش لغزو عرب معقل بصحراء درعة لانهم كانوا قد أضروا بالرعايا وأفسدوا السابلة فسار اليهم في اثني عشر ألفا من الخيل ومر على بلاد هسكورة معترضا جبل درن وأدركهم نواجع بالقفر فأثخن فيهم بالقتل والسبي واستكثر من رؤوسهم فعلقت بشرفات مراكش وسجلماسة وفاس وقفل من غزوه آخر شوال من السنة المذكورة الى مراكش فنكب محمد بن علي بن محلى عاملها القديم الولاية بها من لدن انقراض الدولة الموحدية لما وقع من الارتياب بأولاد محلى بكثرة خروجهم على الدولة وكانت نكبته غرة محرم سنة سبع وثمانين وستمائة وهلك في السجن في صفر الموالي له ، وعقد السلطان يوسف على مراكش وأعمالها لمحمد بن عطو الجاناتي من موالي دولتهم ولاه حلف وترك معه ابنه أبا عامر عبد الله بن يوسف ثم ارتحل السلطان يوسف الى فاس فدخلها منتصف ربيع من السنة المذكورة

قدوم بني اشقيلولة على السلطان يوسف بسلا واقطاعه اياهم قصركتامة والسبب في ذلك

قد تقدم لنا ان بنى اشقيلولة كانوا من وجوه الاندلس وأهل الرياسة بها حتى صاهرهم ابن الاحمر بابنته وأخته وقاموا معه فى اثبات قواعد ملكه ثم انحرفوا عنه الى موالاة بنى مرين ونزل محمد بن عبد الله بن أبى الحسن منهم الى السلطان يعقوب عن مالقة وكان عمه أبو اسحق بن أبى الحسن صاحب وادى آش وأعمالها واتصل ذلك فى بنيه الى أن بويع السلطان يوسف فقاموا بدعوته فيها ثم حصلت المصافاة وتأكدت المودة بين السلطان يوسف وابن الاحمر على ما أسلفناه آنفا فطلب ابن الاحمر من السلطان يوسف أن ينزل له عن واد آش التى هى لبنى اشقيلولة المتمسكين بدعوته كما نزل له عن غيرها من الثغور فأجابه السلطان الى ذلك وكتب الى أبى الحسن بن اسحق بن اشقيلولة يأمره بالتخلى له عنها فتركها له وعبر هو وحاشيته البحر الى السلطان يوسف سنة سبع وثمانين المذكورة فلقيه بمدينة سلا فأعطاه السلطان يوسف القصر الكبير وأعماله طعمة سوغه اياها فلم تزل ولايته متوارثة فى بنيه حتى انقرضوا آخر دولة بنى مرين واستمكن ابن الاحمر من وادى آش وحصونها ولم يبق له بالاندلس منازع من قرابته والله أعلم

حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وعثمان بن يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان

قد تقدم لنا أن يغمراسن لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان أن لايحدث مع بنى مرين حربا ولا يواقفهم فى زحف ما استطاع لاستغلاظ أمرهم عليه بملكهم المغرب الاقصى وأعماله وأن عثمان قد عمل على ذلك فأوفد أخاه

محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب بالاندلس وعقد معه السلم ورجع الى أخيه كما تقدم ولما ولي السلطان يوسف وقفل من مراكش الى فاس فى هذه المرة بعد أن ترك ابنه أبا عامر عبد الله مع محمد بن عطوا عامل مراكش ثار أبو عامر المذكور بها وخلع طاعة أبيه ودعا الى نفسه وشايعه ابن عطوا على ذلك واتصل الخبر بالسلطان يوسف وهو بفاس فأسرع السير الى مراكش وبرز اليه ابنه أبو عامر فاقتتلوا ثم انهزم أبو عامر فعاد الى مراكش واكتسح بيت المال بها وفر الى تلمسان ومعه ابن عطوا المذكور فقدماها سنة ثمان وثمانين وستمائة فآواهم عثمان بن يغمراسن ومهد لهم المكان فلبثوا عنده مليا

ثم عطفت السلطان على ابنه الرحم فرضي عنه وأعاده الى مكانه وطالب عثمان بن يغمراسن أن يسلم اليه ابن عطوا الناجم فى النفاق مع ابنه فأبى من اضاعة جواره واخفار ذمته وأغلظ له الرسول فى القول فسطا به عثمان واعتقله فثارت من السلطان يوسف الحفائظ الكامنة وتحركت منه الاحن القديمة والنزغات المتوارثة فاعتزم على غزو تلمسان ونهض اليها من مراكش فى صفر من سنة تسع وثمانين وستمائة بعد أن عقد عليها لابنه الامير أبى عبد الرحمن يعقوب بن يوسف ثم نهض من فاس اليها آخر ربيع الآخر من سنته فى عساكره وجنوده وحشد القبائل وكافة أهل المغرب وسار حتى نازل تلمسان فتحصن منه عثمان وقومه بأسوارها فحاصره السلطان يوسف وضيق عليه ونصب عليه المجانيق وكان حصاره اياها فى رمضان من السنة المذكورة ثم سار فى نواحيها ينسف الآثار ويخرب القرى ويحطم الزروع ثم نزل بذراع الصابون من ناحيتها ثم انتقل منه الى تامت وحاصرها أربعين يوما وقطع أشجارها وأباد خضراءها ولما امتنعت عليه أفرج عنها وانكفأ راجعا الى المغرب وقضى نسك الفطر بعين الصفا من بلاد بنى يزناسن ونسك الاضحى وقربانه بتازا وتلبث بها أياما ثم نهض منها الى الاندلس بقصد الجهاد على ما نذكره

٧٠

انتقاض الطاغية سانجة واجازة السلطان يوسف اليه

لما رجع السلطان يوسف من غزو تلمسان وافاه الخبر وهو بتسازا أن الطاغية سانجة قد انتقض ونبذ العهد وتجاوز التخوم وأغار على الثغور ، فأوعز السلطان الى قائد المسالح بالاندلس على بن يوسف بن يزكاتن بالدخول الى دار الحرب ومنازلة شريش وشن الغارات على بلاد الطاغية ، فنهض لذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين وستمائة وجاس خلالها وتوغل في أقطارها وأبلغ في النكاية .

ثم فصل السلطان يوسف من تازا غازيا أثره في جمادى الاولى من السنة المذكورة واحتل قصر مصمودة وهو قصر المجاز واستنفر أهل المغرب وقبائله فنفروا وشرع في اجازتهم البحر ، فبعث الطاغية أساطيله الى الزقاق حجزا لهم دون الاجازة فاوعز السلطان يوسف الى قواد أساطيله بالسواحل بعمارتها لمقابلة أساطيل العدو ففعلوا ، وقدمت فالتقت مع أساطيل العدو ببحر الزقاق في شعبان من السنة فاقتتلوا وانكشف المسلمون ومحصهم الله وقتل قواد الاساطيل ، فأمر السلطان يوسف باستئناف العمارة ثم أغزاهم ثانية فخامت أساطيل العدو عن اللقاء وصاعدوا عن الزقاق فملكته أساطيل السلطان ، فأجاز أخريات رمضان من السنة واحتل بطريف ثم دخل دار الحرب غازيا فنازل حصن بجير ثلاثة أشهر وضيق عليهم وبث السرايا في أرض العدو ، وردد الغارات على شريش واشبيلية ونواحيها الى أن بلغ في النكاية والاثخان غرضه وقضى من الجهاد وطره ، وهجم عليه فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر فأفرج عن الحصن ورجع الى الجزيرة الخضراء ثم عبر الى المغرب فاتح سنة احدى وتسعين وستمائة ، فتظاهر ابن الاحمر والطاغية على منعه من الجواز مرة أخرى كما نذكره الآن .

٧١

حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وابن الاحمر

واستيلاء الطاغية على طريف بمظاهرة ابن الاحمر له عليها

لما قفل السلطان يوسف من الاندلس وقد أبلغ فى نكاية العدو كما قلنا عظم على الطاغية أمره وثقلت عليه وطأته فشرع فى أعمال الحيلة فى الافساد بينه وبين ابن الاحمر ، وكان ابن الاحمر يتخوف من السلطان يوسف أن يغلبه على بلاده فخلص مع الطاغية نجيا وتفاوضا فى أمر السلطان يوسف وان تمكنه من الاجازة اليهم انما هو لقرب مسافة بحر الزقاق وانتظام ثغور المسلمين حفافيه وتصرف شوانيهم وسفنهم فيه متى أرادوا فضلا عن الاساطيل الجهادية وان أم تلك الثغور هى طريف وانهم اذا استمكنوا منها منعوا السلطان من العبور وكانت عينا لهم على الزقاق وكان أسطولهم بمرفئها رصدا لاساطيل صاحب المغرب الخائضة لجة ذلك البحر ، فاعتزم الطاغية على منازلة طريف وبها يومئذ مسلحة بنى مرين وتكفل له ابن الاحمر بمظاهرته على ذلك والتزم له بالمدد والميرة للعسكر أيام منازلتها على أن تكون له ان خلصت للطاغية ، وتعاهدوا على ذلك واناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف وألح عليها بالقتال ونصب الآلات من المجانيق والعرادات واحاط بها برا وبحرا ، وانقطع المدد والميرة عن أهلها وحالت أساطيل العدو بينهم وبين صريخ السلطان واضطرب ابن الاحمر معسكره بمالقة قريبا من عسكر الطاغية وسرب اليه المدد من الرجال والسلاح والميرة واصناف الاقوات ، وبعث عسكرا لمنازلة حصن اسطبونة فتغلب عليه بعد مدة من الحصار ، واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونال منهم الحصار فراسلوا الطاغية فى الصلح والنزول عن البلد ، فصالحهم واستنزلهم وتملكها آخر يوم من شوال سنة احدى وتسعين وستمائة ووفى لهم بما عاهدهم عليه واستشرف ابن الاحمر الى تجافى الطاغية له عنها حسبما تعاهدا

عليه فأعرض عن ذلك واستأثر بها بعد أن كان نزل له عن ستة من الحصون عوضا عنها فخرج من يده الجميع ولم يحصل على طائل فكانت حاله في ذلك كحال صاحبة النعامة المضروب بها المثل عند العرب وبالله تعالى التوفيق

ثورة عمر بن يحيى بن الوزير الوطاسي بحصن تازوطا

اعلم أن بني وطاس فخذ من بني مرين لكنهم ليسوا من بني عبد الحق وكانت الرياسة فيهم لبني الوزير منهم ، وبنو الوزير يزعمون أن نسبهم دخيل في مرين وانهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتوني لحقو بالبادية ونزلوا على بني وطاس فالتحموا بهم ولبسوا جلدتهم وحازوا رياستهم ، ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله كما قدمنا بقيت بلاد الريف خالصة لبني وطاس هؤلاء فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم وكان حصن تازوطا بها من أمنع معاقل المغرب ، ولما غلب الامير ابوبكر بن عبد الحق على مكناسة وأقام فيها دعوة الحفصيين ونهض السعيد بن المامون الموحدي من مراكش لغزوه فر أمامه الى حصن تازوطا هذا ونزل به على بني الوزير هؤلاء لاجئا اليهم ومستجيرا بهم فأرادوا الفتك به غيرة منه وحسدا له فشعر بهم وتحول عنهم الى عين الصفا من بلاد بني يزناسن حسبما تقدم ذلك كله

ولما انقرض امر بني عبد المومن واستقام ملك المغرب لبني مرين صرفوا عنايتهم الى هذا الحصن فكانوا ينزلون به من الحامية من يثقون بغنائه واضطلاعه ليكون آخذا بناصية هؤلاء الرهط من بني وطاس لما يعلمون من سموهم الى الرياسة وتطلعهم اليها ، وكان السلطان يوسف رحمه الله قد عقد على هذا الحصن لابن أخيه منصور بن عبد الواحد بن يعقوب ، وكان عمر وعامر ابنا يحى بن الوزير رئيسين على بني وطاس لذلك العهد فاستهونوا أمر السلطان يوسف بعد موت والده وحدثوا انفسهم بالثورة في ذلك الحصن والاستبداد بتلك الناحية ، فوثب عمر بن يحيى منهم بمنصور بن عبد الواحد

في شعبان من سنة احدى وتسعين وستمائة وفتك بحاشيته ورجاله وأزعجـه عن الحصن وغلبه على ما كان بقصره من مال وسلاح ومتاع واعشار للـروم كانت مختزنة هنالك وضبط الحصن وشحنه برجاله ووجوه قومه ولحق منصور بن عبد الواحد بعمه السلطان يوسف فهلك لليال أسفا على ما أصابه .

وسرح السلطان يوسف وزيره الناصح أبا على عمر بن السعود بـن خرباش الحشمي بالحاء المهملة في العساكر لمنازلة حصن تازوطا فأناخ عليه بكلكله ثم تبعه السلطان يوسف على أثره وفي صحبته عامر بن يحيى بـن الوزير أخو عمر الثائر ، فانه كان قد نزع اليه فأحاط السلطان بالحصن وضيق عليه حتى أشفق عمر لشدة الحصار ويئس من الخلاص وظن انه قد أحيط به فدس الى أخيه عامر في كشف ما نزل به ، فضمن عامر للسلطان يوسف نزول أخيه ان هو تركه يصعد اليه حتى يجتمع به فأذن له السلطان يوسف في ذلك فصعد اليه وتفاوضا في أمرهما وآخر الامر أن عمر احتمل الذخيرة وفر ليلا الى تلمسان وبدا لعامر في النزول عند ما صار في الحصن فامتنع بـه قيل لانه بلغه أن السلطان يوسف عزم على قتله أخذا بثار ابن أخيه منصور ولافلاته أخاه من يده

واستمر على ذلك الى أن قدم على السلطان يوسف وفد الاندلس وفيهم الرئيس أبو سعيدفرج بن اسماعيل بن الاحمر صاحب مالقة راغبا في الصلح مع ابن عمه ومعتذرا عنه فارسي أساطيله بمرسى غساسة ونزل الى السلطان وقدم بين يده هدية تناسب الحال فسمع بهم عامر الوطاسي وهو في الحصن فبعث اليهم يسألهم الشفاعة له عند السلطان يوسف لوجاهتهم لديه فشفع لـه الرئيس أبو سعيد فقبل السلطان يوسف شفاعته بشرط أن ينتقل بحاشيته الى الاندلس وكره عامر ذلك فأظهر الرضا وقدم بين يديه جماعة من حاشيتـه الى المرسى وركب أكثرهم الاسطول وتأخر عامر الى جوف الليل فنزل من الحصن وخاض الفلاة الى تلمسان فبعث الخيل أثره ففاتهم وأدركوا ولده أبا الخيل فجيء به الى السلطان يوسف فبعث به الى فاس فضربت عنقه وصلب هنالك ، وأنزل السلطان يوسف بقية الحاشية من الاسطول فأمر بهم

فاستلحموا مع من كان بالحصن من أتباعهم وقرابتهم وذرياتهم ، وتملك السلطان يوسف حصن تازوطا وأنزل به عماله ومسلحته وقفل الى حضرته بفاس آخر جمادى الاولى من سنة اثنين وتسعين وستمائة

ولما كان السلطان نازلا على تازوطا قدم عليه رجل من فرنج جنوة بهدية جليلة فيها شجرة مموهة بالذهب عليها أطيار تصوت بحركات هندسية مثل ما صنع للمتوكل العباسي ، وفى هذه المدة سعي عند السلطان يوسف بأولاد الامير أبى بكر بن عبد الحق وأنهم أرادوا الخروج عليه فحقد عليهم لذلك وأحسوا بالشر ففروا الى تلمسان وأقاموا هنالك الى أن بعث السلطان يوسف اليهم بالامان فأقبلوا حتى اذا كانوا بصبرة من ناحية ملوية اعترضهم الامير أبو عامر عبد الله ابن السلطان يوسف فاستلحمهم اجمعين وهو يرى انه قد ارضى اباه بذلك الفعل ، واتصل الخبر بالسلطان يوسف فسخطه وأقصاه وتبرأ منه فلم يزل طريدا ببلاد الريف وجبال غمارة الى أن هلك ببني سعيد منهم آخر سنة ثمان وتسعين وستمائة وحمل الى فاس فدفن بالزاوية التى داخل باب الفتوح وخلف ثلاثة أولاد عامر وسليمان وداود فكفلهم جدهم السلطان يوسف الى أن هلك فولى الامر بعده حافده عامر وبعد عامر سليمان وسيأتى ذكرهما ان شاء الله

انعقاد الصلح بين السلطان يوسف وابن الاحمر ووفادته عليه بطنجة

لما استولى الطاغية على طريف بمظاهرة ابن الاحمر له عليها ونقض الطاغية عهد ابن الاحمر فى النزول له عنها سقط فى يد ابن الاحمر وندم على فعله ورجع الى التمسك بالسلطان يوسف ، فاوفد عليه ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل ووزيره أبا سلطان عزيز الدانى فى وفد من أهل

حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودة وتقرير المعذرة عن شأن طريف ، فوافوه بمكانه من حصار تازوطا كما قدمنا فأبرموا العقد وأحكموا الصلح وانصرفوا الى ابن الاحمر سنة اثنتين وتسعين وستمائة باسعاف غرضه من المؤاخاة واتصال اليد ، فوقع ذلك منه أجمل موقع وطار سرورا من أعواده ، وأجمع الرحلة الى السلطان لاحكام العقد والاستبلاغ في العذر عن واقعة طريف والرغبة اليه في نصرة بلاد الاندلس واغاثة المسلمين الذين بها ، فتهيأ لذلك وعبر البحر في ذى القعدة من سنة اثنتين وتسعين وستمائة واحتل بجبل بيونش من ناحية سبتة ، ثم ارتحل الى طنجة فلقيه بها الاميران أبو عامر عبد الله وأبو عبد الرحمن يعقوب ابنا السلطان يوسف وكان أبو عامر لا زال يومئذ من أبيه بعين الرضا

ولما علم السلطان يوسف بقدومه خرج من فاس للقائه وبسرور مقدمه فوافاه بطنجة فقدم ابن الاحمر بين يدى نجواه هدية اتحف بها السلطان يوسف كان من أحسنها موقعا لديه المصحف الكبير الذى يقال انه مصحف أمير المومنين عثمان بن عفان رضى الله عنه كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة ثم خلص الى ابن الاحمر فاتحف به السلطان يوسف في هذه المرة ، فقبل السلطان ذلك وكافأه بأضعافه وبالغ في تكرمته واسعفه بجميع مطالبه واراد ابن الاحمر أن يبسط العذر عن شأن طريف فتجافى السلطان يوسف عن سماع ذلك وأضرب عن ذكره صفحا وبر وأحفى ووصل وأجزل ، ونزل * لابن الاحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصنا من ثغور الاندلس كانت قبل في ملكته وملكة أبيه ، وعاد ابن الاحمر الى أندلسه آخر سنة اثنتين وتسعين وستمائة محبوا محبورا وعبرت معه عساكر السلطان يوسف لحصار طريف ومنازلته وعقد على حربها لوزيره الشهير الذكر عمر بن السعود بن خرباش الحشمي فنازلها مدة فامتنعت عليه وافرج عنها

وفي سنة ثلاث وتسعين بعدها فرغ السلطان يوسف من بناء بجامع تازا

---

* في النسخة الصحيحة من ابن خلدون طبع الجزائر ان النازل عن هذه الثغور هو ابن الاحمر للسلطان يوسف وهو ما يقتضيه الحال

وعلقت به الثريا الكبرى من النحاس الخالص وزنها اثنان وثـلاثون قنطارا وعدد كؤسها خمسمائة كأس واربعة عشر كاسا ، وأنفق السلطان في بنـاء الجامع وعمل الثريا المذكورة ثمانية آلاف دينار ذهبا

وفي سنة أربع وتسعين بعدها خرج السلطان يوسف لغزو تلمسان فوصل الى تاوريرت وكانت تخما لعمل بني مرين وبني عبد الواد ، فنصفها للسلطان يوسف ونصفها لعثمان بن يغمراسن ولكل واحد منهما بها عامل من ناحيته فطرد السلطان يوسف عامل ابن يغمراسن وشرع في بناء الحصن الذي هنالك فادار سوره وشيده وركب أبوابه مصفحة بالحديد وكان يقف على بنائه بنفسه من صلاة الغداة الى المساء لايغيب عن العملة الا في أوقات الضرورة ، وفرغ من بنائه وتحصينه في رمضان من السنة المذكورة ولما تم شحنه بالعسكر والسلاح وعقد عليه لاخيه أبي بكر بن يعقوب ويكنى أبا يحيى وانكفأ راجعا الى الحضرة ، ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين بعدها يقصد تلمسان فسار حتى نزل على ندرومة فحاصرها وشدد في قتالها ورماها بالمنجنيق اربعين يوما فامتنعت عليه فأفرج عنها ثاني عيد الفطر من السنة المذكورة ، ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة فسار الى تلمسان وبرز عثمان بن يغمراسن لمدافعته فانهزم وتحصن بالاسوار وتقدم السلطان يوسف حتى نزل على تلمسان وقتل من أهلها خلقا ثم أقلع عنها ورجع الى المغرب فقضى نسك الاضحى من السنة المذكورة برباط تازا وأمر ببناء القصر بها ، وسار الى فاس فدخلها فاتح سنة سبع وتسعين وستمائة ثم ارتحل الى مكناسة فقضى بها بعض الوطر ثم عاد الى فاس ، ثم خرج منها في جمادى الاولى من السنة المذكورة غازيا تلمسان ومر في طريقه بمدينة وجدة فأمر ببنائها وكان أبوه السلطان يعقوب قد هدمها كما مر فبناها السلطان يوسف في هذه المرة وحصن اسوارها وبنى بها قصبة ودارا لسكناه وحماما ومسجدا ثم سار الى تلمسان فنزل بساحتها وأحاطت عساكره بها احاطة الهالة بالقمر ونصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار اخترعها المهندسون والصناع وتقربوا الى السلطان بعملها فأعجبته وكانت تحمل على

أحد عشر يعلا ولما امتنعت تلمسان عليه أفرج عنها فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة ومر في عوده الى المغرب بوجدة فأنزل بها الحامية من بنى عسكر ابن محمد لنظر أخيه الامير أبى بكر بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت وأمرهم بشن الغارات على أعمال تلمسان مع الساعات والاحيان ففعلوا واستولى الامير أبو بكر بذلك على أكثر تلك الجهات والله تعالى أعلم

فتكة ابن المليانى بشيوخ المصامدة وتزويره الكتاب بهم والسبب في ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على فتح جبل تينملل أن أبا على المليانى كان قد سعى في نبش قبور بنى عبد المومن والبحث باشلائهم وأن الناس قد عاضهم ذلك لاسيما المصامدة منهم ، ولما هلك السلطان يعقوب وولى بعده ابنه يوسف استعمل ابا على المليانى على جباية المصامدة فباشرها مدة ثم سعى به شيوخ المصامدة عند السلطان بأنه احتجن المال لنفسه ، فأمر السلطان بمحاسبته فحوسب وظهرت مخايل صدقهم عليه فنكبه السلطان يوسف أولا ثم قتله ثانيا ، واصطنع ابن أخيه أبا العباس(*)أحمد بن على المليانى واستعمله فى كتابته وأقامه ببابه في جملة كتابه ، وكان السلطان يوسف قد سخط على بعض شيوخ المصامدة منهم على بن محمد كبير هنتاتة وعبد الكريم بن عيسى كبير قدميوة وأوعز الى ابنه الامير على بن يوسف بمراكش باعتقالهما فاعتقلهما فيمن لهما من الولد والحاشية ، وأحسن بذلك أحمد بن المليانى فاستعجل الثار الذى كان يعتده عليهم فى عمه أبى على

وكانت العلامة السلطانية يومئذ موكولة الى كتاب الدولة لم تختص بواحد منهم لما كانوا كلهم ثقات أمناء وكانوا عند السلطان كأسنان المشط فكتب احمد بن المليانى الى الامير ابى على كتابا على لسان والده يأمره فيه أمرا جزما بقتل مشيخة المصامدة ولا يمهلهم طرفة عين ووضع عليه العلامة

---

* انظر ترجمته فى الاحاطة ج ـ ١ ـ ص ١٤٩

التي تنفذ بها الاوامر السلطانية وختم الكتاب وبعث به مع البريد ، قال ابن الخطيب : « ولما أكد على حامله في العجل وضايقه في تقدير الاجل تأنى حتى اذا علم أنه قد وصل وأن غرضه قد حصل فر الى تلمسان وهي بحال حصارها فاتصل بأنصارها حالا بين أنوفها وأبصارها وتعجب الناس من فراره وسوء اغتراره ورجمت الظنون في آثاره ثم وصلت الاخبار بتمام الحيلة واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة فتركها شنعاء على الايام وعارا في الاقاليم على حملة الاقلام » اه ولما وصل الكتاب الى ولد السلطان أخرج أولئك الرهط المعتقلين الى مصارعهم وحكم السيف في رقاب جميعهم فقتل على بن محمد الهنتاتي وولده وعبد الكريم بن عيسى القدميوي وبنوه الثلاثة عيسى وعلي ومنصور وابن أخيه عبد العزيز بن محمد ، وطير الامير على بالاعلام الى والده مع بعض وزرائه وهو يرى أنه قد امتثل الامر واستوجب الشكر

فلما وصل الرسول بالخبر الى السلطان يوسف بطش به فقتله غيظا عليه وأنفذ البريد في الحال باعتقال ولده وقام وقعد لذلك ومن ذلك الوقت قصر السلطان علامته على من يختاره من ثقات الكتاب وعدولهم ، وجعلها يومئذ للفقيه الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين وكان من الكفاة المضطلعين بأمور الدولة المتحملين للكثير من أعبائها ، وأما ابن المليانى فانه فر الى تلمسان والسلطان يوسف محاصر لها ولما وقع الافراج عنها بعد حين انتقل الى الاندلس فبقي هنالك الى أن توفي بغرناطة سنة خمس عشرة وسبعمائة ومن شعره يفخر بهذه الفعلة وغيرها قوله :

العز ما ضربت عليه قبابي ... والفضل ما اشتملت عليه ثيابي
والزهر ما أهداه غصن يراعتي ... والمسك ما أبداه نقس كتابي
فالمجد يمنع أن يزاحم موردي ... والعزم يأبى أن يضام جنابي
فاذا بلوت صنيعة جازيتها ... بجميل شكري او جزيل ثوابي
واذا عقدت مودة اجريتها ... مجرى طعامي من دمي وشرابي
واذا طلبت من الفراقد والسهى ... ثارا فأوشك أن أنال طلابي

الحصار الطويل وما تخلل ذلك من الاحداث على تلمسان

تقدم لنا أن السلطان يوسف لما رجع من محاصرة تلمسان فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة مر في طريقه بوجدة فأنزل بها الحامية من بني عسكر الى نظر أخيه الامير أبي بكر وأمره بشن الغارات على أعمال بني زيان فامتثل الامير أبو بكر أمره والح على النواحي بالغارات وافساد السابلة ، فضاق أهل ندرومة بذلك ذرعا وأوفدوا وفدا منهم على الامير أبي بكر يسألونه الامان لهم ولمن وراءهم من قومهم على أن يمكنوه من قياد بلدهم ويدينوا بطاعة السلطان يوسف فبذل لهم من ذلك ما أرضاهم ، ونهض الى البلد فدخله بعسكره وتبعهم على ذلك أهل تاونت فأوفد الامير أبو بكر جماعة من أهل البلدين على أخيه السلطان يوسف فقدموا عليه منتصف رجب من سنة ثمان وتسعين المذكورة فأدوا طاعتهم فقبلها ، ورغبوا اليه في الحركة الى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوه وعدوهم عثمان بن يغمراسن ووصفوا له من عسفه وجوره وضعفه عن الحماية ما أكد عزمه على النهوض ، فنهض لحينه من فاس في رجب المذكور بعد أن استكمل حشده ونادى في قومه وعرض عسكره وأجزل أعطياتهم وأزاح عللهم ، وسار في التعبية حتى نزل بساحة تلمسان ثاني شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة فأناخ عليها بكلكله وربض قبالتها على ترائبه وأنزل محلته بفنائها وأحاط بجميع جهاتها ، وتحصن يغمراسن وقومه بالجدران وعولوا على الحصار .

ولما رأى السلطان يوسف ذلك أدار سورا عظيما جعله سياجا على تلمسان وما اتصل بها من العمران وصيرها في وسطه ، ثم أردف ذلك السور من ورائه بحفير بعيد المهوى وفتح فيه مداخل لحربها ورتب على أبواب تلك المداخل مسالح تحرسه ، وأوعد بالعقاب من يختلف الى تلمسان برفق أو يتسلل اليها بقوت وأخذ بمختنقها من بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص اليها الطير لا بل الطيف ، واستمر مقيما عليها كذلك مائة شهر ، ولما دخلت

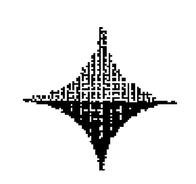
سنة اثنتين وسبعمائة اختط الى جانب ذلك السور بمكان فسطاطه وقبابه قصرا لسكناه واتخذ به مسجدا لصلاته وأدار عليهما سورا يحرزهما ، ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحبة والقصور الانيقة واتخذوا البساتين وأجروا المياه ، وأمر السلطان باتخاذ الحمامات والفنادق والمارستان ، وابتنى مسجدا جامعا أقامه على الصهريج الكبير وشيد له منارا رفيعا وجعل على رأسه تفافيح من ذهب صير عليها سبعمائة دينار ثم أدار السور على ذلك كله فصارت مدينة عظيمة استبحر عمرانها ونفقت أسواقها ورحل اليها التجار بالبضائع من جميع الآفاق وسماها المنصورة ، فكانت من أعظم أمصار المغرب وأحفلها الى أن خربها آل يغمراسن عند مهلك السلطان يوسف وارتحال جيوشه عنها ، ولما تمكن السلطان يوسف من حصار تلمسان سرح كتائبه وسراياه في أعمالها وحصونها فاستولى في مدة قريبة على ندرومة وهنين ووهران وتالموت وتامزردكت ومستغانم وتنس وشرشال وبرشك والبطحاء ومازونة ووانشريس ومليانة والقصبات ولمدية وتافرجينت ، وجميع بلاد بني عبد الواد وبلاد بني توجين وبلاد مغراوة وبايعه ابن علان صاحب الجزائر وأخذ رعبه بملوك النواحي ، وكانت دولة بني أبي حفص يومئذ قد انقسمت بقسمين فصار كرسي منها بتونس وآخر ببجاية فتنافس صاحب تونس وصاحب بجاية في مصانعة السلطان يوسف والتقرب اليه بالهدايا والتحف وصار السلطان يوسف في ذلك الوقت ملك المغرب على الحقيقة والاطلاق والله غالب على أمره

نكبة بني وقاصة من يهود فاس

كان بنو وقاصة هؤلاء من يهود ملاح فاس وكانوا مداخلين للسلطان يوسف من صغره الى كبره ، وكانوا يتولون قهرمة داره ويقضون أموره الخاصة به ويخلصون الى الكثير من باطن أمره ، قد التحموا به التحاما

وامتزجوا به امتزاجا يجالسونه في خلواته وينادمونه في أنسه ، فعظم جاههم عند الحاشية لاقبال السلطان عليهم واستتبعوا الوزراء فمن دونهم من رجال الدولة ، وتعددت فيهم الرؤساء والقهارمة فكان منهم خليفة بن وقاصة وأخوه ابراهيم وصهره موسى بن السبتي وابن عمه خليفة الاصغر وغيرهم واستمروا على ذلك برهة من الدهر ، ثم ان السلطان يوسف استفاق استفاقة والتفت اليهم التفاتة وراجع بصيرته في شأنهم فأهمه أمرهم وشعر كاتبه بذلك القائم بأمور دولته أبو محمد عبد الله بن أبي مدين ، فسعى عنده فيهم وأوجده السبيل عليهم فسطا بهم سطوة منكرة واعتقلوا في شعبان من سنة احدى وسبعمائة بمعسكره من حصار تلمسان وقتل خليفة الكبير وأخوه ابراهيم وموسى بن السبتي واخوته بعد أن امتحنوا ومثل بهم وأتت النكبة على حاشيتهم وأقاربهم فلم تبق منهم باقية ، الا أن السلطان استبقى منهم خليفة الاصغر احتقارا لشأنه حتى كان من قتله بعد ما نذكره ، وعبث بسائرهم وطهرت الدولة من رجسهم وأزيل منها معرة رياستهم والامور بيد الله سبحانه

ثم لما كانت سنة ثلاث وسبعمائة توفي عثمان بن يغمراسن في الحصار عقب شربة لبن يقال أنه جعل فيها سما وشربه فعل ذلك بنفسه تفاديا من معرة غلبة عدوه عليه ، فاجتمع بنو عبد الواد لحينهم وبايعوا ابنه محمد بن عثمان واجتمعوا عليه ثم برزوا الى قتال عدوهم على العادة حتى كأن عثمان لم يمت وبلغ الخبر الى السلطان يوسف فتفجع على عثمان وعجب من صرامة قومه من بعده



٨٢

انتقاض ابن الاحمر واستيلاء الرئيس أبي سعيد على سبتة

كان محمد بن الاحمر المعروف بالفقيه قد هلك سنة احدى وسبعمائة ، وولي الامر بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع واستبد عليه كاتبه أبو عبد الله محمد بن الحكيم الرندي ، وكان من أول ما فعله محمد المخلوع بعد استقلاله بالامر المبادرة الى احكام عقد الموالاة بينه وبين السلطان يوسف فأوفد عليه وزير أبيه أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني ووزيره الكاتب أبا عبد الله بن الحكيم ، فوصلا الى السلطان يوسف بمعسكره من حصار تلمسان فتلقاهما بالقبول والمبرة وجددت لهما أحكام الود والولاية وانقلبا الى مرساهما خير منقلب وطلب السلطان منهما أن يمدوه بالرجل من عسكر الاندلس وناشبتهم المعودين منازلة الحصون والمثاغرة بالرباط فأسعفوه ، ثم فسد ما بينهما لمنافسات جرت الى ذلك فانتقض ابن الاحمر وعاد لسنة سلفه من موالاة الطاغية وممالاته على المسلمين أهل المغرب وأحكم العهد مع هراندة بن سانجة من بني اذفونش ملوك قشتالة خذلهم الله

ثم أوعز ابن الاحمر الى ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن اسماعيل صاحب مالقة في اعمال الحيلة في الغدر بأهل سبتة ففعل ، وداخل في ذلك بعض عمال بني العزفي بها فأمكنه من البلد فاقتحمها بأساطيله وجنده على حين غفلة من أهلها وتقبض على بني العزفي وعلى حاشيتهم وأركبهم الاسطول وبعث بهم الى مالقة ثم منها الى غرناطة فتلقاهم ابن الاحمر واحتفل لهم وأنزلهم بقصوره وأجرى عليهم النفقة واستقروا بالاندلس برهة من الدهر ثم عادوا الى المغرب كما نذكر واستبد الرئيس أبو سعيد بأمر سبتة وثقف اطرافها وسد ثغورها وبلغ الخبر بذلك الى السلطان يوسف فحمي أنفه وعظم عليه الامر فبعث ولده الامير أبا سالم ابراهيم في جيش كثيف الى حصارها وحشد اليها قبائل الريف وقبائل تازا فلم يغن شيئا ورجع مهزوما فسخطه السلطان لذلك وأهمله وبقي على ذلك الى وفاة السلطان رحمه الله وكان انتقاض ابن الاحمر سنة ثلاث وسبعمائة

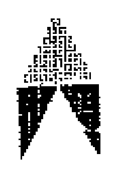
ثورة عثمان بن أبي العلاء بجبال غمارة

كان عثمان بن أبى العلاء ادريس بن عبد الحق من أعياص الملك المرينى وكان قد قدم من الاندلس فى صحبة الرئيس أبى سعيد عند استيلائه على سبتة ثم ثار بعد ذلك ببلاد غمارة ودعا لنفسه وبقى متنقلا هنالك مدة ، فتغلب على تكساس وآصيلا والعرايش وانتهى الى قصر كتامة وخب فى الفتنة ووضع الى أن الحق بالاندلس لاول دولة السلطان أبى الربيع فولى بها مشيخة الغزاة وكانت له فى جهاد العدو اليد البيضاء كما سيأتى ان شاء الله .

وفى سنة ثلاث وسبعمائة بعث السلطان يوسف وهو محاصر لتلمسان ركب الحاج المغربى الى الحرمين الشريفين ، واعتنى بشأن هذا الركب فبعث معهم حامية من زناتة تناهز خمسمائة فارس من الابطال ، وخاطب صاحب الديار المصرية لعهده وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى من مماليك بنى أيوب المعروفين بالبحرية ، واستوصاه بحاج أهل المغرب وأتحفه بهدية استكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة يقال كان عدد الخيل والمطايا أربعمائة. الى غير ذلك مما يناسب من طرف المغرب وما عونه وبعث معهم الى حرم مكة مصحفا ضخما اعتنى به واستكتبه وجعل له غشاء مكللا بنفيس الدر وشريف الياقوت ورفيع الاحجار ، ونهج السلطان يوسف رحمه الله بهذا الركب والهدية السبيل لحاج المغرب فاجمعوا الحج سنة أربع بعدها فاجتمع منهم عدد وافر وركب ضخم فعقد السلطان يوسف على دلالتهم لابى زيد الغفارى وفصلوا من تلمسان فى شهر ربيع الاول من السنة المذكورة وفى شهر ربيع الاخر بعده قدم حاج الركب الاول الذين حملوا المصحف والهدية ووفد معهم على السلطان يوسف شريف مكة السيد لبيدة بن أبى نمى نازعا عن سلطان الترك صاحب مصر لما كان قد قبض على أخويه حميضة ورميثة بعد مهلك أبيهم أبى نمى صاحب مكة ، فاستبلغ السلطان يوسف فى اكرامه والتنويه بقدره وسرحه الى المغرب ليجول فى أقطاره

ويطوف على معالم الملك وقصوره ، وأوعز الى العمال بالبرور به واتحافه على ما يناسب قدره ، ورجع هذا الشريف الى حضرة السلطان من تلمسان سنة خمس وسبعمائة ثم فصل منها الى مشرقه ، وفي شعبان من هذه السنة قدم أبو زيد الغفاري دليل ركب الحاج الثاني ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان يوسف لما كان صاحب مصر قد آسفهم بالتقبض على اخوانهم وكان ذلك شأنهم متى غاظهم السلطان وأهدوا الى السلطان يوسف ثوبا من كسوة الكعبة أعجب به فاتخذ منه ثوبا للبوسه في الجمع والاعياد كان يستبطنه بين ثيابه تبركا به

وأما الملك الناصر صاحب مصر فانه كافأ السلطان يوسف على هديته بأن جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله من الثياب والحيوانات ونحو ذلك مثل الفيل والزرافة ونحوهما وأوفد به مع عظماء دولته وفصلوا من القاهرة آخر سنة خمس وسبعمائة فوصلوا الى السلطان يوسف وهو بالمنصورة في جمادى الآخرة سنة ست بعدها واهتز لقدومهم وأركب الناس للقيهم وأكرم وفادتهم وبعثهم الى المغرب للتطوف به على العادة في مبرة أمثالهم ، وهلك السلطان يوسف أثناء ذلك وأفضى الامر الى حافده أبي ثابت فاحسن منقلبهم وملأ حقائبهم وفصلوا من المغرب الى بلادهم في ذي الحجة من سنة سبع وسبعمائة ، ولما انتهوا الى بلاد بني حسن في ربيع من سنة ثمان بعدها اعترضتهم الاعراب بالقفر فانتهبوهم وخلصوا الى مصر بجريعة الذقن فلم يعاودوا بعدها الى المغرب سفرا ولا لفتوا اليه وجها وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من ينوبه له ويهادونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئا



وفـاة السلطان يوسف رحمه الله

كان السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله قد اتخذ فـي جملة حاشيته ومماليكه خصيا اسمه سعادة وكان هذا الخصي قد تصير اليه من جهة أبي علي الملياني أيام كان عاملا له على مراكش وكـان السلطـان يوسف في ابتداء أمره يخلط الخصيان بأهله ولا يحجبهم عن حرمه وعيالـه ثم حدثت للسلطان ريبة في بعض الخصيان فاعتقل جملة منهم كان فيهم عنبر الكبير عريفهم ، وحجب سائرهم فارتاعوا لذلك وفسدت نياتهم فسولت لهذا الخصي الخبيث نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان فعمد اليه وهو فـي بعض حجر قصره فاستاذن عليه فأذن له فالفاه مستلقيا على فراشه مختضبا بحنـــــاء فوثب عليه وطعنه طعنات قطع بها امعاءه وخرج هاربا وانطلق بعض الاوليـاء في أثره فادركه من العشي بناحية تاسلة فقبض عليه وجـيء به الى القـصر فقتلته العبيد والحاشية وصابر السلطان يوسف منيته الى آخر النهار ثم قضى رحمه الله يوم الاربعاء سابع ذي القعدة من سنة ست وسبعمائة (*)وقبر هنالك ثم نقل بعد ما سكنت الهيعة الى مقبرتهم بشالة فدفن بها مـع سلفـه وأطلال ضريحه لازالت ماثلة الى الان

وبموت السلطان يوسف انقضت مدة الحصار عن آل يغمراسن وقومهم من بني عبد الواد وسائر أهل تلمسان وكانت المدة في ذلك مائة شهر كما قلنا نالهم فيها من الجهد والشدة ما لم ينل أمة من الامم واضطروا الـى أكـل الجيف والقطوط والفيران ، حتى أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس وخربوا السقوف للوقود وغلت أسعار الاقوات والحبوب وسائر المرافق بما

★ وزعم التونسي ان رجلا ممن يشار لهم بالصلاح من اهل أغمات جاء الى السلطان يوسف وهو تحت اسوار تلمسان ورغب منه ان يرفـع الحصار عن بني زيان فرفض السلطان طلبه فتأثر الرجل من ذلك وانصرف وهو يقول : « سيحدث بعد حادث يكون فيه ما طلبت » ثم ساق ذكر فتك الخصي بعد بالسلطان يوسف رحمه الله

تجاوز حد العادة وعجز وجدهم عنها فكان ثمن مكيال القمح ومقداره اثنا عشر رطلا ونصف مثقالين ونصفا من الذهب العين وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالا ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفا وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ومن الخيل بعشر المثقال والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى بثلاثين درهما والهر الداجي بمثقال ونصف والكلب بمثله والفأر بعشرة دراهم والحية بمثل ذلك والدجاجة بثلاثين درهما والبيض واحدة بستة دراهم والعصافير كذلك والاوقية من الزيت باثني عشر درهما ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين درهما ومن الملح بعشرة دراهم ومن الحطب كذلك والاصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال ومن الخس بعشرين درهما ومن اللفت بخمسة عشر درهما والواحدة من القثاء والفقوس باربعين درهما والخيار بثلاثة أثمان الدينار والبطيخ بثلاثين درهما والحبة من التين والاجاص بدرهمين ، واستهلك الناس أموالهم وموجودهم وضاقت أحوالهم وهلكت حاميتهم فاعتزموا على الالقاء باليد والخروج للاستماتة فهيأ الله لهم الصنع الغريب ونفس عن مخنقهم بمهلك السلطان يوسف على يد الخصي المريب وأذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور وكتبوا بعد هذه الحادثة في سكتهم : « ما أقرب فرج الله » استغرابا لها (*)

قال ابن خلدون : حدثني شيخنا أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الابلي قال: جلس السلطان أبو زيان بن عثمان بن يغمراسن صبيحة يوم الفرج وهو يوم الاربعاء سابع ذي القعدة في زاوية من زوايا قصره يفكر واستدعى ابن جحاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الاهراء والمطامير المختومة فقال له : انما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتمان ذلك وبينما هم يتذاكرون في ذلك دخل عليهم أخوه أبو حمو فأخبروه بذلك فوجم وجلسوا سكوتا لاينطقون واذا بدعد قهرمانة القصر وكانت وصيفة من وصائف بنت السلطان أبي

---

* ذكر صاحب بغية الرواة انه بلغ في هذا الحصار عدد موتى اهل تلمسان قتلا وجوعا زهاء مائة الف وعشرين الفا ص ١٢٥ طبع الجزائر سنة ١٣٢١ ـ ١٩٠٣

اسحق حظية أبيهم قد خرجت من القصر اليهم وحيتهم وقالت لهم : «تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم : « ما لنا وللبقاء وقد أحيط بكم واسف عدوكم لالتهامكم ولم يبق الافواق ناقة لمصارعكم فاريحونا من معرة السبي وقربونا الى مصارعنا وأريحوا أنفسكم فينا فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم» فالتفت أبو حموا الى أخيه أبي زيان وكان من الشفقة بمكان فقال :«قد صدقتك الخبر فما تنتظر بهن» فقال : « ياموسى أرجئني ثلاثا لعل الله يجعل بعد عسر يسرا ولا تشاورني بعدها فيهن بل سرح اليهود والنصارى الى قتلهن وتعال الى نخرج مع قومنا الى عدونا فنستميت ويقضي الله ما شاء » فغضب ابو حموا وانكر عليه التاخير في ذلك وقال : « انما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا » وقام عنه مغضبا وجهش السلطان ابو زيان بالبكاء قال ابن جحاف :«وأنا بمكاني بين يديه لاأملك متأخرا ولا متقدما الى أن غلب عليه النوم فما راعني الا حرسي بالباب يشير الى أن أعلم السلطان بمكان رسول جاء من محلة بني مرين وها هو بسدة القصر » قال ابن جحاف: « فلم أطق رد جوابه الا بالاشارة» وانتبه السلطان من همسنا فزعا فأعلمته فاستدعاه للحين فلما وقف بين يديه قال: «ان السلطان يوسف بن يعقوب هلك الساعة وأنا رسول حافده أبي ثابت اليكم» فاستبشر السلطان أبوزيان واستدعى أخاه وقومه حتى بلغ الرسول المذكور رسالته بمسمع منهم فكانت احدى المغربات في الايام وكان من خبر هذه الرسالة أن السلطان يوسف لما هلك تطاول للامر بعده القرابة من اخوته وولده وحفدته وتحيز حافده أبو ثابت الى بني ورتاجن لخؤلة كانت له فيهم فاستجاش بهم واعصوصبوا عليه وبعث الى بني زيان أن يعطوه آلة الحرب ويكونوا مفزعا له ان أخفق مسعاه على أنه ان تم أمره قوض عنهم معسكر بني مرين وافرج عنهم ، فعاقدوه على ذلك فوفى لهم لما تم أمره ونزل لهم عن جميع الاعمال التي كان السلطان يوسف غلب عليها من بلادهم ورحلوا الى مغربهم والله غالب على أمره

بقيـة اخبـار السلطان يوسف وسيرته

كان السلطان يوسف رحمه الله أبيض حسن القد مليـح الوجه أقنـى الانف مهيا لا يكاد أحد يبدأه بالكلام جوادا مشفقا على الرعية متفقدا لاحوالها شجاعا شهما ذا عزيمة .

اذا هم ألقى بين عينيه همه وتكب عن ذكر العواقب جانبا

وهو أول من هذب ملك بنى مرين وأكسبه رونق الحضارة وبهاء الملك وكان غليظ الحجاب لايكاد يوصل اليه الا بعد الجهد ، ومـن أعيان كتابـه الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبى مدين العثمانى ، ومن أعيان شعرائه أبـو الحكم مالك بن المرحل السبتى وأبو فارس عبد العزيز الملزوزى المكناسـى وغيرهما والله تعالى أعلم

ولنذكر ما كان فى هذه المدة من الاحداث (ففى سنة سـت وخمسيـن وستمائة) وهى السنة التى بويع فيها السلطان يعقـوب بن عبد الحـق كان الرخاء المفرط بالمغرب بحيث كان الدقيق يباع بفاس وغيرها ربع منه بدرهم والقمح ستة دراهم للصحفة والشعير ثلاثة دراهم للصحفة ، وأما القطانـى فلم يكن لها ثمن والعسل ثلاثة أرطال بدرهم والزيت أربعون أوقية بدرهم والزبيب درهم ونصف للربع والتمر ثمانية أرطال بدرهم واللوز صاع بدرهم والشابل الطرى فردة بقيراط والملح حمل بدرهم ولحم البقـر مائة أوقيـة بدرهم ولحم الضأن سبعون أوقية بدرهم والكبش بخمسة دراهم وهكذا

وفى سنة احدى وستين وستمائة ظهر النجم أبو الذوائب وكـان ابتداء ظهوره ليلة الثلاثاء الثانى عشر من شعبان من السنة المذكورة وبقى يطلع كل ليلة وقت السحر نحوا من عشرين يوما

وفى سنة أربع وستين وستمائة كان دخول الشريف المولى حسن بـن قاسم الحسنى من أرض ينبع الحجاز الى سجلماسة وهذا الشريف هو جـد الاشراف العلويين السجلماسيين ملوك المغرب الاقصى فى عصرنا هذا أعلى

الله تعالى قدرهم وخلد مجدهم وفخرهم ، وعند الكلام على دولتهم السعيدة نذكر كيفية دخول هذا الشريف الى المغرب والسبب فيه ان شاء الله

وفي سنة ست وستين وستمائة سرق من بيت المال بقصبة فاس اثنا عشر ألف دينار وثلاث قلائد يساوين أكثر من ذلك

وفي حدود السبعين وستمائة كان ظهور البارود على ما مر من أن السلطان يعقوب بن عبد الحق فتح به سجلماسة في هذه المدة والله تعالى أعلم

وفي سنة سبع وسبعين وستمائة بنى المسجد الجامع بفاس الجديد ، وفي سنة تسع وسبعين وستمائة علقت به ثرياه وذلك يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الاول منها ووزن هذه الثريا سبعة قناطير وخمسة عشر رطلا وعدد كؤوسها مائتا كأس بالتثنية وسبع وثمانون كأسا وفيها كان الجراد العام بالمغرب أكل الشجر والزرع ولم يترك خضراء على وجه الارض وبلغ القمح عشرة دراهم للصاع

وفي سنة ثمانين وستمائة بنيت قنطرة وادي النجاة وقنطرة ماريسيج

وفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة كان بالمغرب قحط شديد لم ير الناس قطرة ماء حتى كان اليوم السابع والعشرون من رمضان وهو اليوم الذي توفيت فيه الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوية من بني علي بن عسكر وهي أم السلطان يوسف فغاث الله العباد وأحيى برحمته البلاد

وفي سنة خمس وثمانين وستمائة بنيت قصبة تطاوين وفيها ركبت الناعورة الكبرى على وادي فاس شرع في عملها في رجب من السنة المذكورة ودارت في صفر من السنة بعدها

وفي سنة ست وثمانين وستمائة بني سور قصر المجاز وركبت أبوابه وفيها غرس بستان المصارة بفاس الجديد وبنيت الدار البيضاء بها أيضا

وفي سنة تسع وثمانين وستمائة كانت الريح الشرقية المتوالية الهبوب ونشأ عنها القحط الشديد واستمر ذلك الى آخر سنة تسعين بعدها فرحم الله بلاده وعباده وفيها توفي الشيخ الصالح أبو يعقوب الاشقر بالكندرتين من

بلاد بنى بهلول من أحواز فاس ولعل أبا يعقوب هذا هو الذى تنسب اليه الحمة التى قدمنا الكلام عليها فى أخبار المنصور الموحدى والله أعلم وفيها بنى المسجد الجامع بمدينة تازا وبنيت قبة مكناسة الزيتون ورباعها

وفى سنة احدى وتسعين وستمائة أمر السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بعمل المولد النبوي وتعظيمه والاحتفال له (*) وصيره عيدا من الاعياد فى جميع بلاده وذلك فى شهر ربيع الاول من السنة المذكورة وكان الامر به قد صدر عنه وهو بصبرة من بلاد الريف فى آخر صفر من السنة فوصل برسم اقامته بحضرة فاس الفقيه أبو يحيى بن أبى الصبر واعلم أنه قد كان سبق السلطان يوسف الى هذه المنقبة المولدية بنو العزفى أصحاب سبتة فهم أول من أحدث عمل المولد الكريم بالمغرب والله تعالى أعلم

وفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة كان كسوف الشمس وذلك قرب زوال يوم الاحد التاسع والعشرين من رجب من السنة المذكورة كسف منها نحو الثلثين وصلى بالناس صلاة الكسوف بجامع القرويين من فاس الخطيب أبو عبد الله بن أبى الصبر حتى انجلت فخرج من المحراب ووقف بازائه فوعظ الناس وذكرهم وفى هذه السنة رفعت أيدى الموثقين من الشهادة بفاس* ولم يبق بها منهم سوى خمسة عشر رجلا من أهل العدالة والمعرفة وكانوا قبل ذلك أربعة وتسعين وكان ذلك يوم الاثنين الحادى عشر من شوال من السنة المذكورة وفيها كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم عم ذلك بلاد المغرب وافريقية ومصر فكانت الموتى تحمل اثنين وثلاثة وأربعة على المغتسل وبلغ القمح عشرة دراهم للمد والدقيق ست أواق بدرهم وأمر السلطان يوسف بتبديل الصيعان وجعلها على مد النبى صلى الله عليه وسلم وكان ذلك

(*) يعنى بالمغرب واما بالمشرق فاول من احدثه الملك المظفر صاحب اربل فى اواخر المائة السادسة انظر ترجمته فى حرف الكاف من وفيات الاعيان .

* وذكر فى الفائق ان السلطان أبا عنان المرينى الاتى امر بالاقتصار على عشرة من الشهود بمدينة مكناسة انظر تمام كلامه

بالحضرة على يد الفقيه أبى فارس عبد العزيز الملزوزى الشاعر المشهور .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة فيها صلح أمر الناس وانجبرت أحوالهم ورخصت الاسعار فى جميع الامصار فبيع القمح بعشرين درهما للصحفة وفى هذه السنة كسفت الشمس أيضا الكسوف الكلى بحيث غاب قرص الشمس كله وصار النهار ليلا كالحالة التى تكون ما بين العشاءين وظهرت النجوم وماج الناس وضاقت نفوسهم ولولا أن الله سبحانه تداركهم بسرعة انجلائها لهلكوا جزعا وكان ذلك بعد صلاة ظهر الثلاثاء الثامن والعشرين من ذى الحجة من سنة أربع وتسعين المذكورة

وفى سنة سبعمائة أسس السلطان يوسف بن يعقوب مدينته المنصورة بازاء تلمسان وهو محاصر لها الحصار الطويل حسبما مر الخبر على ذلك مستوفى وبالله تعالى التوفيق

الخبر عن دولة السلطان أبى ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

قد تقدم لنا أن أبا عامر عبد الله ابن السلطان يوسف كان قد انتبذ عن أبيه وبقى متنقلا فى جهات الريف وبلاد غمارة الى أن هلك فى بلاد بنى سعيد منهم ، وانه خلف ثلاثة أولاد أحدهم أبو ثابت عامر بن عبد الله هذا الذى ولى الامر بعد جده ،وذلك أنه لما هلك السلطان يوسف رحمه الله بالمنصورة كما تقدم كان حافده أبو ثابت هذا فى جملته وكان له فى بنى ورتاجن من أهل تلك البلاد خؤلة فلحق بهم ودعا لنفسه فبايعوه وقاموا معه فى أمره ، وبايعه معهم أشياخ بنى مرين والعرب بظاهر المنصورة يوم الخميس ثانى يوم وفاة جده يوسف وبادر الحاشية والوزراء ومن شايعهم بداخل المنصورة الى بيعة الامير أبى سالم بن السلطان يوسف وكاد أمر بنى مرين يفسد وكلمتهم تتفرق فبعث السلطان أبو ثابت لحينه وكان شهما مقداما الى

صاحبي تلمسان أبي زيان وأبي حمو ابني عثمان بن يغمراسن عقد لهما عهدا على أن يرحل عنهم بجموعه وأن يمدوه بالآلة ويرفعوا له كسر بيتهم ويضموه اليهم ان خاب أمله ولم يتم له أمر فأجابوه الى ذلك ، وحضر العقد أبوحمو فأحكمه وشرط عليه السلطان أبو ثابت أن لا يتعرضوا لمدينة جده المنصورة بسوء وأن يتعاهدوا مساجدها وقصورها بالاصلاح وان من أراد الاقامة بها من أهلها فما لاحد عليه من سبيل لان الناس كانوا قد استوطنوها وألفوها وطاب مقامهم بها وتأثلوا بها الاثاث والمتاع والخرثي وسائر الماعون مما يثبط المرتحل ويثقل جناح الناهض فقبل أبو حمو ذلك كله

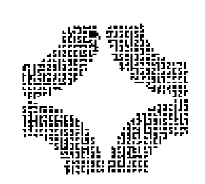
وتفرغ السلطان أبو ثابت لشأنه وجمع كلمة قومه واختل أمر أبي سالم فلم يتم وكتب السلطان أبو ثابت الى حامية بني مرين وحصصها التي كانت متفرقة في الثغور الشرقية التي استولى عليها السلطان يوسف أيام حياته فأقبلوا اليه ينسلون من كل حدب وأسلموا البلاد الى أهلها من بني عبد الواد وقتل السلطان أبو ثابت عمه أبا سالم بن يوسف ثم اتبعه بعم أبيه أبي بكر بن يعقوب في آخرين من القرابة وغيرهم ممن يتوقع منه الشر ، وفر بقية القرابة خشية على أنفسهم من سطوة أبي ثابت فلحقوا بعثمان بن أبي العلاء الثائر بجبال غمارة من عهد السلطان يوسف فبايعوه على أمره وتقوى بهم على ما نذكره ثم ارتحل السلطان أبو ثابت قاصدا حضرة فاس في جموع لاتحصى وأمم لاتستقصى فعيد عيد الاضحى من سنة ست وسبعمائة في طريقه بين تلمسان ووجدة ثم نهض الى فس فدخلها فاتح سنة سبع وسبعمائة ثم نهض بعد ذلك الى مراكش على ما نذكره ، ولما علم بنو يغمراسن أن أبا ثابت قد أبعد عنهم وأنه توغل في البلاد المراكشية واشتغل بحروب الثائرين بها عمدوا الى المنصورة فجعلوا عاليها سافلها وطمسوا معالمها ومحوا آثارها فأصبحت كأن لم تغن بالامس

ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق وما كان من أمره

كان السلطان أبو ثابت لما فصل من تلمسان قدم بين يديه ابن عمه الحسن ابن عامر بن عبد الله بن يعقوب وأمره بالنظر فـي أحوال فاس والمغـرب ، وأمره بضبطها وتسريح سجونها ورد مظالمها وتفريق الاموال على الخاصة والعامة ففعل ، ولما قدم حضرة فاس عقد لابن عمه يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق على مراكش ونواحيها وعهـد اليه بالنظـر في أحوالـها وضبطها فصـمد اليها واحتل بها وتمكـن منها ، ثم حدثتـه نفسه بالانتـزاء فاستلحق واستركب واتخذ الآلة وجاهر بالخلـعان وتقبض علـى الوالـي بمراكش الحاج المسعود فقتله من تحت السياط في جمادى الاخرة سنة سبع وسبعمائة ودعا لنفسـه ، واتصل الخبر بالسلطان أبي ثابت وهو بفاس فسرح اليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعود بن خرباش الحشمي بالحاء المهملة ويعقوب بن آصناك في خمسـة آلاف فارس فساروا الى مراكش ، وبرز يوسف بن محمد بن أبي عياد الى حربهم وعبر اليهم وادي أم الربيع فالتقوا معه على ضفته الشرقية فهزموه وعاد الى مراكش ، واتبعه الوزير ودخل ابن أبي عياد مراكش فقتل جماعة من جند الفرنج الذيـن بها وسبـى ذراريهم وخرج منها الى اغمات فلم يستقر بها ، ثم فر الى جبال هسكورة فنزل علـى كبيرها مخلوف بن هنو الهسكوري ولحق به موسى بن سعيد الصبيحي من اغمات تدلى من سورها فلحق به

ودخل السلطان أبو ثابت مراكش منتصف رجب من سنة سبع وسبعمائة وأمر بقتل أوربة المداخلين لابن أبي عياد في انتزائه فاستلحموا جميعا ، ولما لحق ابن أبي عياد بمخلوف بن هنو الهسكوري واستجار به لم يجره علـى السلطان أبي ثابت بل قبض عليه مع ثمانية من كبار أصحابه وبعثهم في الحديد اليه وهو بمراكش فقتلوا في مصرع واحد بعد أن مثل بهم بالسياط ، وبعث برأس ابن أبي عياد الى فاس فطيف به ونصب على سورها ثم أثخن أبوثابت

في كل من كان على رأى ابن أبي عياد وخاض معه في الفتنة فاستلحم منهـــم بمراكش ما ينيف على السنمائة وصلبهم على سورها من باب الرب أحد أبواب مراكش الى برج دار الحرة عزونة ، وقتل في اغمات منهم مثل ذلك وخـرج منتصف شعبان الى منازلة السكسيوى وتدويخ جهات مراكش فنزل بتامزوارت وتلقاه السكسيوى بالبيعة والهدية والضيافة فقبل السلطان أبو ثابت ذلك منه ، ثم بعث قائده يعقوب بن آصناك في جيش من ثلاثة آلاف فارس الى بلاد حاحة برسم غزو قبائل زكنة ففروا بين يديه حتى دخلوا بلاد القبلة وانقطع أثرهـــم ورجع الى معسكر السلطان بتامزوارت وأخبره بسكون البلاد وأمنها ، فانكفأ السلطان أبو ثابت راجعا الى مراكش فدخلها غرة رمضان من سنة سبع وسبعمائة . ثم خرج منها في منتصفه قاصدا رباط الفتح فاجتاز على بلاد صنهاجة وعبر وادى أم الربيع من مشرع كتامة في القوارب لزيادة الماء يومئذ ، ثـــم ارتحل فاجتاز ببلاد تامسنا فتلقاه بها عرب جشم من قبائل الخلط وسفيان وبني جابر والعاصم فاستصحبهم معه الى مدينة آنفي بعد أن استأذنوه فـي الرجوع فلم يأذن لهم ، ولما احتل بآنفي دعا بأشياخهم فحضروا عنده فقبض على ستين منهم أودعهم سجن آنفي وضرب أعناق عشرين من فسادهم القاطعين للسبل وصلبهم على سور آنفي ، ثم نهض الى رباط الفتح فدخله في السابع والعشرين من رمضان فعيد هنالك عيد الفطر وقتـل به ثلاثين من فتاك العرب المتهميـن بالحرابة وقطع الطريق وصلبهم علـى أسوار العدوتين ، ثم ارتحل منتصـف شوال لغزو عرب رياح الموطنين بأبي طويسل وفحص آزغار وبـلاد الهبط ، فغزاهم وأخذهم بالاحن القديمة فقتل منهم خلقا وسبى ذراريهم وانتهب أموالهم ونهض الى فاس فاحتل بها منتصف ذى القعدة وعيد بها عيد الاضحى ثم نهض الى سبتة على ما نذكره



غزو السلطان أبي ثابت بلاد غمارة وسبتة ومحاصرته لعثمان بن أبي العلاء

قد تقدم لنا أن عثمان بن أبي العلاء كان قد ورد من الاندلس صحبة الرئيس أبي سعيد بن الاحمر المتغلب على سبتة أيام السلطان يوسف وانه ثار بجبال غمارة ودعا لنفسه واستحوذ عليها وكان السلطان يوسف بلغه خبره وأهمه شأنه الا أنه كان يرجو أن يفتح تلمسان عن قريب ثم ينهض اليه فعاجله الحمام دون ذلك ولما أفضى الامر الى السلطان أبي ثابت وقدم حضرة فاس شغله عن عثمان بن أبي العلاء ما كان من ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد بمراكش كما قدمناه فعقد على حرب عثمان بن أبي العلاء لابن عمه عبد الحق ابن عثمان بن محمد بن عبد الحق فزحف اليه ونهض عثمان بن أبي العلاء الى لقائه منتصف ذي الحجة سنة سبع وسبعمائة فهزمه عثمان بن أبي العلاء واستلحم من كان معه من جند الفرنج وهلك في تلك الوقعة عبد الواحد الفودودي من رجالات الدولة المرشحين للوزارة ، وسار عثمان بن أبي العلاء الى قصر كتامة فدخله واستولى على جهاته وكان بطلا من الابطال وعلى اثر ذلك كان رجوع السلطان أبي ثابت من غزاة مراكش وقد حسم الداء ومحى أثر النفاق فاعتزم على النهوض الى بلاد غمارة ليمحو منها أثر دعوة ابن أبي العلاء التي كادت تلج عليه دار ملكه ويستخلص سبتة من يد ابن الاحمر المتغلب عليها لانها صارت ركابا لمن يروم الخروج على السلطان من القرابة المستقرين وراء البحر غزاة في سبيل الله

فنهض السلطان أبو ثابت من فاس عقب عيد الاضحى من سنة سبع وسبعمائة حتى انتهى الى قصر كتامة فتلوم به ثلاثا حتى تلاحق به قبائل مرين والعرب والرماة من سائر البلاد فعرض جيشه وارتحل قاصدا جبال غمارة ، وكان عثمان بن أبي العلاء قد فر أمامه الى ناحية سبتة فسار السلطان أبو ثابت في اتباعه حتى نازل حصن علودان واقتحمه عنوة واستلحم به زهاء أربعمائة ، ثم نازل بلد الدمنة على شاطيء البحر فقتل الرجال وسبى النساء والذرية وانتهب الاموال وكانوا قد تمسكوا بطاعة ابن أبي العلاء وأجازوه الى القصر في وسط

بلادهم وبالغوا في تضييفه واكرامه ودخلوا معه القصر وآصيلا ونهبوا كثيرا من مال أهلهما ، ثم ارتحل السلطان أبو ثابت الى طنجة فدخلها فاتح سنة ثمان وسبعمائة وتحصن ابن أبى العلاء بسبتة مع أوليائه من ابن الاحمر وسرح السلطان أبو ثابت عسكره فتفرقت في نواحي سبتة بالغارات واكتساح الاموال

بناء مدينة تطاوين

ثم أمر السلطان باختطاط مدينة تطاوين لنزول عسكره ولاخذ بمخنق سبتة هكذا عند ابن أبى زرع وابن خلدون . واعلم أن تطاوين هذه هي تطاوين القديمة وقد تقدم لنا أن قصبتها بنيت في سنة خمس وثمانين وستمائة وذلك لاول دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ، ثم بنى السلطان أبو ثابت هذه المدينة عليها في هذا التاريخ الذى هو فاتح سنة ثمان وسبعمائة وكان بناؤها خفيفا شبه القرية عدا قصبتها فان بناءها كان محكما وثيقا ، واستمرت هذه المدينة عامرة الى صدر المائة التاسعة فخربت ثم جدد بناؤها بعد نحو تسعين سنة حسبما يأتى الخبر عن ذلك مستوفى ان شاء الله تعالى ، قالوا : ولفظ تطاوين مركب من كلمتين تيط ومعناها فى لسان البربر العين ووين وهى كناية عن المخاطب نحو يافلان وما أشبه ذلك ، قالوا : والسبب فى تسميتها بذلك أنهم في وقت اختطاطهم لها كانوا يضعون الحرس على أسوارها مخافة فجأة العدو فكان الحرس ينادون بالليل أو بالنهار تطاوين تطاوين ، أى يافلان افتح عينك لان عادة الحارس أن يقول ذلك فصار هذا اللفظ علما عليها ويظهر أن هذا من كلام العامة ولا أصل له ، وكذا قول بعضهم تيط معناها العين ووين معناها المقلة ومعنى مجموع الكلمتين مقلة العين والاضافة مقلوبة كما هى فى لسان بعض الامم العجمية فانه لامستند له والله تعالى أعلم

ولما شرع السلطان أبو ثابت في بناء مدينة تطاوين أوفد كبير الفقهاء بمجلسه أبا يحيى بن أبى الصبر الى ابن الاحمر صاحب سبتة فى شأن النزول

له عن البلد وأقام هو بقصبة طنجة ينتظر الجواب بماذا يكون ، وفي أثناء ذلك مرض مرض موته وتوفي(*) يوم الاحد الثامن من شهر صفر سنة ثمان وسبعمائة ودفن بظاهر طنجة ثم حمل شلوه بعد أيام الى مدفن آبائه بشالة فووري هنالك رحمة الله عليه وعليهم

الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع سليمان بن أبي عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

لما هلك السلطان أبو ثابت تصدى للقيام بالامر عمه علي بن يوسف المعروف بابن زريقاء وهي أمه ، وعلى هذا هو الذي قتل شيوخ المصامدة بكتاب ابن المليانى كما تقدم وخلص الملأ من بني مرين أهل الحل والعقد الى أبي الربيع المذكور أخي أبي ثابت فبايعوه واستتب أمره فتقبض على عمه علي بن زريقاء وسجنه بطنجة فبقي مسجونا بها الى أن هلك سنةعشر وسبعمائة وبث السلطان أبو الربيع العطاء في الناس وأجزل الصلات فأرضى الخاصة والعامة وصفا له الامر ، ثم ارتحل نحو فاس واستدعى من كان بمحلة تطاوين من الجند فأقبلوا اليه وأرضاهم بالمال كذلك ، ولما فصل من طنجة تبعه عثمان بن أبي العلاء من سبتة في جيش كثيف ليضرب في محلته ليلا فنذر به عسكر السلطان أبي الربيع فأسهروا ليلتهم وباتوا على صهوات خيولهم فوافاهم عثمان بساحة علودان وهم على ذلك فناجزهم الحرب فهزموه وتقبض على ولده وكثير من عسكره وقتل آخرون وكان للسلطان أبي الربيع الظهور الذي لاكفاء له ووصل أبو يحيى بن أبي الصبر من الاندلس وقد أحكم عقدة الصلح مع ابن الاحمر صاحب غرناطة

ولما رأى عثمان بن أبي العلاء ذلك سقط في يده وأيس من المغرب فعبر

(*) ذكر في روضة النسرين في دولة بني مرين لابن الاحمر أنه توفي مسموما

البحر فيمن معه من القرابة الى الاندلس وولى مشيخة الغزاة بها فكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء وعلا أمره بالاندلس وزاحم بني الاحمر ملوكها في رياستهم وجبايتهم حتى كاد يستولى على الامر من أيديهم وشرقوا بدائه ومارسوه مدة طويلة ، وعدلوا في أمره الى المصانعة والمجاملة في أخبار ليس جلبها من غرضنا الى أن توفي ، لكنا نذكر من ذلك انموذجا يستدل به الواقف عليه على ما وراءه ، فنقول : « لما توفي عثمان بن أبي العلاء رحمه الله كتب على قبره ما صورته : «هذا قبر شيخ الحماة وصدر الابطال والكماة ، واحد الجلالة ليث الاقدام والبسالة علم الاعلام حامي ذمار الاسلام ، صاحب الكتائب المنصورة والافعال المشهورة والمغازي المسطورة وامام الصفوف ، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف سيف الجهاد وقاصم الاعاد وأسد الآساد العالي الهمم الثابت القدم الهمام الماجد الارضى البطل الباسل الامضى المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير الاصيل الشهير المقدس المرحوم أبي العلاء ادريس بن عبد الله ابن عبد الحق »

كان عمره ثمانيا وثمانين سنة أنفقه ما بين روحة في سبيل الله وغدوة حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة وقطع عمره مجاهدا مجتهدا في طاعة الرب محتسبا في ادارة الحرب ماضي العزائم في جهاد الكفار، مصاد ما بين جموعهم تدفق التيار وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ما سار ذكره في الاقطار أشهر من المثل السيار حتى توفي رحمه الله وغبارالجهاد طي أثوابه ، وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه فمات على ما عاش عليه وفي ملحمة الجهاد قبضه الله اليه .واستأثر به سعيدا مرتضى وسيفه على رأس ملك الروم منتضى مقدمة قبول واسعاد ونتيجة جهاد وجلاد ودليلا على نيته الصالحة وتجارته الرابحة فارتجت الاندلس لبعده أتحفه الله برحمة من عنده توفي يوم الاحد الثاني لذي الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة رحمه الله .

وأما السلطان أبو الربيع فانه لما سار عن طنجة دخل حضرة فاس حادي

عشر ربيع الاول من سنة ثمان وسبعمائة فأقام بها سنة المولد الكريم وفرق الاموال واستقامت الامور وتمهد الملك وعقد السلم مع صاحب تلمسان أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن وأقام وادعا بحضرته مجتنيا ثمرة ملكه ، وكان في أيامه غلاء الا أن الناس انفتحت لهم فيها أبواب المعاش والترف حتى تغالوا في أثمان العقار فبلغت قيمتها فوق المعتاد حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين ، وتنافس الناس في البناء فاتخذوا القصور المشيدة وتأنقوا فيها بالزليج والرخام وأنواع النقوش ، وتناغوا في لبس الحرير وركوب الفاره وأكل الطيب واقتناء الحلي من الذهب والفضة واستبحر العمران وظهرت الزينة والامور كلها بيد الله تعالى

نكبة الفقيه الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين واستئصال بني وقاصة اليهوديين بعد ذلك

كان الفقيه الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبي مدين شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان احدى قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير ، وكان بيته بيت العلم والدين واتصلوا بخدمة بني مرين أيام دخولهم المغرب واستيلائهم عليه وكا نأبو محمد هذا من خاصة السلطان يوسف بن يعقوب وجعل بيده وضع العلامة على الرسائل وفوض اليه في حسبان الخراج والضرب على أيدي العمال وتنفيذ الاوامر بالقبض والبسط فيهم واستخلصه لمناجاته والافضاء اليه بسره ، ولما هلك السلطان يوسف وولي بعده السلطان أبو ثابت ضاعف رتبة هذا الرجل وشفع لديه حظه ومنصبه ورفع على الاقدار قدره ، ثم ولي بعده أخوه أبو الربيع فسلك فيه مذهب سلفه واضطلع أبو محمد بن أبي مدين بأمور دولته ، وكان بنو وقاصة اليهود حين نكبوا أيام السلطان يوسف يرون أن نكبتهم كانت بسعاية أبي محمد فيهم ، وكان خليفة الاصغر منهم قد أفلت من تلك النكبة كما ذكرناه

فلما أفضى الامر الى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة هذا بداره فى بعض المهن فباشر الامور وترقى فيها حتى اتصل بالسلطان فجعل غاية قصده السعاية بأبي محمد بن أبى مدين ، وكان يؤثر عن السلطان أبى الربيع أنه يختلي مع حرم حاشيته وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس فدس الى السلطان بأن ابن أبي مدين يعرض بانهامك فى ابنته وأن صدره قد وغر لذلك وانه مترصد بالدولة ومتربص بها الدوائر ، فتمكنت سعايته من السلطان وظن أنه صادق وكان يخشى غائلة ابن أبي مدين بما كان له من الوجاهة فى الدولة ومداخلة القبيل فاستعجل السلطان أبو الربيع دفع غائلته ودس الى قائد جند الفرنج بقتله ، فسار اليه ولقيه بمقبرة الشيخ أبى بكر بن العربى فرصده وأتاه من خلفه فطعنه طعنة كبته على ذقنه واحتز رأسه وألقاه بين يدى السلطان أبى الربيع ، ودخل الوزير سليمان بن يرزيكن فوجد الرأس بين يديه فذهبت نفسه عليه وعلى مكانه من الدولة حسرة وأسفا ، وأيقظ السلطان لمكر اليهودى وأطلعه على خبثه وأخرج له براءة كان بعث بها ابن أبى مدين معه الى السلطان يتنصل فيها ويحلف على كذب مارمي به عنده ، فتنبه السلطان لمكر اليهودى وعلم أنه قد خدعه وندم حيث لم ينفعه الندم ، وفتك حينه بخليفة بن وقاصة وحاشيته من اليهود المتصدين للخدمة وسطا بهم سطوة الهلكة فاصبحوا مثلا للاخرين

انتقاض أهل سبتة على بنى الاحمر ومراجعتهم طاعة بنى مرين

كان أهل سبتة قد سئموا ملكة أهل الاندلس وثقلت عليهم ولايتهم لاسيما حين رحل عنهم عثمان بن أبي العلاء وعبر البحر بقصد الجهاد كما مر واتصل خبر ذلك بالسلطان أبي الربيع فانتهز الفرصة فيهم وعقد لثقته تاشفين بن يعقوب الوطاسى أخى وزيره عبد الرحمن بن يعقوب على عسكر ضخم من بنى مرين وسائر طبقات الجند وبعثه الى سبتة فأغذ السير اليها ونزل بساحتها ولما أحس به أهل البلد تمشت رجالاتهم فيما بينهم وتنادوا بشعار بنى مرين

وثاروا على من كان بسبتة من حامية ابن الاحمر فاخرجوهم منها ، واقتحم تاشفين بن يعقوب البلد عاشر صفر من سنة تسع وسبعمائة وتقبض على قائد القصبة أبى زكرياء يحيى بن مليلة وعلى قائد البحر أبى الحسن بن كماشة وعلى قائد الحرب بها من القرابة عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق ، وطير تاشفين بالخبر الى السلطان أبى الربيع فعم السرور وعظم الفرح واتصل ذلك بابن الاحمر فضاق ذرعه وخشى عادية بنى مرين وجيوش المغرب حين انتهوا الى الفرضة وملكوها ، فقلب رأيه ورأى أن يجنح الى السلم مع السلطان أبى الربيع لشدة شوكته ولكلب الطاغية عليه فى أرضه لولا أن غزاة بنى مرين يكفون من غربه فبادر السلطان ابن الاحمر وهو أبو الجيوش نصر ابن محمد أخو المخلوع الذى كان قبله ، وأوفد رسله على السلطان أبى الربيع راغبين فى السلم خاطبين للولاية وتبرع بالنزول عن الجزيرة ورندة وحصونها ترغيبا للسلطان أبى الربيع فى الجهاد فقبل منه ذلك وعقد له الصلح على ما أراد ، وخطب منه أخته فأنكحه ابن الاحمر اياها وبعث السلطان أبو الربيع اليه بالمدد للجهاد أموالا وخيولا جنائب مع ثقته عثمان بن عيسى اليرينانى أخى وزيره ابراهيم بن عيسى واتصلت بينهما الولاية الى أن توفى السلطان أبو الربيع رحمه الله

انتقاض الوزير عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسى على السلطان أبى الربيع ومبايعته لعبد الحق بن عثمان والسبب فى ذلك

لما انعقد الصلح بين السلطان أبى الربيع وابن الاحمر وحصلت المصاهرة بينهما والمودة كانت رسل ابن الاحمر لاتزال تردد الى حضرة السلطان بفاس فقدم منهم ذات يوم بعض المنهمكين فى اللهو المدمنين للشرب والقصف ، فكشف صفحة وجهه فى معاقرة الخمر وتجاهر بذلك بين الناس ، وكان السلطان أبو الربيع قد عزل قاضى فاس أبا غالب المغيلى وولى القضاء مكانه

الشيخ الفقيه أبا الحسن الزرويلي المعروف بالصغير صاحب التقييد على المدونة وكان رحمه الله قد شدد على أهل الفسوق والمناكر ، فسيق اليه ذات يوم هذا الحسني وهو سكران فأمر العدول فاستروحوه واشتموا منه رائحة الخمر وأدوا شهادتهم على ذلك ، فأمضى القاضي حكم الله فيه وجلده الحد فاضطرم الحسني غيظا وتعرض للوزير عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي ويقال لـه رحو بالمسان الزناتي فكشف له عن ظهره يريه أثر السياط وينعى عليه سوء هذا الفعل مع رسل الدول ، فضجر الوزير من ذلك وأخذته العزة بالاثم ولعله كان في قلبه شيء على القاضي فأمر وزعته باحضاره على أسوأ الحالات وعـزم على البطش به فتبادروا اليه ، واعتصم القاضي بالمسجد الجامع ونـادى فـي المسلمين فثارت العامة بهم ومرج أمر الناس وقامت الفتنة على ساق ، واتصل الخبر بالسلطان فتلافى الامر وأحضر أصحاب الوزير فضرب أعناقهم وشرد بهم من خلفهم جزاه الله خيرا ، فأسرها الوزير في نفسه وداخل الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد وكان من شيوخ بني مرين وأهل الشورى فيهم ، وداخل قائد الفرنج غنصالو المنفرد برياسة العسكر وشوكـة الجند وكان لهؤلاء الفرنج بالوزير اختصاص بحيث آثروه علـى السلطـان ، فدعاهم لخلع طاعة السلطان أبي الربيع وبيعة عبد الحق بن عثمان بـن محمد ابن عبد الحق كبير القرابة وأسد الاعياص فأجابوه وبايعوا له وتم أمرهـم ، ولما كان يوم السبت الثالث والعشرون من ربيع الآخر من سنة عشر وسبعمائة فر الوزير المذكور وقائده الفرنجي ومن شايعهم على رأيهم فخرجوا الى ظاهر البلد الجديدة وجاهروا بالخلعان وأقاموا الآلة والرسم وبايعوا سلطانهم عبد الحق على عيون الملا وعسكروا بالعدوة القصوى من سبـو ، ثم ساروا الـى ناحية تازا ولما استقروا برباطها أخذوا في جمع الجيوش ومكاتبة الخاصة من بني مرين والعرب يدعونهم الى بيعة سلطانهم والمشايعة لهم على رأيهم وأوفدوا على أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان يدعونـه الـى المظاهرة على أمرهم واتصال اليد والمدد بالعسكر والمال ، فتوقف أبو حمو ولم يقدم ولم يحجم وبقي ينتظر عماذا ينجلي أمرهم ، واتصـل خبر ذلـك كله

بالسلطان أبي الربيع فنهض اليهم وقدم بين يديه يوسف بن عيسى الحشمي وعمر بن موسى الفودودي في جيش كثيف من بني مرين ، وسار هو في ساقتهم واتصل خبر خروجه بعبد الحق بن عثمان ووزيره فانكشفوا عن تازا ولحقوا بتلمسان ، وكانوا يظنون أن السلطان لايخرج اليهم وحمد أبو حمو عاقبة توقفه عن نصرهم ويئسوا هم من صريخه اياهم ، ولما ضاقت عليهم الارض بما رحبت أجاز عبد الحق بن عثمان ووزيره الى الاندلس ورجع الحسن بن علي ومن معه الى السلطان أبي الربيع بعد أن أخذ منه الامان وهلك رحو بن يعقوب بالاندلس لمدة قريبة ، ولما احتل السلطان أبو الربيع بتازا حسم الداء ومحا أثر الشقاق وأثخن في حاشية الخوارج وشيعتهم بالقتل والسبي ، ثم اعتل أياما أثناء ذلك فتوفي بتازا بين العشاءين ليلة الاربعاء منسلخ جمادى الاخيرة من سنة عشر وسبعمائة ودفن من ليلته تلك بصحن الجامع الاعظم من تازا رحمه الله

***

الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

كان هذا السلطان من أهل العلم والحلم والعفاف جوادا متواضعا متوقفا في سفك الدماء لقبه : السعيد بفضل الله وأمه حرة اسمها عائشة بنت الامير ابي عطية مهلهل بن يحيى الخلطي ، ولما هلك السلطان أبو الربيع بتازا في التاريخ المتقدم تطاول للامر عمه أبو سعيد الاصغر وهو عثمان بن السلطان يوسف وخب في ذلك ووضع وأسدى وألحم فلم يحصل على شيء

واجتمع الوزراء والمشيخة بالقصر بعد هدأة من الليل وتفاوضوا في أمرهم حتى وقع اختيارهم على أبي سعيد الاكبر وهو عثمان بن السلطان يعقوب بن عبد الحق فاستدعوه فحضر. فبايعوه ليلتئذ ، وتم أمره وأنفذ كتبه الى النواحي والجهات باقتضاء البيعة وسرح ابنه الاكبر الامير أبا الحسن علي بن عثمان الى فاس فدخلها غرة رجب من سنة عشر وسبعمائة وملك قصر الخلافة بالحضرة

واحتوى على أمواله وذخيرته ، وفي غد ليلته أخذت البيعة للسلطان أبي سعيد بمشهد كافة بني مرين وسائر زناتة والعرب والعسكر والحاشية والموالي والصنائع والعلماء والصلحاء ونقباء الناس وعرفائهم والخاصة والدهماء ، فقام بالامر واستوسق له الملك وفرق الاعطيات وأسنى الجوائز وتفقد الدواوين ورفع الظلامات وحط المغارم والمكوس وسرح السجون ورفع عن أهل فاس ما كان يلزم رباعهم من الوظائف المخزنية في كل سنة فصلح حال الناس في أيامه

ثم ارتحل لعشرين من رجب من السنة فدخل حضرة فاس فاستقر بها وقدم عليه وفود التهنئة من جميع بلاد المغرب ، ثم خرج في ذي القعدة الى رباط الفتح لتفقد الاحوال والنظر في أمور الرعية وانشاء الاساطيل الجهادية فعيد هنالك عيد الاضحى وباشر أمور الناس وأمر بانشاء الاساطيل بدار الصناعة من سلا برسم جهاد الفرنج ، ثم رجع الى فاس فعقد سنة احدى عشرة وسبعمائة لاخيه الامير أبي البقاء يعيش على ثغور الاندلس الجزيرة ورندة وما اليهما من الحصون ، ثم نهض سنة ثلاث عشرة وسبعمائة الى ناحية مراكش لما كان بها من اختلال الاحوال وخروج عدى بن هنو الهسكوري ونقضه للطاعة فنازله السلطان أبو سعيد وحاصره مدة ثم اقتحم عليه حصنه عنوة وقبض عليه وبعثه موثقا في الحديد الى فاس فأودعه المطبق وقفل راجعا الى حضرته فاحتل بها مؤيدا منصورا والله تعالى أعلم

غزو السلطان أبي سعيد ناحية تلمسان

كان بنو مرين قد حقدوا على أبي حمو صاحب تلمسان من أجل توقفه في أمر عبد الحق بن عثمان ووزيره رحو بن يعقوب الوطاسي وتسهيله الطريق لهم الى الاندلس ومداهنته في ذلك ، وكان مقتضى الصلح المنعقد بينه وبين السلطان أبي الربيع أن يقبض عليهم ويبعث بهم اليه حالا فحقد بنو مرين على أبي حمو ووجدوا في أنفسهم عليه ، ولما أفضى الامر الى السلطان أبي سعيد

واستوسق ملكه ودوخ الجهات المراكشية وفرغ من شأن المغرب اعتزم على غزو تلمسان فنهض اليها سنة أربع عشرة ، ولما انتهى الى وادى ملوية قدم ابنيه الاميرين أبا الحسين وأبا على فى عسكرين عظيمين فى الجناحين وسار هو فى ساقتهما فدخل بلاد بنى عبد الواد على هذه التعبية فاكتسح نواحيها واصطلم نعمتها ثم نازل وجدة فقاتلها قتالا شديدا فامتنعت عليه ، ثم نهض الى تلمسان فنزل بالملعب من ساحتها وتحصن أبو حموا بالاسوار وغلب السلطان أبو سعيد على معاقلها وسائر ضواحيها فحطمها حطما ونسفها نسفا ودوخ جبال بنى يزناسن وأثخن فيهم ، وانتهى فى قفوله الى وجدة ففر أخوه أبو البقاء يعيش وكان فى معسكره من أجل استرابة لحقته من السلطان وسار الى تلمسان فنزل على أبى حمو ورجع السلطان أبو سعيد على التعبية فانتهى الى تازا فأقام بها وبعث ابنه الامير أبا على الى فاس فكان من خروجه عليه ما نذكره

خروج الامير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد والسبب في ذلك

كان للسلطان أبى سعيد ولدان أحدهما وهو الاكبر من أمته الحبشية وهو أبو الحسن على بن عثمان ، وثانيهما وهو الاصغر من علجة من سبى الفرنج وهو أبو على عمر بن عثمان وكان هذا الاصغر أعلق بقلب السلطان وأحبهما اليه ، ولما استولى على ملك المغرب رشحه لولاية العهد وهو شاب لم يطر شاربه ووضع له ألقاب الامارة وصير معه الجلساء والخاصة والكتاب وأمره باتخاذ العلامة فى كتبه ولم يدخر عنه شيئا من مراسم الرياسة والملك وعقد على وزارته لابراهيم بن عيسى اليرينانى من كبار الدولة ووجوهها ، وكان أخوه الاكبر أبو الحسن شديد البرور بأبيه فلما رأى اقبال أبيه على أخيه على انحاش هو أيضا اليه وصار فى جملته وخلط نفسه بحاشيته طاعة لابيه ومسارعة فى هواه واستمرت حال الامير أبى على على هذا وخاطبه ملوك النواحى وخاطبهم وهادوه وهاداهم وعقد الرايات وأثبت فى الديوان ومحا وزاد فى العطاء ونقص

وكان يستبد بالامر كله

وقد قفل السلطان أبو سعيد من تلمسان أواخر سنة أربع عشرة وسبعمائة أقام بتازا وبعث ولديه الى فاس فلما استقر الامير أبو علي بها حدثته نفسه بالقيام على أبيه وخلع طاعته ، فراوده المداخلون له على التربص حتى يمكر بأبيه ويقبض عليه باليد فأبى واستعجل الامر وركب الخلاف وجاهر بالخلعان ، ودعا لنفسه فأطاعه الناس ولم يتوقفوا عنه لما كان أبوه جعل اليه من أمرهم ، وعسكر بساحة البلد الجديد يريد غزو أبيه ، فبرز السلطان أبو سعيد من تازا في عسكره يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ثم بدا للامير أبي علي في وزيره ابراهيم بن عيسى وعزم على القبض عليه لانه بلغه أنه يكاتب أباه فبعث للقبض عليه عمر بن يخلف الفودودي ، وتفطن الوزير لما أراده من المكر به فقبض هو على الفودودي ونزع الى السلطان أبي سعيد فتقبله ورضي عنه ، وكان الامير أبو الحسن قد لحق بأبيه قبل ذلك نازعا عن جملة أخيه فقوى جناح السلطان بهما وارتحل الى لقاء ابنه أبي علي ، ولما تراآ الجمعان بالقرمدة ما بين فاس وتازا اختل مصاف السلطان وانهزم جريحا الى تازا فتبعه ابنه أبو علي وحاصره بها ، ويقال أن أبا الحسن انما لحق بأبيه بعد المحنة ثم سعى الخواص بين السلطان وابنه أبي علي بالصلح على أن يخرج له السلطان عن الامر ويقتصر على تازا وجهاتها فقط ، فرضي السلطان بذلك وشهد الملا من مشيخة العرب وزناتة وأهل الامصار واستحكم العقد بينهما وانكفأ الامير أبو علي راجعا الى حضرة فاس مملكا على المغرب وتوافت اليه بيعات الامصار ووفودهم واستوسق أمره

ثم تدارك الله السلطان أبا سعيد بلطفه ورد عليه حقه من حيث لايحتسب وذلك أن الامير أبا علي اعتل عقب وصوله الى فاس واشتد وجعه حتى أشرف على الهلاك وخشي الناس على أنفسهم اختلال الامر بموته فتسايلوا الى والده السلطان أبي سعيد بتازا ولحق به سائر خواص الدولة وحملوه على تلافي الامر وانتهاز الفرصة ، فنهض من تازا واجتمع اليه كافة بني مرين والجند وعسكر على البلد الجديد وأقام محاصرا له وابتنى دارا لسكناه وجعل لابنه الامير أبي الحسن ما كان لاخيه أبي علي من ولاية العهد وتفويض الامر ولما تبين للامير

أبي علي اختلال أمره بعث الى أبيه في الصلح على أن يعوض سجلماسة وما والاها فأجيب الى ذلك ووفى له السلطان بما اشترط وارتحل الى سجلماسة سنة خمس عشرة وسبعمائة فأقام بها دولة فخيمة واستولى على بلاد القبلة ودون الدواوين واستلحق واستركب واستخدم ظواعن العرب من بنى معقل وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات وتيكرارين وتامنطيت وغير ذلك .

وأما السلطان أبو سعيد فانه دخل الى فاس الجديد ونزل بقصره وأصلح شؤون ملكه وأنزل ابنه الامير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره وفوض اليه في سلطانه تفويض الاستقلال وأذن له في اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة على كتبه وسائر ما كان لاخيه ووفدت عليه بيعات الامصار بالمغرب ورجعوا الى طاعته ، وفي سنة خمس عشرة وسبعمائة أمر السلطان أبو سعيد ببناء الباب أمام القنطرة من الجزيرة الخضراء ثم بعد ذلك أدار الستارة بالمدينة المذكورة وفيها سار الى مراكش فأقام بها أياما حتى أصلح شؤونها وعاد الى الحضرة .

وفي سنة ثمان عشرة وسبعمائة نكب السلطان أبو سعيد كاتبه منديل بن محمد الكناني وكان السبب في ذلك أنه لما ثار الامير أبو علي على أبيه وخلعه انحاش اليه منديل هذا ثم لما اختل أمر أبي علي عاد منديل الى السلطان أبي سعيد وترتب في منزلته التي كان عليها قبل وكان الامير أبو الحسن يحقد عليه لاجل انحياشه الى أخيه لما كان بينهما من المنافسة وكان هو كثيرا ما يوعز صدر أبي الحسن بايجاب حق أخيه عليه وامتهانه في خدمته ، فطوى له أبو الحسن على البث حتى اذا فصل أبو علي الى سجلماسة وانفرد أبو الحسن بمجلس أبيه وخلاله وجهه أحكم السعاية في منديل عند أبيه وكان منديل كثيرا ما يغضب السلطان في المحاورة والخطاب دالة عليه وكبرا ، فاعتد السلطان عليه بشيء من ذلك مع ما كان ابنه أبو الحسن يغريه به فسخطه سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، وأذن لابنه أبي الحسن في نكبته فاعتقله واستصفى أمواله وطوى ديوانه وامتحنه أياما ثم قتله بمحبسه خنقا وقيل جوعا وذهب في الذاهبين ، وأبوه أبو عبد الله محمد الكناني هو الذي بعثه السلطان يعقوب بن عبد الحق الى المستنصر الحفصي عند فتح مراكش وعاد اليه منه بالهدية صحبة وفد أهل تونس وتلطف أبو عبد

الله الكنانى حتى ذكر المستنصر فى الخطبة على منبر مراكش وفرح الوفـد بذلك حسبما تقدم الخبر عنه مستوفى ، ونشأ ابنه منديل هذا فى ظل الدولة المرينية فكان من أمره ما قصصناه عليك

وفادة أهـل الاندلس على السلطان ابي سعيد
واستصراخهم اياه على الطاغية وما نشأ عن ذلك

كان الملوك من بنى مرين قد انقطع غزوهم عن الاندلس برهة من الدهر منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب لاشتغاله فى آخر أمره بحصار تلمسان واشتغال حفدته من بعده بأمر المغرب مع قصر مدتهم فتطاول العدو وراء البحر على المسلمين بسبب هذه الفترة واشتد كلبه على ثغورها مع أن القرابة من بنى مرين كانوا شجى فى صدره وقذى فى عينيه فى تلك البلاد حسبما ألمعنا اليه غير مرة ، ولما أفضى الامر الى السلطان أبى سعيد اشتغل فى صدر دولته بأمر ابنه أبى على وخروجه عليه، فاهتبل الطاغية الغرة فى الاندلس وزحف فى جموعه الى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، وكان من خبر هذه الوقعة أن الطاغية بطرة ابن سانجة ويقال دون بطرة وقد نبهنا على لفظة دون فيما سبق ذهب الى طليطلة ودخل على مرجعهم الذى يقال له البابا وسجد له وتضرع بين يديه وطلب منه استئصال ما بقى من المسلمين بأرض الاندلس وأكد عزمه وتأهب لذلك غاية الاهبة ، فوصلت أثقاله ومجانيقه وآلات الحصار والاقوات فى المراكب وتقدم فى جموعه حتى نزل بأحواز غرناطة وكان رديفه فى ذلك الجند علجاً آخر يقال له جوان وانضم اليهم ملوك آخرون من ملوك الاطراف قيل سبعة وقيل أكثر وامتلأت الارض بهم وعزموا على استئصال بقية المسلمين بالاندلس ، وكان جيشهم فيما قيل يشتمل على خمسة وثلاثين ألفا من الفرسان وعلى نحو مائة ألف من الرجالة المقاتلة

ولما رأى أهل الاندلس ذلك بعثوا صريخهم الى السلطان أبي سعيد فقدم عليه وفدهم بحضرته من فاس وفيهم من وجوه الاندلس وصلحائها الشيخ أبو عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي والشيخ أبو اسحق بن أبي العاص وغيرهم فاعتذر اليهم السلطان أبو سعيد بمكان عثمان بن أبي العلاء من دولتهم ومحله من دار ملكهم ، وكان عثمان بن أبي العلاء يتولى يومئذ مشيخة الغزاة بالاندلس لان وفاته تأخرت الى سنة ثلاثين وسبعمائة حسبما مر فشرط عليهم السلطان أبو سعيد أن يمكنوه منه ليتأتى له العبور الى تلك البلاد وجهاد العدو بها من غير تشويش ، وقال ادفعوه الينا برمته حتى يتم أمر الجهاد ثم نرده عليكم حياطة على المسلمين وخشية من تفريق كلمتهم ، فاستصعب أهل الاندلس هذا الشرط لما يعلمونه من صرامة عثمان بن أبي العلاء وادلاله ببأسه وبأس عشيرته فأخفق سعيهم ورجعوا منكسرين ، وأطالت الفرنج المقام على غرناطة وطمعوا في التهامها

ثم ان الله تعالى نفس عن مختنقهم ودافع بقدرته عنهم وهيأ لعثمان بن أبي العلاء في الفرنج واقعة كانت من أغرب الوقائع ، وذلك أنه لما كان يوم المهرجان وهو الخامس من جمادى الاولى من سنة تسع عشرة وسبعمائة عمد عثمان بن أبي العلاء الى جماعة جنده واختار من أنجاد بني مرين منهم نحو المائتين وقيل أكثر وتقدم بهم نحو جيش الفرنج فظن النصارى أنهم انما خرجوا لامر غير القتال من مفاوضة أو ابلاغ رسالة أو نحو ذلك حتى اذا سامتوا موقف الطاغية ورديفه جوان صمموا نحوهما حتى خالطوهما في مراكزهما فصرعوهما في جملة من الحاشية وانهزم ذلك الجمع من حينه وولوا الادبار واعترضهم من ورائهم مسارب الماء للشرب على نهر شنيل فتطارحوا فيها وهلك أكثرهم واكتسحت أموالهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وخرج أهل غرناطة لجمع الاموال وأخذ الاسرى فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب فيما قيل ثلاثة وأربعون قنطارا ومن الفضة مائة وأربعون قنطارا ومن السبي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين الى الديار المصرية وكان من جملة الاسارى امرأة الطاغية وأولاده فبذلت في نفسها مدينة طريف وجبل

الخيم وثمانية عشر حصنا فيما حكى بعض المؤرخين فلم يقبل المسلمون ذلك ، وقت : ، هذا خطأ في الرأى وضعف في السياسة » قالوا : وزادت عدة القتلى فى هذه الغزوة على خمسين ألفاء ويقال: «انه هلك منهم بالوادى مثل هذا العددلعدم معرفتهم بالطريق ، واما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون وقتل الملوك سبعة جميعهم ، وقيل خمسة وعشرون واستمر البيع في الاسرى والسبي والدوا بستة أشهر ، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم الى سائر البلاد ، ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين سوى ثلاثة عشر نفسا وقيل عشرة أنفس وسلخ الطاغية بطرة وحشي جلده قطنا وعلق على باب غرناطة وبقى معلقا سنين وطلبت النصارى الهدنة فعقدت لهم والله تعالى أعلم

انتقاض الامير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد وما نشأ عن ذلك

لما كانت سنة عشرين وسبعمائة انتقض الامير أبو علي صاحب سجلماسة والصحراء على أبيه السلطان أبي سعيد وتغلب على درعة وسما الى طلب مراكش فعقد السلطان أبو سعيد على حربه لاخيه الامير أبي الحسن وأغزاه اياه ، ثم نهض على أثره فاحتل بمراكش وثقف أطرافها وحسم عللها وعقد عليها لكندوز ابن عثمان من صنائع دولتهم وقفل الى الحضرة ، ثم لما كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة نهض الامير أبو علي فى جموعه من سجلماسة وأغذ السير الى مراكش فاقتحمها بعساكره قبل أن يجتمع لكندوز أمره وتقبض عليه وضرب عنقه ورفعه على القناة وملك مراكش وسائر ضواحيها

وبلغ الخبر الى السلطان أبي سعيد فخرج من حضرته فى عساكره بعد أن احتشد وأزاح العلل واستوفى الاعطيات وقدم بين يديه ابنه الامير أبا الحسن ولي عهده وجاء هو على ساقته وساروا على هذه التعبية ، ولما انتهوا الى وادى ملوية اتصل بهم الخبر أن أبا علي يريد أن يبيتهم فأسهروا ليلتهم وباتوا على ظهور خيلهم وبعد مضى جزء من الليل طرقهم أبو علي في جموعه فكانت الدبرة

عليه وفل عسكره وارتحلوا من الغد في أثره وكان قد سلك جبل درن فافترقت جنوده في أوعاره ولحقهم من المشاق ما يفوت الوصف حتى ترجل الامير أبو علي عن فرسه وسعى على قدميه وخلص من ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق ولحق بسجلماسة ومهد السلطان أبو سعيد نواحي مراكش وعقد عليها لموسى بن علي الهنتاتي فعظم غناؤه في ذلك واضطلاعه وامتدت أيام ولايته ، وارتحل السلطان الى سجلماسة فدافعه الامير أبو علي بالخضوع ورغب اليه في الصفح والرضا والعود الى السلم فأجابه السلطان الى ذلك لما كان قد شغفه من حبه فقد كان يوثر عنه من ذلك غرائب ورجع الى الحضرة وأقام الامير أبو علي بمكانه من مملكة القبلة الى أن هلك السلطان أبو سعيد وتغلب عليه أخوه السلطان أبو الحسن كما نذكره ان شاء الله

بناء مدارس العلم بحضرة فاس حرسها الله

قد تقدم لنا أن السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله كان قد بنى مدرسته التي بفاس مع غيرها مما سبق التنبيه عليه، ووقف عليها كتب العلم التي بعث بها اليه الطاغية سانجة عند عقد الصلح معه ووقف عليها غير ذلك ، واقتفى أثره في هذه المنقبة الشريفة بنوه من بعده فاستكثروا من بناء المدارس العلمية والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف المغلة وأجروا على الطلبة بها الجرايات الكافية ، فأمسكوا بسبب ذلك من رمق العلم وأحيوا مراسمه وأخذوا بضبعيه جزاهم الله عن نيتهم الصالحة خيرا .

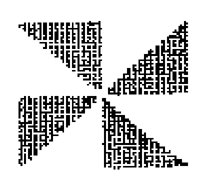
ولما كانت سنة عشرين وسبعمائة أمر السلطان أبو سعيد رحمه الله ببناء المدرسة التي بفاس الجديد فبنيت أتقن بناء وأحسنه ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والفقهاء لتدريس العلم وأجرى عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر ، وحبس عليها الرباع والضياع ابتغاء ثواب الله ورغبة فيما عنده

وفي سنة احدى وعشرين بعدها بنى ولي عهده الامير أبو الحسن المدرسة

اسى بغربى جامع الاندلس من حضرة فاس فجاءت على أكمل الهيآت وأعجبها وبنى حولها سقاية ودار الوضوء وفندقا لسكنى طلبة العلم وجلب الماء الى ذلك كله من عين خارج باب الجديد أحد أبواب فاس وأنفق على ذلك أموالا جليلة تزيد على مائة ألف دينار ، وشحنها بطلبة العلم وقراء القرآن وحبس عليها رباعا كثيرة ورتب فيها الفقهاء للتدريس وأجرى عليهم الانفاق والكسوة نفعه الله بقصده .

وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة فى فاتح شعبان منها أمر السلطان أبو سعيد أيضا ببناء المدرسة العظمى بازاء جامع القرويين بفاس وهى المعروفة اليوم بمدرسة العطارين ، فبنيت على يد الشيخ أبى محمد عبد الله بن قاسم المزوار وحضر السلطان أبو سعيد بنفسه فى جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتىأسست وشرع فى بنائها بمحضره ، فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول بحيث لم يبن ملك قبله مثلها ، وأجرى بها ماء معينا من بعض العيون هنالك وشحنها بالطلبة ورتب فيها اماما ومؤذنين وقومة يقومون بأمرها ورتب فيها الفقهاءلتدريس العلم وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية ، واشترى عدة أملاك ووقفها عليها احتسابا بالله تعالى ، وسياتى التنبيه على ما بناه ابنه أبو الحسن من ذلك أيام ولايته وحافده أبو عنان وغيرهما ان شاء الله ، وبالجملة ، فقد كان لبنى مرين جنوح الى الخير ومحبة فى العلم وأهله تشهد بذلك آثارهم الباقية الى الآن فى مدارسهم العلمية وغيرها ، وفى مثل ذلك يحسن أن ينشد :

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان



أخبار بني العزفي أصحاب سبتة

قد تقدم لنا أن الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل بن الاحمر صاحب مالقة كان قد غدر بأهل سبتة وقبض على رؤسائها من بني العزفي ، وغر بهم الى غرناطة سنة خمس وسبعمائة فاستقروا هنالك في ايالة السلطان ابن الاحمر المعرف بالمخلوع مدة ولما استولى السلطان أبو الربيع المريني على سبتة ونفى بني الاحمر عنها استأذنه بنو العزفي في الرجوع الى المغرب والقدوم عليه فأذن لهم واستقروا بفاس وكان أبوزكرياء يحيى وأبو زيد عبد الرحمن ابنا أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم محمد بن أبي العباس أحمد العزفي من سرواتهم وأهل المروءة والدين فيهم وكانوا يغشون مجالس العلم بمسجد القرويين من فاس لما كانوا عليه من انتحاله، وكان السلطان أبو سعيد أيام ولاية بني أبيه من قبله يحضر مجلس الشيخ الفقيه أبي الحسن الصغير وكان أبو زكرياء يحيى بن أبي طالب يلازمه ويتودد اليه فاتصل به وصارت له بذلك وسيلة عنده ، فلما أفضى الامر الى السلطان أبي سعيد رعى لبني العزفي تلك الوسيلة فأنعم عليهم وعقد لابي زكرياء منهم على سبتة وردهم الى موطن سلفهم ومقر رياستهم فقدموها سنة عشر وسبعمائة ، وأقاموا فيها دعوة السلطان أبي سعيد والتزموا طاعته

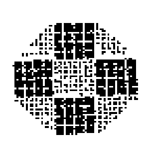
ولما فوض السلطان أبو سعيد الى ابنه أبي علي الامر وجعل له الابرام والنقض عقد أبو علي على سبتة لابي زكرياء حيون بن أبي العلاء القرشي وعزل أبا زكرياء يحيى بن أبي طالب منها واستقدمه الى فاس فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمه أبو حاتم واستقروا في جملة السلطان وهلك أبو طالب بفاس أثناء تلك المدة * ثم كان من خروج الامير أبي علي على أبيه وانتقاضه عليه ما قدمناه فلحق أبو زكرياء بن أبي طالب وأخوه أبو زيد بالسلطان أبي سعيد نازعين اليه ومفارقين لابنه الثائر عليه واستمروا في جملته الى أن مرض الامير أبو علي

---

* في شعبان عام ثلاثة عشر وسبعمائة كما في الجذوة

وزحف أبوه اليه وحاصره بفاس حسبما مر ، فحينئذ عقد السلطان أبو سعيد لابي زكرياء على سبتة ثانيا وبعثه اليها ليقيم دعوته فى تلك الجهات وترك ابنه محمد بن أبى زكرياء تحت يده رهنا على الطاعة فاستقل أبو زكرياء بامارتهـا وأقام دعوة السلطان أبى سعيد بها واتصل ذلك منه نحو سنتين، ثم هلك عمه أبو حاتم بسبتة سنة ست عشرة وسبعمائة وانتقض أبو زكرياء بن أبى طالب علـى السلطان أبى سعيد ورجع الى حال سلفه من الاستبداد واقامة الشورى بالبلـد واستقدم من الاندلس عبد الحق بن عثمان الذى كان خرج على السلطان أبى الربيع مع الوزير عبد الرحمن الوطاسى فقدم عليه وعقد له على الحرب ليفرق به كلمة بنى مرين بالمغرب ويوهن بأسهم فتخفف عليه وطأتهم

واتصل ذلك كله بالسلطان أبى سعيد فقام وقعد وجهز الى سبتة العساكر من بنى مرين وعقد على حربها للوزير ابراهيم بن عيسى اليرينانـى فزحـف اليها وحاصرها فاعتذر اليه أبو زكرياء بحبس ابنه عنه ومفارقته له وانه اذا رجع اليه ابنه بذل الطاعة وراجع الدعوة فأعلم الوزير السلطان بذلـك فبعث اليه بالولـد ليسلمه الى أبيه بعد أن يقتضى منه موجبات الطاعة وأسبابها وجاء الخبر الى أبى زكرياء بان ابنه قد قدم وانه كائن بفسطاط الوزير بساحل البحر بحيث تتأتى الفرصة فى أخذه فبعث أبو زكرياء الى عبد الحق بن عثمان قائد الحرب وأعلمه بمكان ابنه فواطأه عبد الحق على انتزاعه منهم ، ثم هجم ليلا فى جماعـة مـن حاشيته على فسطاط الوزير فاحتمل الولد وأصبح به عند أبيه وسمع أهل عسكر الوزير بالهيعة فركبوا وتبعوا الاثر فلم يقفوا على خبر وتفقد الوزير الولد الذى كان عنده فلم يجده واتهم الجيش الوزير بانه مالأ شيعة أبيه على أخذه والا فلا يقدم أحد هذا الاقدام بدون مداخلة من بعض الجيش فقبضوا علـى الوزيـر وحملوه الى السلطان ابلاء فى الطاعة وابلاغا فى العذر فشكر لهم ذلك واطلق الوزير لعلمه براءته ونصحه



ثم رغب أبو زكرياء بعدها في رضا السلطان وطاعته وولايته فنهض السلطان أبو سعيد رحمه الله سنة ست عشرة الى طنجة لاختبار طاعة أبي زكرياء فبان له صدقه وعقد له على سبتة واشترط هو على نفسه حمل الجباية الى السلطان واسناء الهدية في كل سنة واستمر الحال على ذلك الى أن هلك أبو زكرياء سنة عشرين وسبعمائة وقام بالامر بعده ابنه محمد بن أبي زكرياء الى نظر ابن عمه محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم شيخ قرابتهم ، وكان قائد الاساطيل بسبتة ولي النظر فيها بعد أن نزع القائد يحيى الرنداحي الى الاندلس وتغلب محمد بن علي هذا بسبتة واختلفت كلمة الغوغاء واضطرب الامر على بني العزفي بها

فانتهز السلطان أبو سعيد الفرصة فيها وأجمع النهوض اليها فنهض سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ونزل عليها فبادر أهل سبتة بايتاء طاعتهم وعجز محمد ابن أبي زكرياء عن المناهضة وظنها محمد بن علي من نفسه فتعرض للامر في أوغاد من لفيفها اجتمعوا اليه فدافعهم الملا من أهل سبتة عن ذلك وحملوهم على الطاعة واقتادوا بني العزفي الى السلطان أبي سعيد فانقادوا اليه واحتل السلطان بقصبة سبتة وثقف جهاتها ، ورم منثلمها وأصلح خللها واستعمل كبار رجالاته وخواص مجلسه في أعمالها ، فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله السدراتي على حاميتها وعقد لابي القاسم بن أبي مدين العثماني على جبايتها والنظر في مبانيها واخراج الاموال للنفقات فيها ، وأسنى جوائز الملا من مشيختها ووفر اقطاعاتهم وجراياتهم وأوعز ببناء البلد المسمى افراك على سبتة فشرعوا في بنائها سنة تسع وعشرين وسبعمائة وانكفأ راجعا الى حضرته ، وقد ذكر ابن الخطيب في كتاب الاكليل محمد بن أبي زكرياء هذا فقال فيه ما صورته : « فرع تأود من الرياسة في دوحة وتردد بين غدوة في المجد وروحة نشأ والرياسة العزفية تعله وتنهله والدهر ييسر أمله الاقصى ويسهله حتى اتسقت أسباب سعده وانتهت اليه رياسة سلفه من بعده فألقت اليه رحالها وحطت ومتعته بقربها بعد ما شطت ثم كلح له الدهر بعد ما تبسم وعاد زعزعا نسيمه الذي كان تنسم وعاق هلاله عن تمه ما كان من تغلب ابن عمه واستقر بهذه البلاد نازح الدار بحكم

لاعداد وان كان نبيه المكانة والمقدار وجرت عليه جراية واسعة ورعاية متتابعة . »
الى آخر كلامه ويعنى بقوله هذه البلاد بلاد الاندلس والله أعلم

المصاهرة بين السلطان أبي سعيد في ابنه أبي الحسن
وبين أبى بكر بن أبى زكرياء الحفصى والسبب فى ذلك

كان أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبى حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان قد ضايق بنى أبى حفص أصحاب تونس وافريقية فى بلادهم واستولى على كثير من ثغورهم وردد البعوث والسرايا الى أطراف ممالكهم وفى سنة تسع وعشرين وسبعمائة جهز أبو تاشفين اليهم جيشا كثيفا وعقد عليه ليحيى بن موسى من صنائع دولته ، ونصب مع ذلك للملك تونس وافريقية بعض أعقاب الحفصيين وهو محمد بن أبى عمران كان لجأ اليه فى بعض الفتن التى كانت له مع بنى عمه ، وتقدم هذا الجيش الى أبى بكر بن أبى زكرياء الحفصى فهزموه واقتحموا مدينة تونس فاستولوا عليها ونصبوا لملكها والولاية عليها محمد بن أبى عمران المذكور، ليس له من الملك الا الاسم، والامر كله بيد يحيى ابن موسى قائد الجيش ، وخلص السلطان أبو بكر بن أبى زكرياء الحفصى الى بونة جريحا مطرودا عن كرسى ملكه ودار عزه فعزم حينئذ على الوفادة على السلطان أبى سعيد المرينى ليأخذ له حقه من آل يغمراسن المتغلبين عليه وأرادمع ذلك تجديد الوصلة التى كانت لسلفه مع بنى مرين فأشار عليه حاجبه محمد بن سيد الناس بانفاذ ابنه الامير أبى زكرياء صاحب الثغر استنكافا له عن مثلها فقبل اشارته وأركب ابنه المذكور البحر وبعث معه وزيره أبا محمد عبد الله بن تافراجين نافضا أمامه طرق المقاصد والمحاورات ونزلوا بمرسى غساسة من ساحل المغرب وقدموا على السلطان أبى سعيد بحضرته فأبلغوه رسالة أبى بكر الحفصى فاهتز لذلك هو وابنه الامير أبو الحسن وقال لوفد الحفصيين :

« والله لابذلن فى مظاهرتكم مالى وقومى ونفسى ولا سيرن بعساكرى الى

تلمسان فأنازلها » وكان فيما شرط عليهم السلطان أبو سعيد مسير أبي بكر الحفصي بعساكره الى منازلة تلمسان معه فقبلوا وانصرفوا الى منازلهم مسرورين

ونهض السلطان أبو سعيد الى تلمسان سنة ثلاثين وسبعمائة ولما انتهى الى وادي ملوية وعسكر بصبرة جاءه الخبر اليقين بعود أبي بكر الحفصي الى تونس وجلوسه على كرسيه بها فاستدعى السلطان أبو سعيد ابنه أبا زكرياء ووزيره أبا محمد بن تافراجين وأعلمهما الخبر وأسنى جوائزهم وأمرهم بالانصراف الى صاحبهم فركبوا أساطيلهم من غساسة

وبعث معهم ابراهيم بن أبي حاتم العزفي والقاضي بحضرته أبا عبد الله بن عبد الرزاق يخطبون بنت السلطان أبي بكر الحفصي لابنه الامير أبي الحسن فوصلوا الى الحفصي وأدوا الرسالة وانعقد الصهر بينهم في ابنته فاطمة شقيقة الامير أبي زكرياء وزفها اليهم في أساطيله مع مشيخة الموحدين وكبيرهم أبي القاسم بن عتو ، فوصلوا الى مرسى غساسة سنة احدى وثلاثين وسبعمائة فقام بنو مرين لها على أقدام البر والكرامة وبعثوا بالظهر الى غساسة لركوبها وحمل أثقالها ، وصيغت حكمات الذهب والفضة ومدت ولايا الحرير المغشاة بالذهب واحتفل السلطان أبو سعيد رحمه الله لوفدها وأعراسها بما لم يسمع بمثله في دولتهم وتحدث الناس به دهرا وهلك السلطان أبو سعيد بين يدي موصلها كما تذكر

وفاة السلطان أبي سعيد بن يعقوب رحمه الله

كان السلطان أبو سعيد رحمه الله لما بلغه الخبر بوصول العروس فاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي سنة احدى وثلاثين وسبعمائة ارتحل بنفسه الى تازا ليشارف أحوالها كرامة لها ولابيها وسرورا بعرس ابنه فاعتل هنالك وازداد مرضه حتى اذا أشفا على الهلكة ارتحل به ولي العهد الامير أبو الحسن الى الحضرة ، وحمله في فراشه على أكتاد الحاشية والجند حتى نزل بوادي

سبوا ، ثم أدخله كذلك ليلا الى قصره فأدركته المنية في طريقه فتوفى ليلة الجمعة الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة احدى وثلاثين وسبعمائة ، وكان مرضه بعلة النقرس فوضعوه بمكانه من بيته واستدعى ابنه أبو الحسن الصالحين لمواراته فدفن(*) ببعض قبابه رحمه الله وكانت أيامه أعيادا ومواسم ، ومن أكابر كتابه الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى السبتى

الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله ابى الحسن على ابن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

هذا السلطان هو أفخم ملوك بنى مرين دولة وأضخمهم ملكا وأبعدهم صيتا وأعظمهم أبهة وأكثرهم آثارا بالمغربين والاندلس ، ويعرف عند العامة بالسلطان الاكحل لان أمه كانت حبشية*فكان أسمر اللون والعامة تسمى الاسمر والاسود أكحل وانما الاكحل فى لسان العرب أكحل العينين فقط ، وكان أخوه أبو على لمملوكة من سبى النصارى فكان أبيض وانضاف لذلك أن كان أبو الحسن ملكا على الحضرة وأبو على ملكا على بلاد القبلة فكانا أخوين ملكين فى عصر واحد أحدهما أسمر والآخر أبيض فعرف هذا بالاكحل والآخر بالابيض للمقابلة

ولما هلك السلطان أبو سعيد رحمه الله اجتمع الخاصة من المشيخة ورجالات الدولة على ولى عهده أبى الحسن المذكور وعقدوا له على أنفسهم وآتوه طاعتهم فأمر للحين بنقل معسكره من ناحية سبو الى الزيتون من ناحية فاس ، ولما فرغ من دفن أبيه خرج الى معسكره بالمحل المذكور واجتمع الناس اليه على طبقاتهم لاداء البيعة بفسطاطه ، وتولى أخذ البيعة له يومئذ على الناس الشيخ أبو محمد عبد الله بن قاسم المزوار والمزوار فى لسان زناتة معناه الرئيس وكان هذا الرجل رئيس الوزعة والمتصرفين وحاجب الباب السلطانى قديم الولاية فى ذلك منذ

(*) الذى فى كتاب روضة النسرين فى دولة بنى مرين أنه دفن بشالة

* تسمى العنبر

عهد السلطان يوسف بن يعقوب ، ثم زفت على السلطان أبى الحسن زوجته الحفصية فبنى بها بمكانه من المعسكر المذكور وأجمع رأيه على الانتقام لابيها من عدوه أبى تاشفين الزيانى على ما نذكره

حدوث الفتنة بين الاخوين ابى الحسن وابى علي
ثم مقتل ابى علي والسبب فى ذلك

كان السلطان أبو سعيد رحمه الله لما عهد بالامر لابنه أبى الحسن وتحقق مصيره اليه كثيرا ما يستوصيه بأخيه أبى علي لكلفه به وشفقته عليه فلما خلص الامر الى أبى الحسن وكان موثرا رضا أبيه جهده اعتزم على الحركة الى سجلماسة لمشارفة أحوال أخيه واختبار أمره وما هو عليه من سلم أو حرب ليعمل على مقتضى ذلك ، فارتحل من معسكره بالزيتون قاصدا سجلماسة فلاقته وفود أخيه أبى علي أثناء الطريق مؤديا حقه وموجبا مبرته ومهنئا له بما آتاه الله من الملك ويعلمه مع ذلك بأنه متجاف عن المنازعة له قانع من تراث أبيه بما فى يده طالب منه أن يعقد له بذلك ، فأجابه السلطان أبو الحسن الى ما سأل وعقد له على سجلماسة وما والاها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيه وأشهد على ذلك الملأ من بنى مرين وسائر زناتة والعرب ، وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعا الى تلمسان عازما على الانتقام من أبى تاشفين الزيانى فسار حتى انتهى الى تلمسان ثم تجاوزها الى جهة الشرق حتى نزل بتاسالت منتظرا لقدوم صهره السلطان أبى بكر الحفصى عليه وفاء بالعهد الذى كان انعقد له مع السلطان أبى سعيد أيام وفادة ابنه ابى زكرياء عليه من انهما يكونان يدا واحدة على حصار تلمسان حتى يحكم الله بينهما وبين صاحبها فعسكر أبو الحسن بتاسالت ثم بعث بحصة من جنده فى البحر الى صهره الحفصى مددا له وهو يومئذ ببجاية يقاتل جيش بنى زيان عليها .

ولما اتصل الخبر بأبي تاشفين صاحب تلمسان فكر في أمر أبي الحسن وأعمل الحيلة بأن دس الى أخيه الامير أبي علي صاحب سجلماسة في اتصال اليد به والاتفاق معه على أخيه أبي الحسن وأن يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه ويشغله عنه حتى يتمكنا منه ووعده أبو تاشفين ومناه ولم يزل به حتى انتقض على أخيه ونهض من سجلماسة الى درعة فقتل عاملها وولى عليها عاملا من قبله ، ثم سرح العساكر الى جهة مراكش وأجلب عليها بخيله ورجله

واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن وهو بمعسكره من تاسالت ينتظرقدوم الحفصي عليه فانكفأ راجعا الى الحضرة مجمعا الانتقام من أخيه ، ولما انتهى في طريقه الى حصن تاوريرت شحنه بالعسكر وعقد عليه لابنه تاشفين بن أبي الحسن ووقف أمره على نظر منديل بن حمامة شيخ بني تيربعين ثم أغذ السير الى سجلماسة فنزل عليها وأخذ بمختنقها وحشر الفعلة والصناع لصنع الآلات والبناء بساحتها وأقام عليها يغاديها بالقتال ويراوحها حولا كاملا ونهض أبو تاشفين في عساكره من تلمسان يريد الغارة على أطراف المغرب كي يشغل أبا الحسن عن أخيه بذلك فانتهى الى تاوريرت فبرز اليه تاشفين بن أبي الحسن في عساكر مرين فهزموه وردوه على عقبه الى تلمسان ، ثم بعث بحصة من جنده مددا للامير أبي علي فتسربوا الى سجلماسة جماعات وأفذاذا حتى تكاملوا لديه فلم يغنوا شيئا وطاولهم السلطان أبو الحسن الحصار وأنزل بهم أنواع النكال حتى اقتحم البلد عنوة تاسع عشر محرم سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وتقبض على الامير أبي علي عند باب قصره وجيء به الى أخيه أبي الحسن وقد خامره الجزع فلما مثل بين يديه تضرع اليه وقبل حافر فرسه فأمر أبو الحسن بتثقيفه وحمله على بغل الى فاس وانكفأ هو راجعا الى الحضرة فلما دخلها اعتقل أخاه ببعض حجر القصر أشهرا ثم قتله فصدا وخنقا وكانت سن أبي علي يومئذ سبعا وثلاثين سنة وكانت دولته بسجلماسة تسع عشرة سنة وأشهرا وكان رقيق الحاشية ينتمي الى الادب وهو الذي استقدم أبا محمد عبد المهيمن الحضرمي من سبتة واستكتبه أيام أبيه ومن شعر الامير أبي علي يخاطب أخاه أبا الحسن أيام حصاره له بسجلماسة وقد أيقن بزوال أمره

فلايغرنك الدهر الخؤون فكسم	أباد من كان قبلى يا أبا الحسـن
الدهر مذ كان لا يبقى على صفـة	لابد من فرح فيه ومن حـزن
أين الملوك التى كانت تهابهـم	أسد العرين ثووا فى اللحد والكفن
بعد الاسرة والتيجان قد محيت	رسومها وعفت عن كل ذى حسن
فاعمل لاخرى وكن بالله مؤتمـرا	واستغن بالله فى سر وفى علـن
واختر لنفسك أمرا أنت آمـره	كأننى لم أكن يوما ولم تكـن

وفادة السلطان ابن الاحمر على السلطان ابي الحسن بحضرة فاس وفتح جبل طارق

لما هلك السلطان أبو الوليد اسماعيل بن الرئيس أبى سعيد فرج بن الاحمر المتغلب على ملك الاندلس من يد ابن عمه أبى الجيوش ، قام بالامر بعده ابنه محمد طفلا صغيرا واستبد عليه وزيره محمد بن المحروق فقتله بعد ما شب وعقل وكان الطاغية قد استولى على جبل الفتح وهو جبل طارق سنة تسع وسبعمائة وزاحم الفرنج به ثغور المسلمين وصار شجى فـى صـدر الدولتيـن المرينيـة والاحمرية واستمر الحال على ذلك الى أن بويع الامير السلطان أبو الحسـن وكان له رغبة في الجهاد اقتداء بمذهب جده يعقوب بن عبد الحق فبادر السلطان محمد بن اسماعيل بن الاحمر الى الوفادة عليه لاحكام عقد المودة معه وللمفاوضة فى أمر الجهاد وغير ذلك مما فيه صلاح لدولته فقدم عليه بدارملكه بفاس سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فأكبر السلطان أبو الحسـن موصلـه وأركـب الناس للقائه وأنزله بروض المصارة لصق داره واستبلغ فى اكرامه ، وفاوضه ابن الاحمر فى شأن المسلمين وراء البحر وما أهمهم من عدوهم وشكى اليه حال الجبل واعتراضه شجى فى صدور الثغور وقبل وشكى اليه أمر بنى عثمان بن أبى العلاء لانهم كانوا قد استطالوا عليه فى أرضه فأشكاه أبو الحسن وعامل اللهتعالى

في أسباب الجهاد ، وكان يومئذ مشغولا بفتنة أخيه أبي علي ومع ذلك فقد أمده بالجند وعقد لابنه أبي مالك على خمسة آلاف من أنجاد بني مرين وأنفذهم مع ابن الاحمر لمنازلة جبل الفتح فاحتل أبو مالك بالجزيرة الخضراء وتتابعت اليه الاساطيل بالمدد ، وأرسل ابن الاحمر في الاندلس حاشرين فتسايل الناس اليه من كل جهة وزحفوا جميعا الى الجبل وأحاطوا به وأبلوا في منازلته البلاء الحسن الى أن فتحوه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحمه المسلمون عنوة ونقلهم الله من كان به من النصارى بما معهم ، وشرع المسلمون في شحنته بالاقوات ينقلونها من الجزيرة الخضراء على خيولهم خوفا من كرة العدو وباشر نقلها الاميران أبو مالك وابن الاحمر بأنفسهما ونقلها الناس عامة وتحيز الامير أبو مالك الى الجزيرة الخضراء وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن محلي من وزراء أبيه ، ووصل الطاغية بعد ثلاث من فتحه فأناخ عليه وحاصره وبرز أبو مالك بعساكره من الجزيرة فنزل بازائه وزحف ابن الاحمر فنزل بازائه أيضا ثم خاف ابن الاحمر عادية العدو لقرب العهد بارتجاع الجبل وخفة من به من الحامية والسلاح ، فبادر الى لقاء الطاغية وسبق الناس الى فسطاطه عجلا بائعا نفسه من الله في رضا المسلمين وسد خلتهم فتلقاه الطاغية راجلا حاسرا اعظاما له وأجابه الى ما سأل من الافراج عن هذا المعقل وأتحفه بذخائر مما لديه وارتحل من فوره وشرع الامير أبو مالك في تحصين ذلك الثغر وسد فروجه

وقال أبو العباس المقري في النفح : ارتجع السلطان أبو الحسن جبل طارق بعد أن أنفق عليه الاموال وصرف اليه الجنود والحشود ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به الى أن استرجعوه ليد المسلمين ، واهتم ببنائه وتحصينه وأنفق عليه أحمال المال في بنائه وحصنه وسوره وبنى أبراجه وجامعه ودوره ومحاربه ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برا وبحرا فصبر المسلمون وخيب الله سعي الكافرين فأراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لايطمع عدو في منازلته ولايجد سبيلا للتضييق عليه بمحاصرته ، ورأى الناس ذلك من المحال فأنفق الاموال وأنصف العمال فأحاط بمجموعه احاطة الهالة بالهلال ، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفا وعشرين سنة وحاصره

السلطان أبو الحسن ستة أشهر وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان رحمهما الله تعالى

وأما ابن الاحمر فان أولاد عثمان بن أبي العلاء شيوخ الغزو بالاندلس لما رأوا ما حصل بينه وبين السلطان ابي الحسن من الوفاق واتصال اليد خافوا أن تعود موافقتهم بالضرر عليهم اذ كانوا أعداء للدولتين معا أما دولة المغرب فبخروجهم عليهم ومنابذتهم اياهم غير مرة ، وأما دولة الاندلس فباستحواذهم على أهلها ومزاحمتهم اياهم في رياستها فتشاوروا فيما بينهم وفتكوا بابن الاحمر يوم رحيله عن الجبل الى غرناطة فتقاصفوه بالرماح وقدموا أخاه أبا الحجاج يوسف بن اسماعيل مكانه فقام بالامر بعده وشمر للاخذ بثار أخيه فاحتال على بني أبي العلاء حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق ثم غربهم الى تونس الى أن كان من أمرهم ما نذكره

فتح تلمسان ومقتل صاحبها ابي تاشفين
وانقراض الدولة الاولى لبني زيان بمهلكه

لما استقام ملك المغرب للسلطان أبي الحسن بمقتل أخيه أبي علي صاحب سجلماسة ونصر الله جنده على الطاغية بالاندلس تفرغ لشأن تلمسان والانتقام من صاحبها أبي تاشفين الذي ضايق أصهاره من بني أبي حفص في أرضهم ونازعهم في ملكهم ، وكان السلطان أبو الحسن قد بعث لاول بيعته شفعاء الى أبي تاشفين في أن يتخلى عن عمل الموحدين ويرجع الى تخوم أعماله التي ورثها عن سلفه وقال له في جملة ذلك : « كف عنهم ولو سنة واحدة ليسمع الناس انسي نافحت عن صهري ويقدروا قدري » فاستنكف أبو تاشفين من ذلك وأغلظ للرسل في القول وأفحش بعض السفهاء من عبيده في الرد عليهم بمجلسه ونالوا

من السلطان أبي الحسن بمحضره فعادت الرسل اليه وأعلموه بالقضية على وجهها فحمى لذلك وغضب وتأكد عزمه على النهوض الى تلمسان فكان من نهوضه أولا وانتقاض أخيه عليه وعوده اليه من تاسالت ما قصصناه قبل مستوفى

ثم عاود السلطان النهوض الى تلمسان فى هذه المرة فعسكر بظاهر فاس الجديد وبعث وزراءه ووجوه دولته الى قاصية البلاد المراكشية لحشد القبائل والجموع ثم تعجل وعرض جنوده وأزاح عللهم وعبى مواكبه وفصل فى التعبية من فاس أواسط خمس وثلاثين وسبعمائة فسار يجر الشوك والمدر من أمم المغرب وجنوده، ومر بوجدة فجمر عليها الكتائب للحصار ثم مر بندرومة فقاتلها بعض يوم ثم اقتحمها عنوة فاستولى عليها وقتل حاميتها ، ثم سار على التعبية حتى أناخ على تلمسان ثم بلغه الخبر بتغلب عسكره على وجدة سنة ست وثلاثين وسبعمائة فأوعز اليهم بتخريب أسوارها فأضرعوها بالارض وتوافت لديه امداد النواحي وحشودها ، ووفدت عليه قبائل مغراوة وبنى توجين فأتوه طاعتهم وسرح كتائبه الى القاصية فتغلب على وهران وهنين ثم على مليانة وتنس والجزائر وغيرها واستولى على الضواحي ونزع اليه يحيى بن موسى كبير قواد أبي تاشفين وصاحب الثغور الشرقية من أعماله فلقاه مبرة وكرامة ورفع بساطه ونظمه فى طبقات وزرائه وجلسائه ، وعقد على فتح البلاد الشرقية ليحيى بن سليمان العسكرى شيخ بنى عسكر بن محمد وصهر السلطان على ابنته فسار فى الالوية والجنود قطوع ضاحية الشرق وافتتح أمصاره حتى انتهى الى لمدية ونظم البلاد فى طاعة السلطان أبي الحسن واحتشد جموعها فلحقوا بمعسكره واستعمل السلطان أبو الحسن عماله على الجهات

واختط بغربى تلمسان البلد الجديد لسكناه ونزول عساكره ، وأحيا معالم المنصورة التى كان اختطها عمه يوسف بن يعقوب وخربها بنو زيان من بعده فأدار عليها سياجا من السور ونطاقا من الخندق ونصب المجانيق وآلات من وراء خندقه وجعلت رماته تنضح رماة العدو بالنبل ويشغلونهم بأنفسهم حتى شيد برجا آخر يقرب منهم وترتفع شرفاته فوق خندقهم وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعاليه ورتب المجانيق لرجمها وأحكم عملها لدكها فنالت من ذلك فوق الغاية ،

وعظم أثرها فى القصور العظيمة والقباب الرفيعة التى تأنق أبو تاشفين فى تشييدها ، وكان السلطان أبو الحسن يصبح المقاتلة كل يوم ويطوف على البلد من جميع جهاته لتفقد رؤساء العسكر فى مراكزهم وربما انفرد فى طوافه فطاف فى بعض الايام منتبذا عن الحاشية ، فاهتبل بنو عبد الواد غرته حتى اذا سلك ما بين الجبل والبلد فتحوا أبوابهم وأرسلوا عليه عقبان جنودهم يحسبونها فرصة كالتى كانت ليغمراسن بن زيان فى السعيد الموحدى ، واضطروه الى سفح الجبل حتى لحق بأوعاره وكاد ينزل عن فرسه هو ووليه عريف بن يحيى أمير عرب سويد ، وأحس أهل المعسكر بذلك فركبوا زرافات ووحدانا وركب ابناه الاميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك وهما جناحا عسكره وعقابا جحافله وتهاوت اليهم صقور بنى مرين من كل جو فانكشفت عساكر بنى عبد الواد وولوا الادبار منهزمين لايلوى أحد منهم على أحد ، واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتهافتوا على ردمه فكان الهالك يومئذ فيه أكثر من الهالك بالسلاح ، وهلك من بنى توجين يومئذ عمر بن عثمان كبير الحشم وعامل جبل وانشريس ومحمد ابن سلامة بن على كبير بنى يدللتن وصاحب قلعة تاوغزوت وهما ما هما فى زناتة الى أشباه لهما استلحموا فى هذه الوقعة فحص هذا اليوم من جناح دولة بنى زيان وحطم منها ، واتصل الحصار مدة من ثلاث سنين حتى اذا كان السابع والعشرون من رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة اقتحم السلطان أبوالحسن مدينة تلمسان عنوة ، ووقف أبو تاشفين رحمه الله عند باب قصره فى جماعة من أصحابه منهم ولداه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن على ووليه عبد الحق ابن عثمان وهو الذى كان خرج على السلطان أبى الربيع وبايعه عبد الرحمن ابن يعقوب الوطاسى حسبما مر ، فانه لحق به بعد تلك الوقعة بتلمسان ثم منها الى الاندلس ثم حضر انتقاض العزفى بسبتة سنة ست عشر كما مر ثم لحق بأبى بكر الحفصى ثم نزع عنه الى أبى تاشفين واستمر عنده الى هذا اليوم فشهده فى جماعة من بنيه وبنى أخيه وكانوا احلاس حرب وفتيان كريهة فمانعوا دون القصر واستماتوا عليه الى أن استلحموا ورفعت رؤوسهم على عصا الرماح فطيف بها وغصت سكك البلد من داخلها وخارجها بالعساكر وكضت ابوابها بالزحام حتى

لقد كب الناس على أذقانهم وتواقعوا على مساربهم ، فوطئوا بالحوافر وتراكمت أشلاؤهم ما بين البابين حتى ضاق المسلك ما بين السقف ورحبة الباب وانطلقت الايدى على المنازل نهبا واكتساحا

وأما أبو تاشفين فانه قاتل حتى قتل ابناه عثمان ومسعود أمامه وخلصت اليه جراحات فأثخنته وتقبض عليه بعض الفرسان فساقه الى السلطان فلقيه ابنهالامير أبو عبد الرحمن فأمر به فقتل فى الحين واحتز رأسه وسخط السلطان ذلك من فعله لانه كان حريصا على توبيخه وتقريعه ، وقال ابن الخطيب : وقف أبو تاشفين وبنوه بازاء القصر مدافعين عن أنفسهم وقاموا مقام الصبر والاستجماع وصدقوا عن أنفسهم الدفاع الى أن كوثروا وأعجلتهم ميتة العز عن شد الوثاق وامكان الشمات فكان فى شأنهم عبرة رحمهم الله

وخلص السلطان أبو الحسن الى المسجد الجامع بحاشيته واستدعى شيوخ الفتيا بتلمسان وهما الامامان الشهيران أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ابنا الامام فخلصوا اليه بعد الجهد ووعظوه وذكروه بما نال الناس من النهب والعيث فركب لذلك بنفسه وسكن الناس وقبض أيدى الجند عن الفساد وعاد الى معسكره بالبلد الجديد وقد كمل الفتح وعز النصر واستولى السلطان أبو الحسن على تلك الامارة المؤثلة بما اشتملت عليه من نفيس الحلى وثمين الذخيرة وفاخر المتاع وخطير العدة وبديع الآلة وصامت المال وضروب الرقيق وصنوف الاثاث والماعون ، ورفع القتل عن بنى عبد الواد أعدائه وشفا نفسه بقتل سلطانهم وعفا عنهم وأثبتهم فى الديوان وفرض لهم العطاء واستتبعهم على راياتهم ومراكزهم وجمع كلمة بنى واسين من بنى مرين وبنى عبد الواد وبنى توجين وسائر زناتة وصاروا عصبا تحت لوائه وسد بكل طائفة منهم ثغرا من أعماله ، فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة وأجاز منهم الى ثغور عمله بالاندلس حامية ومرابطين واندرجوا فى جملته واتسع نطاق مملكته ، وأصبح أبو الحسن ملك زناتة بعد أن كان ملك بنى مرين وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب فقط وانما الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين

مراسلة السلطان ابى الحسن لسلطان مصر
وبعثه المصاحف من خطه الى المساجد الثلاثة شرفها الله

كان للسلطان أبي الحسن مذهب وراى في ولاية ملوك المشرق والمكلف بالمعاهد الشريفة اقتداء في ذلك بعمه يوسف بن يعقوب وغيره من سلفه وضاعف ذلك لديه متين ديانته ورفيع همته ، ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى واستولى على المغربين خاطب لحينه صاحب مصر والشام والحجاز الملك الناصر محمد بن قلاوون وعرفه بالفتح وارتفاع العوائق عن ركب الحاج في سابلتهم ، وكان سفيره في ذلك فارس بن ميمون بن وردار وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودة بين الخلف كما كانت بين السلف ، فأجمع السلطان أبو الحسن حينئذ على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف حرم مكة قربة الى الله تعالى وابتغاء للمثوبة فانتسخها بيده وجمع الوراقين لتنميقها وتذهيبها والقراء لضبطها وتهذيبها ، وصنع لها وعاء مؤلفا من الآبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة وغشى بصفائح الذهب ورصع بالجوهر والياقوت واتخذ له أصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أديمها بخطوط الذهب ومن فوقها غلائف الحرير والديباج وأغشية الكتان وأخرج من خزائنه أموالا عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء فيها ، وأوفد على الملك الناصر خواص مجلسه وكبار أهل دولته مثل عريف بن يحيى أمير بني زغبة من عرب بني هلال ومثل السابق المقدم في بساطه على كل خالصة عطية بن مهلهل بن يحيى كبير أخواله من عرب الخلط وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزعة ببابه الشيخ أبا محمد عبد الله بن قاسم المزوار

واحتفل في الهدية للسلطان صاحب مصر احتفالا تحدث الناس به دهرا قال ابن خلدون . « وقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين الرسول المذكور ووعيته ثم أنسيته وذكر لي بعض قهارمة الدار أنه كان فيها

خمسمائة من عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب والفضة ولجمها خالصاومغشى وموهوها وخمسمائة حمل من متاع المغرب وما عونه وأسلحته ومن نسج الصوف المحكم ثيابا وأكسية وبرانس وعمائم وأزرا معلمة وغير معلمة ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملونا وغيرملون وساذجا ومنمقا ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة الدبغ المنسوبة الى اللمط ومن خرثى المغرب وماعونه ما تستطرف صناعته بالمشرق حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهروالياقوت واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج فى ذلك الركب فاذن لها واستبلغ فى تكرمتها واستوصى بها وفده وسلطان مصر فى كتابه ، وفصلوا من تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ووصلوا الى مصر فى الثانى والعشرين من رمضان من السنة المذكورة وأدوا رسالتهم الى الملك الناصر وقدموا هديتهم اليه فقبلها وحسن موقعها لديه وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوما مشهودا تحدث الناس به دهرا ولقاهم سلطان مصر فى طريقهم أنواع البر والكرامة حتى قضوا فرضهم ووضعوا المصحف الكريم حيث أمرهم صاحبه ، وأسنى الملك الناصر هدية السلطان من القساطيط المشرقية الغريبة الشكل والصنعة بالمغرب ومن ثياب الاسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب ، ورجعهم بها الى مرسلهم وقد استبلغ فى تكرمتهم وصلتهم وبقى حديث هذه الهدية مذكورا بين الناس لهذا العهد » اه كلام ابن خلدون بعض ايضاح

وقد ذكر الامام الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق فى كتابه «المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبى الحسن» هذه الهدية وفصل منها بعض ما أجمله ابن خلدون فقال أرسل السلطان أبو الحسن للناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرين ومن الزمرذ مائة وثمانية وعشرين ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرين ومن الجوهر النفيس الملوكى ثلاثمائة وأربعة وستين وأرسل حللا كثيرة منها مذهبة ثلاثة عشر ومن الانان عشرين مذهبة ومن الخلادى ستة وأربعين ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة ومن المحررات المختمة ثمانمائة ومن الرصان عشرين شقة ومن الاكسية المحررة أربعة وعشرين ومن البرانس المحررة ثمانية عشر ومن

المشقفات مائة وخمسين ومن أحارم الصوف المحررة عشرين ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر ومن الفضالى المنوعة والفرش والمخاد المبوق والحلل ثمانمائة ومن أوجه اللحف المذهبة عشرين وحائطين حلة وحنابل مائة واثني عشر كلها حرير وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة ومن السيوف المحلات بالذهب المنظم بالجوهر عشرة والسروج عشرة بركب الذهب كذلك ومهاميز الذهب وثلاثة ركب فضة وستة مزججة ومذهبة ومضمتان من ذهب مما يليق بالملوك وشاشية حديد بذهب مكلل بالجوهر ومن لزمات الفضة عشرة وسروج مخروزة بالفضة عشرة وعشر علامات مغشاة مذهبة وعشر رايات مذهبة وعشر براقع مذهبة وعشر أمثلة مرقومة وثلاثون جلدا شرك وأربعة آلاف درقة لمط منها مائتان بنهود الذهب وثمانمائة بنهود الفضة وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة لها أربعة أبواب وقبة أخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبة وهي من حرير أبيض ومرابطها حرير ملون وعمودها عاج وآبنوس واكبارها من فضة مذهبة ومن البزات الاحرار المنتقات أربعة وثلاثين ومن عتاق الخيل العراب ثلاثمائة وخمسا وثلاثين ومن البغال الذكور والاناث مائة وعشرين ومن الجمال سبعمائة ، وتوجهت مع هذه الهدية أمم برسم الحج مع الربعة المكرمة يعني ربعة المصحف الكريم ، وأعطى السلطان الحرة أم أخته أم ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهبا ولقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة ولقائد الركب أربعمائة وكساوي متعددة وبغلات وللرسول المعين للهدية ألفا ، ولشيخ الركب أحمد ابن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة ، وبرسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة ولشراء الرباع ستة عشر ألفا وخمسمائة ذهبا اهـ ، وذكر في الكتاب المذكور أن السلطان أبا الحسن أهدى هدايا غير هذه لكثير من الملوك منها لصاحب الاندلس صلة وصدقة وهدية في مرات ، ومنها لملوك النصارى بعد هداياهم ، ومنها لسلاطين السودان كصاحب مالي ، ومنها لصاحب افريقية ومنها لصاحب تلمسان اهـ ، وقال العلامة المقريزي مؤرخ مصر في «كتاب السلوك» ما نصه: «وفي ثان وعشرين من رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة قدمت الحرة من عند السلطان أبي الحسن علي بن عثمان

ابن يعقوب المريني صاحب فاس تريد الحج ومعها هدية جليلة الى الغاية نزل لحملها من الاسطول السلطاني ثلاثون قطارا من بغال النقل سوى الجمال وكان من جملتها أربعمائة فرس منها مائة حجرة ومائة فحل ومائتا بغل وجميعها بسروج ولجم مسقطة بالذهب والفضة وبعضها سروجها وركبها ذهب وكذلك لجمها وعدتها اثنان وأربعون رأسا منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر وفيها اثنان وثلاثون بازا وفيها سيف قرابه ذهب مرصع وحياصة ذهب مرصع وفيها مائة كساء وغير ذلك من القماش العالى ، وكان قد خرج المهمندار الى لقائهم وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح وهم جمع كثير جدا وكان يوم طلوع الهدية من الايام المذكورة ففرق السلطان الهدية على الامراء بأسرهم على قدر مراتبهم حتى نفدت كلها سوى الجوهر واللؤلؤ فانه اختص به ، فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار ، ثم نقلت الحرة الى الميدان بمن معها ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلواء والفاكهة فى كل يوم بكرة وعشية ما عمهم وفضل عنهم ، فكان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأسا من الغنم ونصف أردب أرزا وقنطار حب رمان وربع قنطار سكرا وثمان فانوسيات شمعا وتوابل الطعام ، وحمل اليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم ثم خلع على جميع من قدم مع الحرة فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول ، وحمل الى الحرة من الكسوة ما يجل قدره وقيل لها أن تملى ما تحتاج اليه ولا يعوزها شيء وانما تريد عناية السلطان اكرامها واكرام من معها حيث كانوا ، فتقدم السلطان الى النشو والى الامير أحمد أن بغا بتجهيزها اللائق بها فقاما بذلك واستخدما لها السقائين والضوءية وهيأ كل ما تحتاج اليه فى سفرها من أصناف الحلاوات والسكر والدقيق والبجماط وطلبا الجمالة لحمل جهازها وأزودتها وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولى الجيزة وأمره أن يرحل بها فى مركب لها بمفردها قدام المحمل ويمتثل كلما تأمر به وكتب لاميرى مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة اه وفيه بعض مخالفة لما وصفه ابن مرزوق فى الهدية والخطب سهل

ثم انتسخ السلطان أبو الحسن رحمه الله نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الاول ووقفها على القراء بالمدينة وبعث بها من تخيره لذلك العهد من أهل دولته سنة أربعين وسبعمائة وفعل مثل ذلك بحرم بيت المقدس ، قال العلامة أبو العباس المقرى فى نفح الطيب « كان السلطان أبو الحسن المرينى قد كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه وأرسلها الى المساجد الثلاثة التى تشد اليها الرحال ، ووقف عليها أوقافا جليلة كتب سلطان مصر والشام توقيعه بمسامحتها من انشاء الاديب الشهير جمال الدين بن نباتة المصرى ، ونص ما يتعلق به الغرض منه هنا قوله :

«وهو الذى مد يمينه بالسيف والقلم فكتب فى أصحابها وسطر الختمات الشريفة فأيد الله حزبه بما سطره من أحزابها ، واتصلت ملائكة النصر بلوائه تغدو وتروح ، وكثرت فتوحه لاملياء الغرب فقالت أوقاف الشرق لابد للفقراء من فتوح ، ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدى وخط سطورها بالعربى وطالما خط فى صفوف الاعداء بالهندى ، ورتب عليها أوقافا تجرى أقلام الحساب فى اطلاقها وطلقها وحبس أملاكا شامية تحدث بنعم الاملاك التى سرت من مغرب الارض الى مشرقها ، والله تعالى يمتع من وقف هذه الختمات بما سطر له فى أكرم الصحائف ، وينفع المجالس من ولاة الامور فى تقريرها ويتقبل من الواقف » اه ، قال المقرى : وقد رأيت أحد المصاحف المذكورة وهو الذى ببيت المقدس وربعته فى غاية الصنعة اه والله تعالى أعلم

واتصلت الولاية بين السلطان أبى الحسن وبين الملك الناصر الى أن هلك سنة احدى وأربعين وسبعمائة وولى أمر مصر من بعده ابنه أبو الفداء اسماعيل ابن محمد بن قلاوون فخاطبه السلطان أبو الحسن أيضا على ما نذكره بعد ان شاء الله



١٣٢

نكبة الامير أبي عبد الرحمن يعقوب بن السلطان أبي الحسن
وفرار وزيره زيان بن عمر الوطاسي والسبب في ذلك

كان السلطان أبو الحسن رحمه الله عند ما نهض الى تلمسان أولا وثانيا ينتظر قدوم صهره السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي عليه لما كان انعقد بينه وبين أبيه أبي سعيد رحمه الله من الاجتماع على تلمسان والتعاون على حصارها ، ولما فتح أبو الحسن تلمسان في التاريخ المتقدم كان وزير الحفصيين الشيخ أبو محمد بن تافراجين شاهدا لذلك الفتح قدم رسولا من عند مخدومه السلطان أبي بكر المذكور ، فأسر الى السلطان أبي الحسن بأن مخدومه قادم عليه للقائه وتهنئته بالظفر بعدوه فتشوف السلطان أبو الحسن اليها لما كان يحب الفخر ويعنى به ، وارتحل عن تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وعسكر بمتيجة منتظرا لوفادة صهره عليه فتكاسل الحفصي عن القدوم بسبب تثبيط محمد بن الحكيم من رجال دولته اياه عن ذلك وقال له : « ان لقاء سلطانين لا يتفق الا في يوم على أحدهما » فكره الحفصي ذلك وتقاعد عنه وطال مقام السلطان أبي الحسن في انتظاره ثم طرقه بفسطاطه مرض ألزمه الفراش حتى تحدث أهل العسكر بمهلكه

وكان ابناه الاميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك متناغيين في ولاية عهده منذ أيام جدهما أبي سعيد وكان أبوهما قد جعل لهما لاول دولته ألقاب الامارة وأحوالها من اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين واثبات العطاء واستلحاق الفرسان ، وانفراد كل بعكسره على حدة وجعل لهما مع ذلك الجلوس بمقعد فصله مناوبة لتنفيذ الاوامر السلطانية فكانا لذلك رديفين له في سلطانه ، ولما اشتد وجع السلطان في هذه المرة تمشت سماسرة الفتن بينهما وتحزب أهل العسكر لهما حزبين وشوشوا بواطنهما ، فبث كل واحد منهما المال وحمل على المقربات وصار الجيش شيعا ، وهم الامير أبو عبد الرحمن

بالتوثب على الامر قبل أن يتبين حال السلطان باغراء وزرائه وبطانته بذلك .
وتفطن خاصة السلطان لما وقع فأخبروه الخبر وحضوه على الخروج الى الناس قبل أن يتفاقم الامر ويتسع الخرق ، فبرز السلطان الى فسطاط جلوسه وتسامع أهل المعسكر به فازدحموا الى بساطه وتقبيل يده ، وتقبض على أهل الظنة من الجيش فأودعهم السجن وسخط على الاميرين وأمر برحيل من كان معهما من الجند فردهم الى معسكره ، ثم رجع الى فسطاطه وطفئت نار الفتنة وسكن سعي المفسدين وانتبذ الناس عن الاميرين المذكورين فبقيا أوحش من وتد بقاع ، فاشتد جزع الامير أبي عبد الرحمن وركب من فسطاطه وخاض الليل فأصبح بحلة أولاد علي أمراء بني زغبة من هلال الموطنين بأرض حمزة فتقبض عليه أميرهم موسى بن أبي الفضل ورده الى أبيه فاعتقله بوجدة ورتب العيون لحراسته ولحق وزيره زيان بن عمر الوطاسي بالموحدين أصحاب تونس فأجاروه ، ورضي السلطان صبيحة فرار أبي عبد الرحمن عن أخيه أبي مالك وعقد له على ثغور عمله بالاندلس وصرفه اليها وانكفأ راجعا الى تلمسان والله أعلم

ثورة ابن هيدور الجزار وما كان من امره

لما تقبض السلطان أبو الحسن على ابنه أبي عبد الرحمن وأودعه السجن تفرق خدمه وحشمه في الجهات ، وكان منهم رجل جزار مرتب في مطبخه ، يعرف بابن هيدور وكان له شبه في الصورة بأبي عبد الرحمن فلحق ببني عامر ابن زغبة وكانوا لذلك العهد منحرفين عن طاعة السلطان أبي الحسن لاختصاصه عريف بن يحيى أمير بني سويد أعدائهم ، فلما لحق بهم ابن هيدور هذا انتسب لهم الى السلطان أبي الحسن وأنه ابنه أبو عبد الرحمن فشبه لهم وبايعوه وأجلبوا به على نواحي لمدية فبرز اليهم قائدها فهزموه ، ثم جمع لهم ونزمر بن عريف بن يحيى فهزمهم وافترق جمعهم ونبذوا للجزار عهده ، فلحق ببني

يزناتن من زواوة فنزل على شيختهم شمسي من بني عبد الصمد منهم ، وكانت هذه المرأة قد ملكتهم وغلبت عليهم بقومها ورجالها وكان لها بنون عشرة فاستفحل أمرها بهم ولما نزل عليها الجزار المذكور وانتسب لها الى السلطان أبي الحسن قامت بأمره وشمرت عزائمها لاجارته وحملت قومها على طاعته وشاع في الناس خبره فمن مصدق ومن مكذب وسرب السلطان أبو الحسن الاموال فـي قومها وبنيها على اسلامه اليه فأبت ثم نمى اليها الخبر بكذبه وتمويهه فنبذت اليه عهده وخرج عنها الى بلاد العرب فلحق بالدواودة أمراء رياح من بني هلال ونزل على سيدهم يعقوب بن علي وانتسب له في مثل ذلك فأجاروه ان صدق نسبه وأوعز السلطان أبو الحسن الى صهره أبي بكر الحفصي في شأن الجزار فبعث الحفصي الى يعقوب بن علي في ذلك ، فأشخصه الى السلطان أبي الحسن مع بعـض حاشيته ، فلحق به بمكانه بسبتة يريد الجهاد فامتحنه وقطعه من خلاف وانحسم داؤه وبقي المغرب تحت جراية من الدولة الى أن هلك في بعض السنين ، وأما الامير أبو عبد الرحمن فانه لما سجن بوجدة بقي هنالك الى سنة اثنتين واربعين وسبعمائة فوثب ذات يوم بالسجان فقتله واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فأنفذ حاجبه علان بن محمد فقضى عليه رحم الله الجميع

اخبار السلطان ابي الحسن في الجهاد وما كان من وقعة طريف التي محص الله فيها المسلمين وغير ذلك

لما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه وعلت على الايدي يده وانفسح نطاق ملكه دعته همته الى الجهاد وكان كلفا به فأوعز الى ابنه الامير أبي مالك أمير الثغور الاندلسية سنة أربعين وسبعمائة بالدخول الى دار الحرب وجهز اليه العساكر من حضرته وأنفذ اليه الوزراء ، فشخص أبو مالك غازيا وتوغل فـي بلاد النصرانية واكتسحها وخرج بالسبي والغنائم الى أدنى صدر من أرضهم ،

وأناخ بها فاتصل به الخبر ان النصارى قد جمعوا له وأنهم أغدوا السير فى اتباعه فأشار عليه الملأ بالخروج من أرضهم وعبور الوادى الذى كان تخما بين أرض المسلمين ودار الحرب ويتحيز الى مدن المسلمين فيمتنع بها فلج فى ابايته وصمم على التعريس وكان فرما ثبتا الا أنه غير بصير بالحرب لصغر سنه ، فصبحتهم عساكر النصرانية فى مضاجعهم قبل أن يركبوا وخالطوهم فى بياتهم وأدركوا الامير أبا مالك بالارض قبل أن يستوى على فرسه فجدلوه* واستلحموا الكثير من قومه واحتووا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ورجعوا على أعقابهم ، واتصل الخبر بالسلطان أبى الحسن فتفجع لهلاك ابنه واسترحم له واحتسب عند الله أجره ، ثم أنفذ وزراءه الى سواحل المغرب لتجهيز الاساطيل وفتح ديوان العطاء وعرض الجنود وأزاح عللهم واستنفر أهل المغرب كافة ، ثم ارتحل الى سبتة ليباشر أحوال الجهاد وتسامعت به أمم النصرانية فاستعدوا للدفاع وأخرج الطاغية أسطوله الى الزقاق ليمنع السلطان من الاجازة واستحث السلطان اساطيل المسلمين من مراسى المغرب ، وبعث الى أصهاره الحفصيين بتجهيز أسطولهم اليه فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية ووافى سبتة فى ستة عشر أسطولا من أساطيل افريقية كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية وتوافت أساطيل المغربين بمرسى سبتة تناهز المائة ، وعقد السلطان عليها لمحمد بن على العزفى الذى كان صاحب سبتة يوم فتحها أيام السلطان أبى سعيد وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق وقد تكامل عديدهم وعدتهم ، فاستلأموا وتظاهروا فى السلاح وزحفوا الى أسطول النصارى وتواقفوا مليا ثم قربوا الاساطيل بعضها من بعض وقرنوها للمصاف ، فلم يمض الا كلا ولا حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين بعدوهم وخالطوهم فى أساطيلهم واستلحموهم هبرا بالسيوف وطعنا بالرماح وألقوا أشلاءهم فى اليم وقتلوا قائدهم الملند ، واستاقوا أساطيلهم مجنوبة الى

---

* وحملت جثته الى شالة وأقبر بها وقد وقف القنصل الفرنساوى شينيى Chénier على رخامة ضريحه انظر تاليفه المسمى أبحاث فى تاريخ المغاربة ج ٣ ص ٢٨٧ فقد استقصى ذلك واستدل عليه بالاثر الذى عثر عليه بنفسه

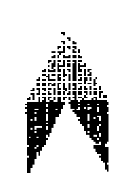
مرسى سبتة فبرز الناس لشاهدتها وطيف بكثير من رؤوسهم فى جوانب البلد
وتخلصت أصفاد الاسرى بدار الانشاء ، وعظم الفتح وجلس السلطان للتهنئة
وأنشد الشعراء بين يديه وكان ذلك يوم السبت سادس شوال سنة أربعين
وسبعمائة فكان من أعز أيام الاسلام ، ثم شرع السلطان أبو الحسن فى اجازة
العساكر من المتطوعة والمرتزقة ، وانتظمت الاساطيل سلسلة واحدة من العدوة
الى العدوة ، ولما تكاملت العساكر بالعبور وكانت نحو ستين ألفا أجاز هو فى
أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعمائة ونزل بساحة طريف
وأناخ عليها ثالث محرم من السنة بعدها وشرع فى منازلتها ، ووافاه سلطان
الاندلس أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل بن الاحمر فى عسكر الاندلس من
غزاة بنى مرين وحامية الثغور ورجالة البدو ، فعسكروا حذاء معسكره وأحاطوا
بطريف نطاقا واحدا وأنزلوا بها أنواع القتال ونصبوا عليها الآلات ، وجهز
الطاغية أسطولا آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر ، وطال مقام
المسلمين بمكانهم حول طريف ففنيت أزوادهم وقلت العلوفات فوهن الظهر
واختلت أحوالهم ، ثم احتشد الطاغية أمم النصرانية وظاهره البرتقال صاحب
اشبونة وغرب الاندلس وزحفوا الى المسلمين لستة أشهر من نزولهم على طريف
ولما قرب الطاغية من معسكر المسلمين سرب الى طريف جيشا من النصارى
أكمنه بها الى وقت الحاجة اليه فدخلوها ليلا على حين غفلة من العسس الذين
أرصدوا لهم وأحسوا بهم آخر الليل فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم
قبل دخول البلد فقتلوا منهم عددا وقد نجا أكثرهم فلبسوا على السلطان أنه لم
يدخل البلد سواهم حذرا من سطوته ، ثم زحف الطاغية من الغد فى جموعه الى
المسلمين وعبأ السلطان مواكبه صفوفا وتزاحفوا ولما نشبت الحرب برز الجيش
الكمين من البلد وهو الذى دخل ليلا وخالفوا المسلمين الى معسكرهم وعمدوا
الى فسطاط السلطان فدافعهم عنه الناشبة الذين كانوا على حراسته فاستلحموهم
لقتلتهم ، ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهن كذلك وخلصوا الى حظايا السلطان
منهن عائشة بنت عمه أبى بكر بن يعقوب بن عبد الحق وفاطمة بنت السلطان أبى
بكر بن أبى زكرياء الحفصى وغيرهما من حظاياه فقتلوهن واستلبوهن ومثلوا

بهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر نارا ثم أحس المسلمون بماوراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان تاشفين بن السلطان أبي الحسن صمم في طائفة من قومه وحاشيته حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به وتقبضوا عليه وعظم المصاب بأسره ، وكان الخطب على الاسلام فلما فجع بمثله وذلك ضحوة يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة من سنة احدى وأربعين وسبعمائة وولى السلطان أبو الحسن متحيزا الى فئة المسلمين واستشهد كثير من الغزاة وتقدم الطاغية حتى انتهى الى فسطاط السلطان من المحلة فانكر قتل النساء والولدان وكان ذلك منتهى أثره ، ثم انكفأ راجعا الى بلاده ولحق ابن الاحمر بغرناطة وخلص السلطان أبو الحسن الى الجزيرة الخضراء ثم منها الى جبل الفتح ثم ركب الاسطول الى سبتة في ليلة غده ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم

استيلاء العدو على الجزيرة الخضراء

لما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالاندلس وطمع في التهامهم وجمع عساكر النصرانية ونازل أولا قلعة بني سعيد ثغر غرناطة وعلى مرحلة منها ، وجمع الآلات والايدي على حصارها وأخذ بمخنقها فأصابهم الجهد من العطش فنزلوا على حكمه سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، وأدال الله الطيب منها بالخبيث وانصرف الطاغية الى بلاده ، وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز الى سبتة أخذ نفسه بالعود الى الجهاد لرجع الكرة فأرسل في المدائن حاشرين وأخرج قواده الى سواحل المغرب لتجهيز الاساطيل فتكامل له منها عدد معتبر ، ثم ارتحل الى سبتة لمشارفة ثغور الاندلس وقدم عساكره اليها مع وزيره عسكر بن تاحضريت وعقد على الجزيرة الخضراء لمحمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير وبعث اليها مددا من العسكر مع موسى بن ابراهيم

ابريناني من المرشحين للوزارة نيابة ، وبلغ الطاغية خبره فجهز أسطوله وأجراه الى بحر الزقاق لمدافعته وتلاقت الاساطيل ومحص الله المسلمين واستشهد منهم أعداد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق فملكه دون المسلميـن ، وأقبـل الطاغية من اشبيلية في عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وفرضة المجاز ورجا أن ينظمها في مملكته مع جارتها طريف وحشر الفعلة والصناع للآلات وجمع الايدى عليها وطاولها الحصـار واتخذ أهل المعسكر بيوتا من الخشب للمطاولة ، وجاء السلطان أبو الحجاج ابن الاحمر بعساكر الاندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل الممانعة وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرب الى أهل الجزيرة المدد من الفرسان والمال والقوت في أوقات الغفلة من أساطيل العدو وتحت جناح الليل وأصيب كثير من المسلمين في ذلك ، ولم يغن عن أهل الجزيرة ذلك المدد شيئا واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد ، وأجاز السلطان أبو الحجاج الى السلطان أبي الحسن يفاوضه في شأن السلم مع الطاغية بعد أن أذن الطاغية له في الاجازة مكرا به وأصدر له بعض الاساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا الى الساحل بعد غص الريق ، وضاقت أحوال أهل الجزيرة ومن كان بها مـن عسكر السلطان فسألوا الطاغية الامان على أن ينزلوا له عن البلد فبذله لهـم وخرجوا فوفى لهم وأجازوا الى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائـة ، فأنزلهم السلطان ببلاده على خير نزل ولقاهم من المبرة والكرامة ما عوضهم بما فاتهم وخلع عليهم وحملهم ووصلهم بما تحدث الناس به ، وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة له على تقصيره في المدافعة مع تمكنه منها ، وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعا الى حضرته موقنا بظهور أمر الله وانجاز وعده والله متم نوره ولو كره الكافرون



١٣٩

بقية اخبار بنى ابي العلاء

قد تقدم لنا أن عثمان بن أبى العلاء كان يلى مشيخة الغزاة بالاندلس وانه استشهد سنة ثلاثين وسبعمائة * وقام بأمره ابنه أبو ثابت فاستحوذ بعصبيته وقومه على بنى الاحمر ، فقتلوا محمد بن اسماعيل منهم مرجعه من فتح جبل الفتح ونصبوا للامر أخاه يوسف بن اسماعيل حسبما تقدم الالماع بذلك ، ثم ان السلطان أبا الحجاج هذا بقى بين جنبيه داء دخيل من بنى أبى العلاء الذين فتكوا بأخيه فلم يزل يسعى فى أمرهم حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق ، ثم غربهم الى تونس فنزلوا على السلطان أبى بكر بن أبى زكرياء الحفصى واتصل الخبر بالسلطان أبى الحسن فكتب اليه باعتقالهم ففعل ، ثم بدا له فبعث اليه مع عريف الوزعة ببابه ميمون بن بكرون فى اشخاصهم الى حضرته فتوقف الحفصى عن ذلك وأبى من اخفار ذمتهم ، فأشار عليه وزيره أبو محمد بن تافراجين ببعثهم اليه وانه لايريد بهم الا الخير فبعثهم وبعث كتابه بالشفاعة فيهم فقدموا على السلطان أبى الحسن مرجعه من الجهاد سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فتلقاهم بالبر والكرامة اكراما لشفيعهم وأنزلهم بمعسكره وحملهم على الخيول المسومة بالمراكب الثقيلة وضرب لهم الفساطيط وأسنى لهم الخلع والجوائز وفرض لهم فى أعلى رتب العطاء وصاروا فى جملته ، ولما احتل بسبتة لمشارفة أحوال الجزيرة الخضراء سعى عنده فيهم بان كثيرا من المفسدين يداخلونهم فى الخروج والتوثب على الامر فقبض عليهم وأودعهم السجن بمكناسة الزيتون ، واستمروا هنالك الى أن قام أبو عنان فأطلقهم واستعان بهم على أمره حسبما نذكره ان شاء الله

---

* بل مات حتف أنفه

مراسلة السلطان ابي الحسن لصاحب مصر
ابى الفداء اسمعيل بن محمد بن قلاوون

قد تقدم لنا أن السلطان أبا الحسن راسل الملك الناصر صاحب مصر وهاداه بما عظم وقعه عند الخاصة والعامة ، واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر الى أن هلك سنة احدى واربعين وسبعمائة وولى الامر من بعده ابنه أبو الفدا اسماعيل ، فخاطبه السلطان أبو الحسن أيضا وأتحفه وعزاه عن أبيه وأوفدعليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج أبا الفضل ابن أبى عبد الله ابن أبى مدين وفى صحبته الحرة أخت السلطان أبى الحسن فقضى من وفادته ما حمل ، وأصحبه السلطان أبو الحسن كتابا الى الملك الصالح أبى الفداء وكان وصوله الى مصر منتصف شعبان سنة خمس وأربعين وسبعمائة

ونص الكتاب بعد البسملة والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم : «من عند أمير المسلمين المجاهد في سبيل الله رب العالمين المنصور بفضل الله المتوكل عليه المعتمد فى جميع أموره لديه سلطان البرين حامى العدوتين موثر المرابطة والمثاغرة موازر حزب الاسلام حق الموازرة ناصر الاسلام مظاهر دين الملك العلام ابن أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين فخر السلاطين حامى حوزة الدين ملك البرين امام العدوتين ممهد البلاد مبدد شمل الاعاد مجند الجنود المنصور الرايات والبنود محط الرحال مبلغ الآمال أبى سعيد ابن أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين حسنة الايام حسام الاسلام أبى الاملاك مشجى أهل العناد والاشراك مانع البلاد رافع علم الجهاد مدوخ أقطار الكفار مصرخ من ناداه للانتصار القائم لله باعلاء دين الحق أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق أخلص الله لوجهه جهاده ويسر فى قهر عداة الدين مراده الى محل ولدنا الذى طلع فى أفق العلا بدرا تما وصدع بأنواع الفخار فجلى ظلاما وظلما وجمع شمل المملكة الناصرية

فاعلى منها علما وأحيى وسما حائط الحرمين القائم بحفظ القبلتين باسط الامان قابض كف العدوان الجزيل النوال الكفيل تأمينه بحياطة النفوس والاموال قطب المجد وسماكه حسب الحمد وملاكه السلطان الجليل الرفيع الاصيل الحافل العادل الفاضل الكامل الشهير الخطير الاضخم الافخم المعان المؤزر المؤيد المظفر الملك الصالح أبي الوليد اسماعيل ابن محل أخينا الشهير علاؤه المستطير في الآفاق ثناؤه زين الايام والليال كمال عين انسان المجدوانسان عين الكمال وارث الدول النافذ بصحيح رأيه في عقود أهل الملل والنحل حامي القبلتين بعدله وحسامه النامي في حفظ الحرمين أجر اضطلاعه بذلك وقيامه هازم أحزاب المعاندين وجيوشها هادم الكنائس والبيع فهي خاوية على عروشها السلطان الاجل الهمام الاحفل الافخم الاضخم الفاضل العادل الشهير الكبير الرفيع الخطير المجاهد المرابط المقسط عدله في الجائر والقاسط المؤيد المظفر المنعم المقدس المطهر زين السلاطين ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد بن الملك الارضى الهمام الامضى والد السلاطين الاخيار عاقد لواء النصر في قهر الارمن والفرنج والتتار محيي رسوم الجهاد معلي كلمة الاسلام في البلاد جمال الايام ثمال الاعلام فاتح الاقاليم صالح ملوك عصره المتقادم الامام المؤيد المنصور المسدد قسيم أمير المؤمنين فيما تقلد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون مكن الله له تمكين أوليائه ونمى دولته التي أطلعها له السعد شمسا في سمائه وأحسن ايزاعه للشكر أن جعله وارث آبائه سلام كريم يفاوح زهر الربى مسراه وينافح نسيم الصبا مجراه يصحبه رضوان يدوم ما دامت تقل الفلك حركاته ويتولاه روح وريحان تحييه به رحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله مالك الملك جاعل العاقبة للتقوى صدعا باليقين ودفعا للشك وخاذل من أسر النفاق في النجوى فاصر على الدخن والافك والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي محى بأنوار الهدى ظلم الشرك ونبيه الذي ختم به الانبياء وهو واسطة ذلك السلك ودعا به حجة الحق فمادت بالكفرة محمولة الافلاك وماجت بهم حاملة الفلك والرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيل هداه

فسلك في قلوبهم أجمل السلك وملكوا أعنة هواهم فلزموا من محجة الصواب أحجج السلك وصابروا في جهاد الاعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهب يزيد خلوصا على السبك والدعاء لاولياء الاسلام وحماته الاعلام بنصر نضائه في العدى أعظم الفتك ويسر بقضائه درك آمال الظهور وأحفل بذلك الدرك فكتبناه اليكم كتب الله لكم رسوخ القدم وسبوغ النعم من حضرتنا مدينة فاس المحروسة وصنع الله سبحانه يعرف مذاهب الالطاف ويكيف مواهب تلهج الالسنة في القصور عن شكرها بالاعتراف ويصرف من أمره العظيم وقضائه المتلقى بالتسليم ما يتكون بين النون والكاف ومكانكم العتيد سلطانه وسلطانكم المجيد مكانه وولاؤكم الصحيح برهانه وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال ميدانه والى هذا زاد الله سلطانكم تمكينا وأفاد مقامكم تحصينا وتحسينا وسلك بكم من سنن من خلفتموه سبيلا مبينا فلا خفاء بما كانت عقدته أيدي التقوى ومهدته الرسائل التي على الصفاء تطوى بيننا وبين والدكم نعم الله روحه وقدسه وبقربه مع الابرار في عليين أنسه من مؤاخاة أحكمت منها العهود تالية الكتب والفاتحة وحفظ عليها محكم الاخلاص معوذتاها المحبة والنية الصالحة فانعقدت على التقوى والرضوان واعتضدت بتعارف الارواح عند تنازح الابدان حتى استحكمت وصلة الولاء والتأمت كلحمة النسب لحمة الاخاء فما كان الا وشيكا من الزمان ولاعجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه الخلان ورد وارد أورد رنق المشارب وحقق قول « ومن يسأل الركبان عن كل غائب » أنبأ باستارة الله تعالى بنفسه الزكية واكتان درته السنية وانقلابه الى ما أعد له من المنازل الرضوانية بجليل ما وقر لفقده في الصدور وعظيم ما تأثرت له النفوس لوقوع ذلك المقدور حنانا للاسلام بتلك الاقطار واشفاقا من أن يعتور قاصدي بيت الله الحرام من جراء الفتن عارض الاضرار ومساهمة في مصاب الملك الكريم والوصي الحميم ثم عميت الاخبار وطويت طي السجل الآثار فلم نر مخبرا صدقا ولا معلما بمن استقر له ذلكم الملك حقا وفي أثناء ذلك حفزنا للحركة عن حضرتنا استصراخ أهل الاندلس وسلطانها وتواتر الاخبار بأن النصارى أجمعوا على خراب

أوطانها ونحن أثناء ذلك الشأن نستخبر الوراد من تلكم البلدان عما أجلى
عنه ليل الفتن بتلكم الاوطان فبعد لأي وقفنا منها على الخبير وجاءنا بوقاية
حرم الله بكم البشير وتعرفنا أن الملك استقر منكم في نصابه وتداركه الله
تعالى منكم بفاتح الخير من أبوابه فأطفأ بكم نار الفتنة واخمدها من أدواء
النفاق ما أعل البلاد وأفسدها فقام سبيل الحج سابلا وعبر طريقه لمن جاء
قاصدا وقافلا ولما احتفت بهذا الخبر القرائن وتواتر بنقل الحاضر المعاين
أثار حفظ الاعتقاد البواعث والود الصحيح تجره حقا الموارث فأصدرنا لكم
هذه المخاطبة المتفننة الاطوار الجامعة بين الخبر والاستخبار الملبسة من العزاء
والهناء ثوبي الشعار والدثار ومثل ذلك الملك رضوان الله عليه من تجل المصائب
لفقدانه وتحل عرى الاصطبار بموته ولات حين أوانه ولكن الصبر أجمل
ما ارتداه ذو عقل حصين والاجر أولى ما اقتناه ذودين متين ومثلكم من لا
يخف وقاره ولا يشف عن ظهور الجزع الحادث اصطباره ومن خلفتموه
فما مات ذكره ومن قمتم بأمره فما زال بل زاد فخره وقد طالت والحمد لله
العيشة الراضية بالحقب وطاب بين مبداه ومحتضره هنيئا بما من الاجر اكتسب
وصار حميدا الى خير منقلب ووفد من كرم الله على أفضل ما منح موقنا ووهب
فقد ارتضاكم الله بعده لحياطة أرضه المقدسة وحماية زوار بيته مقيلة أومعرسة
ونحن بعد بسط هذه التعزية نهنيكم بما خولكم الله أجمل التهنية وفي ذات
الله الايراد والاصدار وفي مرضاته سبحانه الاضمار والاظهار فاستقبلوا
دولة ألقى العز عليها رواقه وعقد الظهور عليها نطاقه وأعطاها أمان الزمان
عقده وميثاقه ونحن على ما عاهدنا عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود
موثقة وموالاة محققة وثناء كمائمه عن أذكى من الزهر غب القطر مفتقه ولم
يغب عنكم ما كان من بعثنا المصحفين الاكرمين اللذين خطتهما منا اليمين
وآوت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين الى قرار مكين وانه كان لوالدكم
الملك الناصر تولاه الله برضوانه وأورده موارد احسانه في ذلكم من الفضل
الجميل والصنع الجليل ما ناسب مكانه الرفيع وشاكل فضله من البر الذي
لا يضيع حتى طبق فعله الآفاق ذكرا وطوق أعناق الوراد والقصاد برا وكان

من أجمل ما به تحفي وأتحف واعظم ما يعرفه الى الملك العلام في ذلك تعرف
اذنه للمتوجهين اذ ذاك في شراء رباع توقف على المصحفين ورسم المراسم
المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدين فجرت أحوال القراء فيهما
بذلك الخراج المستفاذ ريثما يصلهم من خراج ما وقفنه عليهم بهذه البلاد على
ما رسمه رحمة الله عليه من عناية بهم متصلة واحترام في تلك الاوقاف فوائدها
به متوفرة متحصلة وقد أمرنا مؤدي هذا لكمالكم وموفده على جلالكم كاتبنا
الاسنى الفقيه الاجل الاحظى الاكمل أبا المجد ابن كاتبنا الشيخ الفقيه الاجل
الحاج الاتقى الارضى الافضل الاحظى الاكمل المرحوم أبي عبد الله بن أبي
مدين حفظ الله عليه رتبته ويسر في قصد البيت الحرام بغيته بأن يتفقد أحوال
تلك الاوقاف ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد واسراف وأن
يتخير لها من يرتضى لذلك ويحمد تصرفه فيما هنالك وخاطبنا سلطانكم في
هذا الشأن جريا على الود الثابت الاركان واعلاما بما لوالدكم رحمه الله تعالى
في ذلك من الافعال الحسان وكمالكم يقتضي تخليد ذلكم البر الجميل
وتجديد عمل ذلكم الملك الجليل وتشييد ما اشتمل عليه من الشراء الاصيل
والاجر الجزيل والتقدم بالاذن السلطاني في اعانة هذا الوافد بهذا الكتاب على
ما يتوخاه في ذلك الشأن من طرق الصواب وثناؤنا عليكم الثناء الذي يفاوح
زهر الربا ويطارح نغم حمام الايك مطربا وبحسب المصافاة ومقتضى الموالاة
نشرح لكم المتزايدات بهذه الجهات ونبثكم بموجب ابطاء انفاذ هذا الخطاب
على ذلكم الجناب وذلك أنه لما وصلنا من الاندلس الصريخ ونادى منا للجهاد
عزما لمثل ندائه يصيخ أنبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صوب
وفرض عليهم باباهم اللعين التناصر من كل أوب وان تقصد طوائفهم البلاد
الاندلسية بايجافها وتنقص بالمنازلة أرضها من أطرافها ليمحو كلمة الاسلام
منها ويقلصوا ظل الايمان عنها فقدمنا من يشتغل بالاساطيل من القواد
وسرنا على أثرهم الى سبتة منتهى الغرب الاقصى وباب الجهاد فما وصلناها الا
وقد أخذ أخذه العدو الكفور وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور
وأتوا من أجفانهم بما لا يحصى عددا وأرصدوها بمجمع البحرين حيث المجاز

الى دفع العدا وتقلصوا عن الانبساط فى البلاد واجتمعوا الى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل من جمعوه من الاعاد لكنا مع انسداد تلك السبيل وعدم أمور نستعين بها فى ذلكم العمل الجليل حاولنا امداد تلكم البلاد بحسب الجهـد وأصرخناهم بما أمكن من الجند وجهزنا أجفانا مختلسين فرصة الاجازة تتردد على خطر بمن جهز للجهاد جهازه وأمرنا لصاحب الاندلس من المال بما يجهز به حركته لمداناة محلة حزب الضلال واجرينا له ولجيشه العطـاء الجزل مشاهرة وأرضخنا لهم من النوال ما نرجو به ثواب الآخرة وجعلت أجفاننا تتردد فى مينا السواحل وتلج أبواب الخوف العاجل لاحراز الامن الآجل مشحونة بالعدد الموفورة والابطال المشهورة والخيل المسومة والاقوات المقومة فمن ناج حارب دونه الاجل وشهيد مضى لما عند الله عـز وجل وما زالت الاجفان تتردد على ذلك الخطر حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية أجرها عند الله يدخر ثم لم نقنع بهذا العمل فى الامداد فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم الله مساهمة به لاهل تلك البلاد فلقى مـن هول البحـر وارتجاجه والحاح العدو ولجاجه ما بـه الامثال تضرب وبمثلـه يتحـدث ويستغرب ولما خلص لتلك العدوة بمن أبقته الشدائد نزل بازاء الكافر الجاحد حتى كان منه بفرسخين أو أدنى وقد ضرب بعطن بصابيح العدو ويماسيه بحرب بها يمنى وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريت شرارته وقويت فى الحرب ادارته يبلون البلاء الاصدق ولا يبالون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء فى البعير الاورق الا أن المطاولة بحصارها فى البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ومنازلتها فى البر نحو عامين معقودا عليها الصف بالصف أدى الى فناء الاقوات فى البلد حتى لم يبق لاهليه قوت شهر مع انقطاع المدد وبه من الخلق ما يربى على عشرة آلاف دون الحرم والولد فكتب الينا سلطان الاندلس يرغب فى الاذن له فى عقد الصلح ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح فأذنا له فيه الاذن العام اذفى اصراخه واصراخ من بقطره من المسلمين توخينا ذلك المرام هنالك دعى النصارى الى السلم فاستجابوا وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا فتم الصلح الى عشر سنين وخرج مـن

بها من فرسان ورجال وأهل وبنين ولا رزئوا مالا ولا عدة ولا لقوا في
خروجهم غير النزوح عن أول أرض مس الجلد ترابها شدة ووصلوا
فأجزلنا لهم العطاء وأسليناهم عما جرى بالحباء فمن خيل تزيد على الالف
عتاقها وخلع تربى على عشرة آلاف أطواقها وأموال عمت الغنى وانفتح
ورعاية شملت الجميع بالعيش النضير وكف الله ضر الطواغيت عما عداهم
وما انقلبوا بغير مدرة عفا رسمها وصم صداها وقد كان من لطف الله حين
قضى بأخذ هذا الثغر ان قدر لنا فتح جبل طارق من أيدى الكفر وهو المد
على هذه المدرة والفرصة منه ان شاء الله تعالى متيسرة حتى يفرق عقد الكفر
ويفرج بهذه الجهة منهم مجاوروا هذه الاقطار فلولا اجلابهم من كل جا
وكونهم سدوا مسلك العبور بما لجميعهم من الاجفان والمراكب لما بالينا بأصفاة
ولحللنا بعون الله عقد اتفاقهم ولكن للموانع أحكام ولا راد لما جرت به
الاقلام وقد أمرنا لذلك الثغر بمزيد المدد وتخيرنا له ولسائر تلك البلاد العد
والمدد وعدنا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من وعثاء السفر ونر
الجياد وننتخب العدد لوقت الظهور المنتظر ونكون على أهبة الجهاد وعـ
مرقبة الفرصة عند تمكنها فى الاعاد وعند عودنا من تلك المحاولة نيسر الركب
الحجازى موجها الى هناكم رواحله فاصدرنا اليكم هذا الخطاب اصدار الـ
الخالص والحب اللباب وعندنا لكم ما عند أحنى الآباء واعتقادنا فيكم فـ
ذات الله لايخشى جديده من البلاء ومالكم من غرض بهذه الانحاء موقـ
قصده على أكمل الاهواء موالى تتميمه على أجمل الآراء والبلاد باتحاد الـ
متحدة والقلوب والايدى على ما فيه مرضاة الله عز وجل منعقدة جعل الـ
ذلكم خالصا لرب العباد مدخورا ليوم التناد مسطورا فى الاعمال الصالحة يو
المعاد بمنه وفضله هو سبحانه يصل اليكم سعدا تتفاخر به سعود الكواكب
وتتضافر على الانقياد له صدور المواكب وتتقاصر عن نيل مجده منطاولا
المناكب والسلام الاتم يخصكم كثيرا أثيرا ورحمة الله وبركاته وكتب في
يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين
وسبعمائة وصورة العلامة وكتب فى التاريخ المؤرخ

قال ابن خلدون : « فقضى أبو الفضل ابن أبي عبد الله بن أبي مدين مـن وفادته ما حمل وكان شأنه عجبا في اظهار أبهة سلطانه والانفاق على المستضعفين من الحاج في طريقه واتحاف رجال الدولة التركية بذات يده والتعفف عما في أيديهم رحمه الله » وقال العلامة المقريزى : « وفي منتصف شعبان من سنة خمس وأربعين وسبعمائة قدمت الحرة أخت صاحب المغرب في جماعة كثيرة وعلى يدها كتاب السلطان أبي الحسن يتضمن السلام وأن يدعو له الخطباء في يوم الجمعة ومشايخ الصلاح وأهل الخير بالنصر على عدوهم ويكتب الى أهـل الحرمين بذلك»اه ولعل هذا الكتاب آخر غير الذى سردناه يتضمن ما ذكره والله أعلم

ونسخة الجواب عن الكتاب الذى سردناه من انشاء خليل الصفدى شارح لامية العجم : بعد البسملة في قطع النصف بقلم الثلث : « عبد الله ووليه » صورة العلامة ، ولده اسماعيل بن محمد السلطان الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المظفر المنصور ، عماد الدنيا والدين سلطـان الاسـلام والمسلمين محيى العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين وارث الملك ملك العرب والعجم والترك فاتح الاقطار واهب الممالك والامصار ، اسكندر الزمان مملك اصحاب المنابر والاسرة والتخوت والتيجان ظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه مالك البحرين ، خادم الحرمين الشريفين ، سيد الملوك والسلاطين جامع كلمة الموحدين ، ولى أمير المومنين أبو الفداء اسماعيل بن السلطان الشهيد السعيد الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد بن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون خلد الله تعالى سلطانه وجعل الملائكة انصاره وأعوانه يخـص المقام العالى المـلك الاجـل الكبير المجاهد المؤيد المرابط المثاغر المعظم المكرم المظفر المعمر الاسعد الاصعد الاوحد الامجد السنى السرى المنصور أبا الحسن على بن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحـق أمده اللـه بالظفر وقرن عزمه بالتأييد في الآصال والبكر سلام وشت البروق وشائعـه وادخرت الكواكب ودائعه واستوعب الزمان ماضيه ومستقبله ومضارعه وثناء

اتخذ النفحات المسكية طلائعه ونبه بالتغريد فى الروض سواجعه وجلى
فى كأسه من الشفق المحمر مدامه ومن النجوم فواقعه
«أما بعد» حمد الله على نعم ادت انا الامانة فى عود سلطنة والدنا الموروثة
وأجلستنا على سرير مملكة زرابيها بين النجوم مبثوثة ، واحسنت بنا الخلف
عن سلف عهوده فى الاعناق غير منكورة ولا منكوثة ، وصلاته على سيدنا محمد
عبده ورسوله وعلى آله وصحبه الذين بلغ بجهادهم فى الكفرة غاية أمله وسؤله
صلاة تحط بالرضوان سيولها وتجر بالغفران ذيولها ما تراسل أصحاب
وتواصل أحباب فيوضح للعلم الكريم وورود كتابكم العظيم وخطابكم الفائق
على الدر النظيم تفاخر الخمائل سطوره ، ويصبغ خد الورد بالخجل منثوره
ويحكى الرياض اليانعة فالالفات غصونه والهمزات عليها طيوره ويخلع
على الآفاق حلل الايام والليالى فالطرس صباحه والنقس ديجوره لفظه يطرب
ومعناه يعرب فيغرب وبلاغته تدل على أنه آية لان شمس بيانها طلعت من المغرب
فاتخذنا سطوره ريحانا ورجعنا ألفاظه ألحانا ورجعنا الى الجد فشبهنا القاته
بظلال الرماح وورقه بصقال الصفاح وحروفه المفرقة بافواه الجراح وسطوره
المنتظمة بالفرسان المزدحمة يوم الكفاح وانتهينا الى ما أود عتموه من اللفظ
المسجوع والمعنى الذى يطرب طائره المسموع والبلاغة التى فضح التطبع بيانها
المطبوع فاما العزاء باخيكم الوالد قدس الله روحه وسقى عهده واحسن
لسلفه خلفا بعده فلنا برسول الله اسوة حسنة ولولا الوثوق بانه فى عدة الشهداء
ما رام القلب قراره ولا الطرف وسنه عاش سعيد ايملك الارض ومات شهيدا
يفوز بالجنة يوم العرض قد خلد الله ذكره يسير مسير الشمس فى الآفاق
ويوقف عند نضارة حدائقه الاحداق وورثنامنه حسن الاخاء لكم والوفاء بعهود مودة
تشبه فى اللطف شمائلكم ـ واما الهناء بوراثة ملكه والانخراط مع الملوك فى
سلكه فقد شكرنا لكم منحى هذه المنحة وقابلناها بثناء يعطر النسيم فى كل نفحه
ووقفنا عليها حمدا جعل الود علينا ايراده وعلى انفاس سرحة الروض شرحه
وتحققنا به حسن ودكم الجميل وكريم اخائكم الذى لا يميد طود رسوخه
ولا يميل

وأما ما ذكرتموه من أمر المصحفين الكريمين الشريفين اللذين وقفتموهما على الحرمين المنيفين وانكم جهزتم كاتبكم الفقيه الاجل الاسنى الاسمى ابا المجد ابن كاتبكم ابى عبد الله بن ابى مدين اعزه الله لتفقد احوالهما والنظر فى أمر أوقافهما فقد وصل المذكور بمن معه فى حرز السلامة واكرمنا نزلهم وسهلنا بالترحيب سبلهم وجمعنا على بذل الاحسان اليهم شملهم وحضر المذكور بين ايدينا وقربناه وسمعنا كلامه وخاطبناه وامرنا فى أمر المصحفين الشريفين بما اشرتم ورسمنا لنوابنا فى توخى اوقافهما بما ذكرتم وهذا الوقف المبرور جار على احسن عادة ألفها واثبت قاعدة عرفهما مرعى الجوانب محمى المنازل والمضارب آمن ازلة رسمه أو اذالة حكمه بدره ابدا فى مطالع تمه وزهره دائما يرقص فى كمه لا يزداد الا تخليدا ولا اطلاق ثبوته الا تقييدا ولا عنق اجتهاده الا تقليدا جريا على قاعدة أوقاف ممالكنا وعادة تصرفاتنا فى مسالكنا وله مزيد الرعاية وافادة الحماية ووفادة العناية. وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلها ومنى به من الكفار حزنها وسهلها فانه شق علينا سماعه الذى انكى اهل الايمان وعدد به نوب الزمان كل قلب بانامل الخفقان وطالما فزتم بالظفر ورزقم النصر على عدوكم فجر ذيل الهزيمة وفر ولكن الحرب سجال وكل زمان لدوائره دولة ولرجاته رجال ولو امكنت المساعدة لطارت بنا اليكم عقبان الجياد المسومة وسالت على عدوكم اباطحهم بقسينا المعوجة وسهامنا المقومة وكحلنا عين النجوم بمراود الرماح وجعلنا ليل العجاج ممزقا ببروق الصفاح واتخذنا رؤوسهم لصوالج القوائم كرات وفرجنا مضايق الحرب بتوالى الكرات وعطفنا عليهم الاعنة وخضنا جداول السيوف ودسنا شوك الاسنة وفلقنا الصخرات بالصراخات واسلنا العبرات بالرعبات ولكن اين الغاية من هذا المدى المتطاول واين الثريا من يد المتناول وما لنا غير امدادكم بجنود الدعاء الذى نرفعه نحن ورعايانا والتوجه الصادق الذى تعرفه ملائكة القبول من سجايانا — وأما — ما فقدتموه من الاجفان التى طرقها طيف الاتلاف وام حرم فنائها الفناء وطاف به بعد الالطاف فقد روع هذا الخبر قلب الاسلام ونوع له الحزن على اختلاف الاصباح والاظلام وهذه الدار لايخلو صفوها من كدر القدر وطالما

أنامت بالامن أول الليل وحاطبت بالخطب فى السحر ولكن فى بقائكم ما يسلى
عن خطب المطب ومع سلامة نفسكم الكريمة فالامر هين لان الدر يفدى
بالذهب – وأما – ما رأيتموه من الصلح فراى عقده مبارك وامر ما فيه فارطعزم
وان كان فيتدارك والامر يجيء كما يحب لا كما نحب والحروب يزورها
نصرها تارة ويغب مع اليوم غدا وقد يرد الله الردا ويعيد الظفر بالعدا
وأما عودكم الى فاس المحروسة طلبا لاراحة من عندكم من الجنود وتجهيزا
لن يصل من عندكم الى الحجاز الشريف من الوفود فهذا أمر ضروري
التدبير سروري التثمير لان النفوس تمل وثير المهاد فكيف ملازمة
صهوات الجياد وتسأم من مجالسة الشرب فكيف بممارسة الحرب
وتعرض عن دوام اللذة فكيف بمباشرة المنايا الفذة وهذا جبل طارق الذى
فتح الله به عليكم وساق هدى هديته اليكم لعله يكون سببا الى ارتجاع ما
شرد وحسما لهذا الطاغية الذي مرد وردا لهذا النازل الذى كدر ورد
الصبر لما ورد فعادة الالطاف بكم معروفة وعزماتكم الى جهات الجهاد
مصروفة وقد تفاءلنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمن يطرق
وجبل يعصم من سهم يمر من قسى الكفار ويمرق وأما ما منحتموه من الخيل
العتاق والملابس التى تطلع بدور الوجوه من مشارق الاطواق والاموال
التى زكت عند الله تعالى ونمت على الانفاق فعلى الله عز وجل خلفها ولكم
فى منازل الدنيا والاخرة سرفها وشرفها واليكم تساق هدايا أثنيتها وتحفكم
تحفها واذا وصل وفدكم الحاج وأنار له بوجه اقبالنا عليهم ليلهم الداج
كانوامقيمين تحت ظل اكرامنا وشمول اسعافنا لهم وانعامنا يتخولون تحفا
أنتم سببها ويتناولون طرفا فى كؤوس الاعتناء بهم ينضد حببها واذا كان
أوان الرحيل الى الحج فسحنا لهم الطريق وسهلنا لهم الرفيق وبلغناهم
بحول الله تعالى مناهم من منى وسؤلهم ممن اذا زاروا حجراته الشريفة
حازوا الراحة من العناء وفازوا بالغنى واذا عادوا عاملناهم بكل جميل
ينسيهم مشقة ذلك الدرب ويخيل اليهم أن لامسافة لمسافر بين الشرق
والغرب وغمرناهم بالاحسان فى العود اليكم وأمرناهم بما ينهونه شفاها

لديكم وعناية الله تعالى تحوط ذاتكم وتوفر لاخذ الثار حماتكم وتخصكم بتأييد تنزلون روضه الانضر وتجنون به ثمر النصر اليانع من ورق الحديد الاخضر وتتحفكم بسعد لايبلى قشيبه وعز لايمحو شبابه مشيبه وتحيته المباركة تغاديكم وتراوحكم وتفاوحكم أنفاسها المعتبرة وتنافحكم بمنه وكرمه ، في سادس رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة »

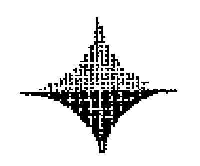
قال ابن خلدون : « ثم شرع السلطان أبو الحسن بعد استيلائه على افريقية كما نذكره في كتب نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها ببيت المقدس فلم يقدر اتمامها وهلك قبل فراغه من نسخها » اه وهو يقتضى أن السلطان المذكور ما كتب سوى مصحفين اثنين ويؤيده ظاهر الكتابين المسرودين آنفا مع أنه تقدم النقل عن الشيخ أبي العباس المقرى أنه وقف على النسخة الموقوفة ببيت المقدس والله تعالى أعلم بحقيقة الامر .

هدية السلطان ابى الحسن الى ملك مالى من السودان المجاورين للمغرب

أعلم أن أرض السودان المجاورة للمغرب تشتمل على ممالك منها مملكة غانة ومنها مملكة مالى ومنها مملكة كاغو ومنها مملكة برنو وغير ذلك ، وكان ملك مالى وهو السلطان منسا موسى بن أبي بكر من أعظم ملوك السودان في عصره ، ولما استولى السلطان أبو الحسن على المغرب الاوسط وغلب بني زيان على ملكهم عظم قدره وطال ذكره وشاعت أخباره في الآفاق فسما هذا السلطان وهو منسى موسى الى مخاطبة السلطان أبي الحسن وكان مجاورا لمملكة المغرب على نحو مائة مرحلة في القفر ، فأوفد عليه جماعة من أهل مملكته مع ترجمان من الملثمين المجاورين لبلادهم من صنهاجة ، فوفدوا على السلطان أبي الحسن في سبيل التهنئة بالظفر فأكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم ونزع الى مذهبه في الفخر فانتخب طرفا من متاع المغرب وماعونه وشيأ من ذخيرة داره وأسنى الهدية وعين رجالا من أهل دولته كان فيهم كاتب

الديوان أبو طالب بن محمد بن أبى مدين ومولاه عنبر الخصسى فأوفدهم بها على ملك مالى منسا سليمان لمهلك أخيه موسى قبل مرجع وفده وأوعز الى أعراب الفلاة من بنى معقل بالسير معهم ذاهبين وجائين فشمر لذلك على بن غانم أمير أولاد جرار من معقل وصحبهم فى طريقهم امتثالا لامـر السلطان وتوغل ذلك الركب فى القفر الى بلد مالى بعد الجهد وطول الشقة فأحسن منسا سليمان مبرتهم وأعظم موصلهم وأكرم وفادتهم ومنقلبهم ، وعـادوا الى مرسلهم فى وفد من كبار مالى يعظمون السلطان أبا الحسن ويوجبون حقـه ويؤدون طاعته ويذكرون من خضوع مرسلهم وقيامه بحـق السلطان أبـى الحسن واعتماله فى مرضاته ما استوصاهم به

واعلم أن منسا موسى الذى ذكرناه كان من كبار الملوك كما قلنا وهـو الذى صحبه أبو اسحاق الساحلى المعروف بالطويجى (*)من شعراء الاندلس ، كان قد لقيه فى الموسم بعرفة فحلى بعينه وحظيت منزلته عنده فصحبه الـى بلاده وأقام عنده مصحوبا بالبر والكرامة وبنى للسلطان المذكور قبة رائعة فازدادت حظوته عنده ، قال ابن خلدون : « أطـرف أبو اسحــق الطويجـن السلطان منسا موسى ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها اجادته وكان صنـاع اليدين وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالاصباغ المشبعة ، فجاءت مـن أتقن المبانى ووقعت من السلطان منسا موسى موقع الاستغراب لفقدان صنعـة البناء بأرضهم ووصله باثنى عشر ألفا من مثاقيل التبر مثوبة عليها » اه وكانـت وفاة أبى اسحق بتنبكتوا يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة



(*)صوابه الطويجن تصغير طاجين الاناء المغربى المعروف

مصاهرة السلطان ابي الحسن ثانيا مع السطان ابي بكر الحفصي رحمهما الله

قد تقدم لنا ما كان من وقعة طريف وانه هلك فيها حرم السلطان أبي الحسن من جملتهن فاطمة بنت السلطان أبي بكر الحفصي فلما فقدها أبو الحسن بقي في نفسه منها حنين الى ما شغفته به من خلالها ولذاذة العيش في عشرتها فسما أمله من الاعتياض عنها ببعض أخواتها ، فأوفد في خطبتها وليسه عريف بن يحيى أمير عرب سويد من بني زغبة الهلاليين وكاتب الجبايسة والعسكر بدولته أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وفقيه الفتوى بمجلسه أبا عبد الله محمد بن سليمان السطي ومولاه عنبر الخصي ، فوفدوا على السلطان أبي بكر سنة ست وأربعين وسبعمائة فأنزلهم منزل البر والكرامة ثم دس اليه حاجبه أبو محمد عبد الله بن تافراجين غرض وفادتهم وانهم قدموا خاطبين بعض كرائمه لسلطانهم فأبى من ذلك صونا لحرمه عن جولة الاقطار وتحكم الرجال مثل ما وقع في ابنته الاولى ، فلم يزل حاجبه المذكور يخفض عليه الشأن ويعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته مع ما بينهما من الصهر السابق والمخالصة القديمة والعهود المتأكدة الى أن أجاب وأسعف وجعل ذلك للحاجب المذكور فانعقد الصهر بين السلطانين على ابنته عزونة شقيقة ابنه أبي العباس الفضل بن أبي بكر صاحب بونة ، وأخذ الحاجب في شوار العرس وتأنق فيه واحتفل واستكثر وطال مقام الرسل بتونس الى أن استكمل الجهاز فارتحلوا منها في ربيع سنة سبع وأربعين وسبعمائة وأوعز السلطان أبو بكر الى ابنه الفضل شقيق العروس المذكورة أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياما بحقه وبعث من بابه جماعة من مشيخة الموحدين فوفدوا جميعا على السلطان أبي الحسن واتصل بهم الخبر في طريقهم بوفاة السلطان أبي بكر فجأة ليلة الاربعاء ثاني رجب من السنة المذكورة ، فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عند ما وصلوا اليه واستبلغ في اكرامهم وأجمل موعد

أخيها الفضل بسلطانه ومظاهرته على تراث أبيه فاطمأنت به السدار عند السلطان أبى الحسن الى أن سار فى جملته وتحت لوائه الى افريقية كما نذكره ان شاء الله

غزو السلطان ابى الحسن افريقية واستيلاؤه على تونس واعمالها

كان السلطان أبو بكر الحفصى رحمه الله قد عهد بالامر بعده لابنه أبى العباس أحمد ، وكان أوفد على السلطان أبى الحسن حاجبه أبا القاسم بن عتوا فى غرض له وأصحبه كتاب العهد الى السلطان المذكور ليوافق عليه فوقف عليه السلطان أبو الحسن وكتب على حاشيته بخطه ووافق عليه رحمه الله وأحكم العقد فى ذلك ، ولما مات السلطان أبو بكر كان ولى العهد غائبا عن الحضرة فبايع أبو محمد بن تافراجين لابنه عمر .

ذكر الشيخ أبو العباس الوانشريسى فى أقضية «المعيار» عن الشيخ ابن عرفة أن سلطان افريقية أبا بكر الحفصى كتب العهد لولده أحمد فلما توفى السلطان المذكور أحضر أبو محمد بن تافراجين قاضى تونس قاضى الجماعة أبا عبد الله محمد بن عبد السلام وقاضى الانكحة أبا عبد الله الاجمى وأمرهما أن يبايعا ولد الخليفة عمر فقالا : « كيف نبايعه ونحن شهدنا ببيعة أخيه احمد والتزمناها » وكان الحاجب ابن تافراجين نبيلا فلما رأى امتناعهما قال : «ادخلا دار السلطان واشتغلا بغسله وتكفينه» فلما دخلا أحضر الحاجب المذكور أهل العقد والحل وأمرهم أن يبايعوا عمر فبايعوه ، فلما خرج القاضيان وجدا البيعة قد حصلت وكان فى انتظار أحمد المشهود له بالعهد وهو غائب بقفصة خوف الفتنة فبايع القاضيان ، وكان ابن عرفة يستصوب فعل الحاجب وامتناع القاضيين أولا وبيعتهما ثانيا ، ثم قدم ولى العهد ووقع بينه وبين أخيه قتال وجرت خطوب كان فى آخرها قتل ولى العهد وقتل وليه

أبي الهول بن حمزة أمير الكعوب من عرب سليم في ءاخرين منهم وقطع عمر أيضا أخويه عبد العزيز وخالدا من خلاف فهلكا ، وكان الحاجب أبو محمد ابن تافراجين قد أحس بالشر من جهة عمر المتغلب وتوقع النكبة من جانبه فتسلل الى قصره وأخذ ما خف من ذخيرته ولحق بالسلطان أبي الحسن وقص عليه الخبر وأغراه بتملك افريقية وأوجب عليه النظر للمسلمين فيها وكان السلطان أبو الحسن يتمنى ذلك لولا مكان صهره أبي بكر فأقام يتحين لها الاوقات ويترقب لها الفرص حتى كانت هذه ، (وانما تنجع المقالة في المرء اذا صادفت هوى في الفؤاد) فأظهر أبو الحسن الامتعاض لما فعله عمر بأخيه ولي العهد من منعه من حقه أولا ثم اراقة دمه ثانيا لاسيما وقد كان أعطى خط يده بالموافقة على العهد المذكور ، فأجمع الحركة الى افريقية ولحق به خالد بن حمزة بن عمر أخو أبي الهول المقتول مع ولي العهد فاستمداه على عدوه ، ففتح السلطان أبو الحسن ديوان العطاء ونادى في الناس بالمسير الى افريقية وأزاح عللهم وعسكر بظاهر تلمسان ثم نهض في صفر من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة يجر الدنيا بما حملت ، بعد أن عقد لابنه الامير أبي عنان على المغرب الاوسط وعهد اليه بالنظر في أموره كافة وجعل اليه جبايته وقدمت عليه في طريقه أعراب افريقية وولاة قابس وبلاد الجريد وأطاعته طرابلس والزاب وبجاية وصاحبها يومئذ أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء ابن ابي بكر ولما وصل الى قسنطينة خرج اليه ابناء الامير أبي عبد الله بن أبي بكر فبايعوه فأقبل عليهم وصرفهم الى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها ، وأنزل بقسنطينة خلفاءه وعماله وقد كان صرف أبا عبد الله صاحب بجاية الى ندرومة فأنزله بها وأقطعه الكفاية من جبايتها ، ثم وفد عليه بنو حمزة بن عمر أمراء الكعوب من سليم فأخبروه باجفال عمر المتغلب بتونس مع ظاعنة أولاد مهلهل واستحثوه في اعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر ، فسرح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو بن يحيى العسكري

وتلوم السلطان أبو الحسن بقسنطينة وعرض جيوشه بسطيح الجعاب منها ، ثم ارتحل على أثرهم وأغذ حمو بن يحيى السير مع ناجعة أولاد أبي

الليل فلحقوا بعمر صاحب تونس بارض الحامة من ناحية قابس فدافعوا عن أنفسهم بعض الشيء ثم انهزموا وكبا بعمر جواده في نافقاء بعض اليرابيع وانجلى الغبار عنه وعن مولاه ظافر راجلين فتقبض عليهما وأوثقهما قائد العسكر بيده حتى اذا جن الليل ذبحهما خوفا من أن تفتكهما العرب من يده وبعث برأسيهما الى السلطان أبي الحسن فوصلا اليه بباجة وخلص الفل من تلك الوقعة الى قابس ، فتقبض عبد الملك بن مكي صاحبها على رجالات من أهل الدولة كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر ابن موسى من رجالات سدويكش وغيرهما من أعيان الدولة ، فبعث بهم ابن مكي الى السلطان أبي الحسن مقرنين في الاصفاد فأما ابن عتو وصخر بن موسى وعلى بن منصور فقطعهم من خلاف لفتيا الفقهاء بجرايتهم واعتقل الباقي

وسرح السلطان عساكره الى تونس وعقد عليهم لصهره على ابنته يحيى ابن سليمان من بني عسكر فاحتلوا بتونس ، ثم جاء السلطان على أثرهم فنزل بظاهرها يوم الاربعاء الثامن من جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وتلقاه وفد تونس وشيوخها من أهل الفتيا وأرباب الشورى فآتوه طاعتهم وانقلبوا مسرورين بولايته مغتبطين بملكته ، وكانت تونس يومئذ مشحونة بالاعلام الاكابر منهم ابن عبد السلام وابن عرفة وابن عبد الرفيع وابن راشد القفصي وابن هرون وأعلام آخرون ، ثم عبا السلطان أبوالحسن يوم السبت مواكبه لدخول الحضرة فصف جنوده سماطين من معسكره بسيجوم الى باب البلد نحو أربعة أميال وركبت بنو مرين من مراكزهم من بجموعهم وتحت راياتهم ، وركب السلطان من فسطاطه وعن يمينه وليه عريف بن يحيى كبير سويد ويليه أبو محمد عبد الله بن تافراجين وعن يساره الامير أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء وهو أخو السلطان أبي بكر ويليه الامير أبو عبد الله ابن أخيه خالد كانا معتقلين بقسنطينة فأطلقهما السلطان أبو الحسن وصحبوه الى تونس فكانوا طراز ذلك الموكب فيمن لا يحصى من أعياص بني مرين وكبرائهم ، وهدرت طبوله وخفقت راياته

وكانت يومئذ نحو المائة وجاء السلطان والمواكب تجتمع عليه صفاصفا الى أن وصل الى البلد وقد ماجت الارض بالجيوش ، قال ابن خلدون : وكان يوما لم ير مثله فيما عقلناه ، قلت : كان سن ابن خلدون يومئذ ست عشرة سنة لانه ولد غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة

وكان قدم فى جملة السلطان أبى الحسن جماعة كبيرة من أعلام المغرب كان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه ثم دخل القصر الخلافى وخلع على أبى محمد بن تافراجين وقرب اليه فرسا بسرجه ولجامه وطعم الناس بين يديه وانتشروا الى منازلهم ثم دخل السلطان أبو الحسن مع ابن تافراجين الى حجر القصر ومساكن الخلفاء فطاف عليها ودخل منها الى الرياض المتصلة بها المدعوة برأس الطابية فطاف على تلك البساتين وسرح نظره فيها واعتبر بحالها ثم أفضى منها الى معسكره وأنزل يحيى بن سليمان بقصبة تونس فى عسكر لحمايتها ثم ارتحل من الغد الى القيروان فجال فى نواحيها ووقف على آثار الاولين ومصانع الاقدمين والطلول الماثلة لصنهاجة والعبيديين والتمس البركة فى زيارة القبور التى تذكر للصحابة والسلف من التابعين والاولياء فى ساحتها ثم سار الى سوسة ثم الى المهدية ووقف على ساحل البحر منها وتطوف فى معالمهما ونظر فى عاقبة الذين كانوا من قبله أشد قوة وآثارا فى الارض واعتبر بأحوالهم ومر فى طريقه بقصر الاجم ورباط المنستير وانكفأ راجعا الى تونس فاحتل بها غرة رمضان من السنة ونزل المسالح على ثغور افريقية وأقطع بنى مرين البلاد والضواحى وأمضى اقطاعات العرب التى كانت لهم من قبل الحفصيين واستعمل على الجهات وخفتت الاصوات وسكنت الدهماء وانقبضت أيدى أهل الفساد وانقرض أمر الحفصيين فى هذه المدة الا أنه عقد على بونة لصهره الفضل ابن السلطان أبى بكر اكراما لصهره ووفادته عليه واتصلت ممالك السلطان أبى الحسن ما بين مسراته الى السوس الاقصى من هذه العدوة والى رندة من عدوة الاندلس ودخل المغرب بأسره فى طاعته وحذر ملوك مصر والشام مما شاع من بسطته وانفساح دولته ونفوذ كلمته والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده

والعاقبة للمتقين وقد كان الشعراء رفعوا اليه قصائد فى سبيل التهنئة بالفتح وكان سابق الحلبة يومئذ أبو القاسم الرحوى فى قصيدة يقول فى مطلعها

أجابك شرق اذ دعوت ومغرب فمكة هشت للقاء ويثرب

وهى طويلة تخطيناها اختصارا والله تعالى ولى التوفيق بمنه

انتقاض عرب سليم بافريقية على السلطان ابى الحسن وما نشأ عن ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على العرب الداخلين الى المغرب أن جمهورهم كان من بنى جشم بن معاوية بن بكر وبنى هلال بن عامر بن صعصعة وبنى سليم بن منصور ، وان الذين بقوا منهم بافريقية هم بنو سليم وبعض هلال وكان لهم استطالة على الدول واعتزاز عليها ، فكان ملوك الحفصيين يتألفونهم بالولايات والاقطاعات ونحو ذلك ، وكان السلطان أبو الحسن المرينى حاله مع عرب المغرب الاقصى غير حال الحفصيين مع عرب افريقية وملكته لاهل باديته غير ملكتهم لاهل باديتهم ، فلما ورد افريقية واستولى عليها رأى من اعتزاز العرب بها على الدولة وكثرة اقطاعاتهم من الضواحى والامصار ما تجاوز الحد المعتاد عنده ، فأنكر ذلك وضرب على أيديهم وعوضهم عنه باعطيات فرضها لهم فى الديوان من جملة الجند واستكثر جباياتهم فنقصهم الكثير منها ، ثم شكا اليه الرعية من أولائك العرب وما ينالونهم به من الظلامات وضرب الاتاوة التى يسمونها الخفارة فقبض أيديهم عن ذلك كله وتقدم الى الرعايا بمنعهم منها ، فارتابت العرب لذلك وفسدت ضمائرهم ونقلت وطأة الدولة المرينية عليهم فتربصوا بها وتحزبوا لها وتعاوت ذئابهم فى بواديهم فاجتمعوا وأغاروا على قياطين بنى مرين ومسالحهم فى ثغور افريقية حتى انهم أغاروا على ضواحى تونس فاستاقوا الظهر الذى كان فى مرعاها والسلطان يومئذ بها فعظم عليه ذلك وحقد على كبرائهم وأظلم الجو بينه وبينهم ، ثم وفد عليه أيام

الفطر من رجالاتهم خالد بن حمزة أمير بنى كعب وأخوه أحمد وخليفة بن عبد الله من بنى مسكين وابن عمه خليفة بن أبى زيد من أولاد القوس فأنزلهم السلطان أبو الحسن وأجمل لقاءهم مغضيا عما صدر من غوغائهم ، ثم رفع اليه عبد الواحد بن اللحيانى من أولاد الملوك الحفصيين انهم بعثوا اليه مع بعض حاشيته يطلبون منه الخروج معهم لينصبوه للامر بافريقية وانه خشي على نفسه بادرة السلطان فتبرأ اليه من ذلك ، فقامت قيامة السلطان أبى الحسن عند سماعه ذلك فأحضرهم وأحضر الحفصى معهم وقرره بما دار بينه وبينهم فبهتوا وأنكروا فوبخهم وأمر بهم فسحبوا الى السجن ثم فتح ديوان العطاء وعرض الجند لغزوهم وعسكر بسيجوم من ظاهر تونس وذلك بعد قضاء نسك الفطر من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة

واتصل الخبر بأولاد أبي‌الليل وأولاد القوس باعتقال وفدهم وجمع السلطان لغزوهم فضاقت عليهم الارض بما رحبت وانطلقوا فى أحيائهم يحزبون الاحزاب ويستثيرون الثوار وعطفوا على أعدائهم من أولاد مهلهل فوصلوهم بعد القطيعة وكانوا بعد مقتل سلطانهم عمر بن أبى بكر قد لحقوا بالقفر خوفا من أبى الحسن لانهم كانوا شيعة لعمر المذكور ، فلما وقع بين أبى الحسن وبين أولاد أبى الليل ما وقع ركب قتيبة بن حمزة اليهم ومعهأمه ونساء أولادها فتطارحوا عليهم ورغبوا اليهم فى الاجتماع معهم على‌الخروج على السلطان ومنابذته ، فكان أولاد مهلهل اليها مسرعين فارتحلوا معهم وتوافت أحياء سليم من بنى كعب وبنى حكيم بتوزر من بلاد الجريدفتذامروا وتصافوا وأهدروا الدماء بينهم وتبايعوا على الموت وصاروا نفسا واحدة على تباين أغراضهم وفساد ذات بينهم ، والتمسوا من أعياص الملك من ينصبونه للامر فدلهم بعض سماسرة الفتن على‌رجل من بنى عبد المومن وهو أحمد ابن عثمان بن أبى دبوس آخر ملوك بنى عبد المومن وكان يحترف بالخياطة فى توزر بعد ما طوحت به الطوائح فانطلقوا اليه وجاءوا به ونصبوه للامر وجمعوا له شيأ من الفساطيط والخيل والآلات والكسوة وأقاموا له رسم السلطان وعسكروا عليه بقياطينهم وحللهم وتحالفوا على نصره

ولما قضى السلطان أبو الحسن نسك عيد الاضحى من السنة المذكورة ارتحل من ساحة تونس يريد العرب فوافاهم بالموضع المعروف بالثنية بين بسيط تونس وبسيط القيروان فأجفلوا أمامه فاتبعهم وألح عليهم الى أن وصلوا الى القيروان فلما رأوا أن لا ملجأ لهم منه عزموا على الثبات له وتحالفوا على الاستماتة وكان عسكر السلطان أبي الحسن يومئذ مشحونا بأعدائه من بني عبد الواد المغلوبين على ملكهم ومغراوة وبني توجين وغيرهم ، فدسوا الى العرب أثناء هذه المناوشة بأن يناجزوا السلطان غدا حتى يتحيزوا اليهم ويجروا عليه الهزيمة فأجابوهم الى ذلك وصبحوا معسكر السلطان من الغد فركب اليهم في التعبية ، ولما تقابلوا تحيز اليهم الكثير ممن كان معه واختل مصافه فانهزم هزيمة شنعاء وبادر الى القيروان فدخلها فيمن معه من الفسل مستجيرا بها ودافع عنه أهلها ، وتسابقت العرب الى معسكره فانتهبوه بما فيه من المضارب والعدد والآلات ودخلوا فسطاط السلطان فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه ، وأحاطوا بالقيروان وزحفت اليها حللهم فدارت بها سياجا واحدا وتعاوت ذئابهم بأطراف البقاع وأجلب ناعق الفتنة منهم بكل قاع واضطرمت افريقية نارا ، وكانت الهزيمة يوم الاثنين سابع محرم من سنة تسع وأربعين وسبعمائة وبلغ الخبر الى تونس وكان السلطان قد خلف بها عند رحيله الكثير من أبنائه وحرمه ووجوه قومه وأمناء بيت ماله وبعض الحاشية من جنده فتحصنوا بالقصبة وأحاط بهم الغوغاء كي يستنزلوهم عنها فامتنعوا عليهم وكانوا بها أملك منهم ، وكان الامير أبو سالم ابراهيم بن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب في هذا التاريخ فوافاه الخبر قسرب القيروان فانفض معسكره ورجع الى تونس فكان معهم في القصبة ، ثم نزع أبو محمد بن تافراجين عن السلطان أبي الحسن وكان محصورا معه بالقيروان وكان قد سئم صحبته ومل خدمته لانه كان أيام حجابته للسلطان الحفصي مستبدا عليه مفوضا اليه في جميع أموره ، فلما استوزره السلطان أبو الحسن لم يجره على تلك العادة لانه كان قائما على أموره بنفسه وليس التفويض للوزراء من شأنه ، وكان ابن تافراجين يظن أنه سيكل اليه أمر

إفريقية وينصب معه لملكها الفضل ابن السلطان أبي بكر شقيق زوجته وربما زعموا أنه عاهده على ذلك فكان في قلبه من الدولة المرينية مرض وكان العرب أيام عزمهم على الخروج يفاوضونه بذات صدورهم فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان وحصاره بالقيروان احتالوا في أمر ابن تافراجين ، فبعثوا الى السلطان يطلبون منه بعثه اليهم ليفاوضوه في الرجوع الى الطاعة والانخراط في سلك الجماعة ، فاذن له فخرج اليهم ووصل يده بيدهم ولم يرجع الى السلطان أبي الحسن ، فقلدوه حجابة سلطانهم ابن أبي دبوس ثم سرحوه الى حصار من بالقصبة من بني مرين وطمعوا في الاستيلاء عليها وفض ختامها فسار ابن تافراجين اليها وانضم اليه أشياخ الموحدين في زعانف من الغوغاء وأحاطوا بالقصبة ، ثم لحق به ابن أبي دبوس فعاودوها القتال ونصبوا عليها المجانيق فامتنعت عليهم ولم يغنوا شيأ ، وابن تافراجين في أثناء ذلك يحاول الفرار بنفسه لاضطراب الامور واختلال الرسوم الى أن بلغه خلوص السلطان أبي الحسن من القيروان الى سوسة

وكان من خبره أن العرب بعد حصارهم اياه بالقيروان اختلفت كلمتهم لديه وكان قد دخل أولاد مهلهل في الافراج عنه واشترط لهم على ذلك أموالا ونذر بنو أبي الليل بذلك فاضطربت كلمتهم ودخل عليه قتيبة بن حمزة منهم بمكانه من القيروان زعيما بالطاعة فتقبله وأطلق أخويه خالدا وأحمد ومع ذلك فلم يطمئن اليهم ثم جاء اليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وخليفة بن أبي زيد وأبو الهول بن يعقوب من أولاد القوس وعاهدوه على الافراج عنه والقيام معه حتى يصل الى مأمنه فخرج معهم ليلا على التعبية وذؤبان العرب تطأ أذياله وضباعها تنوشه الى أن استقر بسوسة وأمن على نفسه وقد أتى النهب على جل ما كان معه ولما سمع ابن تافراجين وهو محاصر للقصبة بوصول السلطان الى سوسة تسلل من أصحابه وركب البحر الى الاسكندرية فأصبحوا وقد فقدوه فاضطرب أمرهم وارتاب سلطانهم ابن أبي دبوس لما علم بخبره فانفض جمعهم عن القصبة وأفرجوا عنها وخرج بنو مرين فملكوا البلد وخربوا منازل الحاشية بها ، ثم ركب السلطان أبو

الحسن من سوسة البحر فاحتل بتونس فى ربيع الاخر سنة تسع وأربعين وسبعمائة فاجتمع شمله واستتب أمره ، وكتب الى صاحب مصر فى التقبض على ابن تافراجين فأجاره بعض الامراء وانصرف لقضاء فريضة الحج واعتمل السلطان أبو الحسن فى اصلاح أسوار تونس وادارة الخندق عليها وأقام لها من الصيانة والحصانة رسما دفع به فى نحر عدوه وبقى له ذكره من بعده ثم أجلب العرب وسلطانهم ابن أبى دبوس على تونس ونازلوا أبا الحسن بها واستبلغوا فى حصاره وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان فعول عليهم ، ثم راجع بنو حمزة بصائرهم وصاروا الى مهادنته فعقد لهم السلم ودخل عليه عمر بن حمزة وافدا فحبسه حتى قبض اخوانه على أميرهم ابن أبى دبوس وقادوه اليه استبلاغا فى الطاعة وامحاضا للولاية، فتقبل فيئتهم وأودع ابن أبى دبوس السجن وعقد الصهر بينه وبين عمر بن حمزة فزوج ابنة عمر بابنه أبى الفضل ، واختلفت أحوال هؤلاء العرب على السلطان أبى الحسن فى الطاعة تارة والانحراف أخرى مدة اقامته بتونس الى أن كان ما نذكره والله غالب على أمره

انتقاض الاطراف وثورة ابى عنان بن السلطان ابى الحسن واستيلاؤه على المغرب

قد تقدم لنا أن السلطان أبا بكر الحفصي رحمه الله لما زوج ابنته من السلطان أبى الحسن بعث معها فى زفافها شقيقها أبا العباس الفضل بن أبى بكر وأن خبر وفاة والده أدركه وهو بالطريق ، ولما وصل الى السلطان أبى الحسن عزاه عن مصاب أبيه ووعده بالمظاهرة على ملكه فبقى عنده بتلمسان الى أن نهض فى صحبته الى افريقية فلما غلب السلطان أبو الحسن على بجاية وقسنطينة وارتحل الى تونس عقد له على بونة التى كان يلى عملها أيام أبيه فانقطع أمله وفسد ضميره وطوى على البث حتى اذا كانت نكبة القيروان

سما الى التوثب على ملك سلفه وكان أهل قسنطينة وبجاية قد سئموا ملكة بنى مرين وبرموا بولايتهم لمخالفتهم بعض العوائد التى كانت لهم مع الملوك الحفصيين ولان الصبغة الحفصية كانت قد رسخت فى نفوسهم جيلا بعد جيل فصعب عليهم نزعها

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل فى الارض يألفه الفتى   وحنينه أبدا لاول منزل

فأشرأبوا الى الثورة على المرينيين لما سمعوا بنكبة القيروان واتفق أن قدم قسنطينة ركب من أهل المغرب قاصدين الى السلطان أبى الحسن وكان فيهم عمال الجباية قدموا بجبايتهم عند راس الحول كما جرت به عادتهم فى ذلك ومعهم ابن صغير للسلطان اسمه عبد الله وفيهم وفد من رؤساء الفرنج بعثهم طاغيتهم بقصد التهنئة بفتح افريقية ومعهم تاشفين بن السلطان الذى أسر يوم طريف أطلقه الطاغية بعد أن أصابه خبال فى عقله وأرسل معه بهدية نفيسة وفيهم أيضا وفد من أهل مالى بعثهم السلطان منسا سليمان بقصد التهنئة أيضا فتوافت هؤلاء الوفود بقسنطينة وقد طم عباب الفتنة على افريقية فأراد غوغاؤها انتهاب ما معهم ثم تخلصوا منهم فى خبر طويل

وفى أثناء ذلك ثار الفضل بن السلطان ابى بكر صاحب بونة فراسله أهل قسنطينة فى القدوم عليهم والقيام بأمرهم فقدمها وجرت خطوب واتصل بأهل بجاية ما فعله أهل قسنطينة فتبعوهم على رأيهم من الانتقاض ووثبوا على من كان عندهم من حامية بنى مرين فاستلبوهم وأخرجوهم عراة واستدعوا الفضل بن أبى بكر من قسنطينة فبادر اليهم واستولى على بجاية واستتب أمره بها وأعاد ألقاب الخلافة وبينما هو يحدث نفسه بغزو تونس ثار عليه أبناء أخيه أبى عبد الله بن أبى بكر فانتزعوا منه بجاية وردوه الى عمله الاول وانتقض على السلطان أبى الحسن أيضا سائر زناتة من بنى عبد الواد ومغراوة وبنى توجين وبايع بنو عبد الواد لعثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ابن زيان وساروا الى تلمسان فاستجدوا بها ملك سلفهم فى أخبار طويلة

وجرت هذه الخطوب والسلطان أبو الحسن مقيم بتونس تغاديه العرب

بالقتال وتراوحه وتعوج عليه تارة وتستقيم أخرى وطال مقامه بها وعميت أنباؤه على أهل المغرب وحدث في الخلق الوباء العظيم الذى عم المشـــرق والمغرب فارجف بموته واضطربت الاحوال بالمغارب الثلاثة الادنى والاوسط والاقصى واتصل ذلك بالامير أبى عنان وهو يومئذ بتلمسان كان أبوه قد ولاه عليها عند ذهابه الى افريقية حسبما مر ، فلما أرجف بمهلك أبيه وتساقط اليه الفل من عسكره عراة زرافات ووحدانا تطاول الى الاستئثار بملك أبيه دون سائر اخوته وكان مرشحا عنده لذلك لمزيد فضله عليهم فى غير وصف ، واتفـــق أن كان عنده رجل من بنى عبد الواد اسمه عثمان بن يحيى بـن محمد بـن جرار وكان ينسب الى علم الحدثان ، ولما سافر السلطان الى افريقية كان هذا الرجل أول المرجفين به وانه لايرجع من سفرته وأن الامر صائر الى أبـى عنان ونجع ذلك فى أبى عنان لموافقته هواه ، فاشتمل على ابن جرار وخلطه بنفسه فلما ورد الخبر بنكبة السلطان وانحصاره أولا بالقيروان ثم بتونس لـم يسترب أبو عنان فى صدق ابن جرار وانه على بصيرة من أمره فتحفز للوثبة وصمم على الثورة ، ثم أكد عزمه على ذلك ما اتصل به من خبر ابن أخيـــه منصور بن أبى مالك عبد الواحد بن أبى الحسن بفاس الجديد وانه ثار بها وفتح ديوان العطاء واستلحق واستركب ورام التغلب على المغرب واحتيـــاز الامر لنفسه دون غيره وورى فى ذلك بأنه انما عزم على الذهاب الى افريقيـــة لاستنقاذ السلطان من هوة الحصار يسر من ذلك حسوا فـى ارتغاء وتفطـن لشأنه الحسن بن سليمان بن يرزيكن عامل القصبة بفاس وصاحب الشرطة بالضواحى ، فاستأذنه فى اللحاق بالسلطان فأذن له راحة منه فلحق بأبى عنان على حين أمضى عزيمته على التوثب فأخرج ما كان بقصر السلطان بالمنصورة من المال والذخيرة وجاهر بالدعاء لنفسه وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره فى ربيع الثانى من سنة تسع وأربعين وسبعمائة فبايعه الملأ وقرأ كتاب بيعتهم على الاشهاد ، ثم بايعه العامة وانفض المجلس وقد استتب سلطانه ورســـت قواعد ملكه وركب فى التعبية والالة حتى نزل بقبة الملعـب وطعـم النـــاس وانتشروا وعقد على وزارته للحسن بن سليمان بن يرزيكن القادم عليه ، ثم

لفارس بن ميمون بن وردار وجعله رديفا له ورفع مكان ابن جرار عليهم كلهم واختص لمناجاته كاتبه أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمرو ، ثم فتح الديوان وجعل يستركب كل من تساقط اليه من قبل أبيه ويخلع عليهم وارتحل الى المغرب وعقد على تلمسان لابن جرار وأنزله بالقصر القديم منها فاستمر بها واستبد الى أن قدم عليه بنو عبد الواد مجتمعين على سلطانهم عثمان ابن عبد الرحمن فقتلوه غرقا فى خبر طويل ، ولما انتهى الامير أبو عنان الى وادى الزيتون وشى اليه بالوزير الحسن بن سليمان وانه عازم على الفتك به بتازا تقربا الى السلطان أبى الحسن ووفاء بطاعته ، وانه قد داخل فى ذلك حافده منصور بن أبى مالك الثائر بفاس وأطلعه هذا الواشى على كتاب الوزير فى ذلك فلما قرأه تقبض عليه ثم قتله خنقا فى مساء ذلك اليوم وأغذ السير الى المغرب

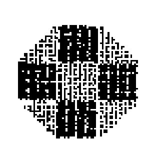
وانتهى الخبر الى منصور صاحب فاس فزحف للقائه والتقى الجمعان بوادي أبى الاجراف من ناحية تازا فاختل مصاف منصور وانهزمت جموعه ولحق بفاس الجديد فتحصن بها وتبعه أبو عنان فأناخ عليه خارجها وقد تسايل الناس على طبقاتهم اليه وآتوه طاعتهم وكان قد سلك مع الرعية والجند من البذل والاستيلاف طريقا لم يسبق اليه ، وكانت منازلته لفاس الجديد فى ربيع الاخر من السنة المذكورة فأخذ بمخنقها وأجمع الايدى والفعلة على الالات لحصارها ، ثم أرسل الى مكناسة باطلاق أولاد أبى العلاء المعتقلين بالقصبة منها فأطلقوا ولحقوا به وحاصروا معه فاس الجديد وضيقوا عليها الى أن ضاقت أحوال أهلها واختلفت أهواؤهم ونزع الى أبى عنان أهل الشوكة منهم ، ثم أن ادريس بن عثمان بن أبى العلاء احتال فى فتح البلد بأن أظهر النزوع عن أبى عنان الى منصور المحصور فدخل البلد وتمكن منه وثار به فيمن معه من حاشيته واقتحمه الامير أبو عنان عليهم ونزل منصور على حكمه فاعتقله الى أن قتله بمحبسه واستولى على ذلك الملك ، وتسابقت اليه وفود الامصار للتهنئة بالبيعة وتمسك أهل سبتة بطاعة السلطان أبى الحسن ثم رجعوا عن ذلك وثاروا على عاملهم عبد الله بن على بن سعيد من طبقة الوزراء

فقبضوا عليه وقادوه الى أبي عنان مبايعين له متقربين به اليه وتولى كبر ذلك
فيهم زعيمهم الشريف أبا العباس أحمد بن محمد بن رافع الصقلى من آل
الحسين السبط رضى الله عنه كان سلفه قد انتقلوا من صقيلة الى سبتة
فاستوطنوها ، ثم استوطنوا بعدها حضرة فاس واستوسق
للامير أبى عنان ملك المغرب واجتمع اليه قومه من بنى مرين الا
من أقام مع أبيه بتونس وفاء بحقه وحص جناح أبيه عن الكرة على بنى كعب
الناكثين لعهده الناكبين عن طاعته فاقام السلطان أبو الحسن رحمه الله بتونس
يرجو الايام ويأمل الكرة والاطراف تنتقض والخوارج تتجدد وقنط من كان
معه من حاشيته وسئموا المقام بارض ليست لهم بدار مقام فحسنوا له النهوض
الى المغرب فأسعفهم وعزم على الرحلة كما نذكره ان شاء الله ، وفى هذه
المدة كتب اليه السلطان ابو الحجاج يوسف بن الاحمر كتابا من انشاء وزيره
لسان الدين ابن الخطيب يسائله عن أحواله ويعزيه عن مصابه ويتأسف له
ونص الكتاب : « المقام الذى أقمار سعده فى انتظام واتساق ، وجياد عزمه
الى الغاية القصوى ذات استباق ، والقلوب على حبه ذات اتفاق ، وعناية الله
تعالى عليه مديدة الرواق ، وأياديه الجمة فى الاعناق الزم من الاطواق، وأحاديث
مجده سمر النوادى وحديث الرفاق ، مقام محل ابينا الذى شأن قلوبنا الاهتمام
بشأنه ، وأعظم مطلوبنا من الله تعالى سعادة سلطانه ، السلطان الكذا ابن
السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى والصنائع الالهية تحط
ببابه والالطاف الخفية تعرس فى جنابه والنصر العزيز يحف
بركابه وأسباب التوفيق متصلة باسبابه والقلوب الشجية
لفراقه مسرورة باقترابه ، معظم سلطانه الذى له الحقوق المحتومة ، والفواضل
المشهورة المعلومة ، والمكارم المسطورة المرسومة والمفاخر المنسوقة المنظومة
الداعى الى الله تعالى فى وقاية ذاته المعصومة وحفظها على هذه الامة المرحومة
الامير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن
نصر سلام كريم ، طيب عميم ، كما سطعت فى غياهب الشدة انوار الفرج
وهبت نواسم ألطاف الله عاطرة الارج ، يخص مقامكم الاعلى ورحمة الله

وبركاته ، أما بعد حمد الله جالي الظلم بعد اعتكارها ، ومقيل الايام من عثارها ومزين سماء الملك بشموسها المحتجبة وأقمارها ، ومريح القلوب من وحشة افكارها ، ومنشي سحاب الرحمة على هذه الامة بعد افتقارها ، وشدة اضطرابها واضطرارها ، ومتداركها باللطف الكفيل بتمهيد اوطانها وتيسير أوطارهـــا والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله صفوة النبوةومختارها ، ولباب مجدها السامي ونجارها، نبي الملاحم وخائض تيارها، ومذهب رسومالفتن ومطفيء نارها ، الذى لم ترعه الشدائد باضطراب بحارها ، حتى بلغت كلمـــة الله ما شاءتمن سطوع انوارها ، ووضوح اثارها والرضا عن آله واصحابـــه الذين تمسكوا بعهده على احلاء الحوادث وامرارها وباعوا نفوسهم فى اعلاء دعوته الحنيفية واظهارها والدعاء لمقامكم الاعلى باتصال السعادة واستمرارها وانسحاب العناية الالهية واسدال استارها حتى تقف الايام ببابكم موقسف إعتذارها وتعرض على مثابتكم ذنوبها راغبة فى اغتفارها فانا كتبناه اليكسم كتب الله تعالى لكم أوفى ما كتب لصالحي الملوك من مواهب السعادة وعرفكسم عوارف الآلاء فى اصدار أمركم الرفيع وايراده وأجرى الفلك الدوار بحكم مراده وجعل لكم العاقبة الحسنى كما وعد به فى محكم كتابه المبين للصالحين من عباده من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وليس بفضل الله الذى عليه فى الشدائد الاعتماد . والى كنف فضله الاستناد ثم ببركة جاه نبينا الذى وضح بهدايته سبيل الرشاد الا الصنائع التى تشام بوارق اللطف من خلالهـا وتخبــسر سيماها بطلوع السعود واستقبالها وتدل مخايل يمنها على حسن مآلها لله الحمد على نعمه التى نرغب فى كمالها وتستدر عذب زلالها وعندنـا مـن الاستبشار باتساق أمركم وانتظامه والسرور بسعادة أيامه والدعاء الى الله تعالى فى اظهاره واتمامه ما لاتفى العبارة باحكامه ولا تتعاطى حصر أحكامه والى هذا أيد الله تعالى أمركم وعلاه وصان سلطانكم وتولاه فقد علمالحاضر والغائب وخلص الخلوص الذى لاتغيره الشوائب ما عندنا من الحب الذى وضحت منه المذاهب وانه لما اتصل بنا ما جرت به الاحكام من الامور التى صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعصمة وجعل على العباد والبلاد الوقاية

والنعمة لايستقر بقلوبنا القرار ولا تأتي بأوطاننا الاوطار تشوفا لما تتيحه لكم الاقدار ويبرزه من سعادتكم الليل والنهار ورجاؤنا في استئناف سعادتكم يشتد على الاوقات ويقوى علما بأن العاقبة للتقوى وفي هذه الايام عميت الانباء وتكالبت في البر والبحر الاعداء واختلفت الفصول والاهـــواء وعاقت الوارد الانواء وعلى ذلك من فضل الله الرجاء ولو كنا نجدللاتصال بكم سببا أو نلقى لاعانتكم مذهبا لما شغلنا البعد الذي بيننا اعترض والعدو بساحتنا في هذه الايام ربض وكان خديمكم الذي رفع من الوفاء راية خافقة واقتنى منه في سوق الكساد بضاعة نافقة الشيخ الاجل الاوفى الاود الاخلص الاصفى على أبو محمد ابن آجانا سنى الله مأموله وبلغه من سعادة أمركم سؤله وقد ورد على بابنا وتحيز الى اللحاق بجانبنا ليتيسر له مـن جهتنا القـدوم ، ويتأتى له باعانتنا الغرض المروم فبينما نحن ننظر في تتميم غرضه واعانته على الوفاء الذي قام بمفترضه اذ اتصل بنا خبر قرقورتين من الاجفان التى استعنتم بها على الحركة والعزمة المقترنة بالبركة حطت احداهما بمرسى المنكسب والاخرى بمرسى المرية في كنف العناية الالهية فتلقينا من الواصلين فيهـا الانباء المحققة بعد التباسها والاخبار التى يغنى نصها عن قياسها وتعرفنا مـا كان من عزمكم على السفر وحركتكم المقرونة باليـمن والظـفر وانكـم استخرتم الله تعالى في اللحاق بالاوطان التى يؤمن قدومكم خائفها ويؤلـف طوائفها ويسكن راجفها ويصلح أحوالها ويذهب أهوالها وانكم سبقتـم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور والسعـد الموفـور واليمـن الرائق السفور والاسطول المنصور فلا تسألـوا عـن انبعاث الآمال بعـد سكونها ونهوض طيور الرجاء من وكونها واستبشار الامة المحمدية منكـم بقرة عيونها وتحقق ظنونها وارتياح البلاد الى دعوتكم التى ألبستها ملابس العدل والاحسان وقلدتها قلائد السير الحسان وما منها الا من باح بمايخفيه من وجده وجهر بشكر الله تعالى وحمده وابتهل اليه في تيسير غـرض مقامكم الشهير وتتميم قصده واستئناس نور سعده وكم مطـــل الانتظـــار بديون آمالها والمطاولة من اعتلالها وأما نحن فلا تسألوا عمن استشعـر دنـــو

حبيبه بعد طول مغيبه انما هو صدر راجعه فؤاده وطرف ألفه رقاده وفكر ساعده مراده فلما بلغنا هذا الخبر بادرنا الى انجاز ما بذلنا لخديمكم المذكور من الوعد واغتنمنا ميقات هذا السعد ليصل سببه بأسبابكم ويسرع لحاقه بجنابكم فعنده خدم نرجو أن ييسر الله تعالى بحوله أسبابها ويفتح بنيتكم الصالحة أبوابها وقد شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذى ندين له بالتشييع الكريم الوداد ونصل له على بعد المزار ونزوح الاقطار سبب الاعتداد ما يغنى عن القلم والمداد وقد ألقينا اليه من ذلك كله ما يلقيه الى مقامكم الرفيع العماد وكتبنا الى من بالسواحل من ولاتنا نحد لهم ما يكون عليه عملهم فى برمن يرد عليهم من جهة أبوتكم الكريمة ذات الحقوق العظيمة والايادى الحديثة والقديمة وهم يعملون فى ذلك بحسب المراد وعلى شاكلة جميل الاعتقاد ويعلم الله تعالى اننا لو لم تعق العوائق الكبيرة والموانع الكثيرة والاعداء الذين غصت بهم فى الوقت هذه الجزيرة ما قدمنا عملا على اللحاق بكم والاتصال بسببكم حتى نوفى لابوتكم الكريمة حقها ونوضح من المسرة طرقها لكن الاعذار واضحة وضوح المثل السائر والى الله تعالى نبتهل فى أن يوضح لكم من التيسير طريقا ويجعل لكم السعد مصباحا ورفيقا ولا يعدمكم عناية منه وتوفيقا ويتم سرورنا عن قريب بتعريف أنبائكم السارة وسعودكم الدارة فذلك منه سبحانه غاية آمالنا وفيه أعمال ضراعتنا وابتهالنا هذا ما عندنا بادرنا لاعلامكم به أسرع البدار والله تعالى يوفد علينا أكرم الاخبار بسعادة ملككم السامى المقدار وييسر ما له من الاوطار ويصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته » اهـ



ركوب السلطان ابى الحسن البحر من تونس الى المغرب وما جرى عليه من المحن في ذلك

كان الامير أبو العباس الفضل أبو السلطان أبي بكر الحفصي بعد أن لحق بعمله القديم من بونة قد وفد عليه مشيخة العرب من أولاد أبي الليل وأغروه بملك افريقية والنهوض الى تونس ومحاصرة السلطان أبي الحسن بها فأجابهم الى ذلك ونهض اليها بعد عيد الفطر سنة تسع وأربعين وسبعمائة فحاصرها مدة ثم انفض عنها ثم عاود حصارها ، ثم انفض عنها ودخل القفر مع أولاد أبي الليل الى أن بايعه أهل بلاد الجريد باشارة أبي القاسم بن عتو المقطوع ، ودخل في طاعته توزر وقفصة ونفطة والحامة وقابس وجربة وانتهى الخبر الى السلطان أبي الحسن باستيلاء الفضل على هذه الامصار واستفحال أمره بها وانه ناهض الى تونس فاهمه شأنه وخشي على الامر ، وكانت بطانته توسوس اليه بالرحلة الى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه مع ما أصابهم بتونس من الغلاء والموت الذريع فأجابهم الى ذلك وشحن أساطيله بالاقوات وأزاح علل المسافرين ، ولما قضى نسك عيد الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ركب البحر في فصل الشتاء وهيجان البحر وكلب البرد بعد أن عقد لابنه أبي الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين عمر بن حمزة من المصاهرة وتفاديا بمكانه من معرة الغوغاء وثورتهم به ، وكانت مدة محاصرة السلطان أبي الحسن بتونس سنة ونصفا ، واتصل خبر رحيله بالفضل بن أبي بكر وهو ببلاد الجريد فاغد السير الى تونس ونزل بها على أبي الفضل المريني ومن كان معه من حاشيته وأهل دولته ثم اقتحمها واتصلت يده بيد أهل البلد ثم أحاطوا بالقصبة يوم منى حتى استنزلوا أبا الفضل على الامان فخرج الى دار أصهاره من بني حمزة فبقي عندهم حتى أنفذوا معه من أوصله الى أبيه فلحق به بثغر الجزائر

وأما السلطان أبو الحسن وجيشه الراكب البحر معه فانهم لما لججوا احتاجوا الى الماء فدخلوا مرسى بجاية لخمس ليال من اقلاعهم عن تونس

فمنعهم صاحب بجاية الحفصى من الورود وأوعز الى سائر سواحله بمنعهم فزحفوا الى الساحل وقاتلوا من صدهم عن الماء الى أن غلبوهم واستقوا وأقلعوا ثم عصفت بهم الريح فى تلك الليلة وجاءهم الموج من كل مكان وتكسرت الاجفان وغرق الكثير من بطانة السلطان وعامة الناس وقذف الموج بالسلطان فألقاه على حجر قرب الساحل من بلاد زواوة عارى الجسد مباشرا للموت ، وقد هلك من كان معه من الفقهاء والعلماء والكتاب والاشراف والخاصة وهو يشاهد مصارعهم واختطاف الموج لهم من فوق الصخور التى تعلقوا بها فمكثوا ليلتهم على ذلك وصبحهم جفن من بقية الاساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف فبادر أهل الجفن اليه حين رأوه فاحتملوه وقد تصايح به البربر من الجبال وتواثبوا اليه حين وضح النهار وأبصروه ، فتداركه الله بهذا الجفن فاحتملوه وقذفوا به فى مدينة الجزائر

وفى نفح الطيب أن أساطيل السلطان أبى الحسن كانت نحو الستمائة فغرقت كلها ونجا هو على لوح وهلك من كان معه من أعلام المغرب وهم نحو أربعمائة عالم منهم أبو عبد الله محمد بن سليمان السطى شارح الحوفى ، وأبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسى الذى أملى فى مجلس درسه بمكناسة على حديث يا أبا عمير ما فعل النغير أربعمائة فائدة ، والاستاذ الزواوى أبو العباس وغير واحد وكان غرق الاسطول على ساحل تدلس . وذكر الشيخ أبو عبد الله الابى فى شرح مسلم كلامه على أحاديث العين ما معناه : أن رجلا كان بتلك الديار معروفا باصابة العين فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبى الحسن أن يصيب أساطيله بالعين وكانت كثيرة نحو الستمائة فنظر اليها الرجل العائن فكان غرقها بقدرة الله الذى يفعل ما يشاء ونجى السلطان بنفسه وجرت عليه محن اه

ولما احتل بالجزائر وقد تمسك أهلها بطاعته استنشق ريح الحياة ولأم لصدع وأقام الرسم وخلع على من وصل اليه من فل الاساطيل واستلحق واستركب ولحق به ابنه الناصر من بسكرة والتف عليه بعض العرب من حواز الجزائر ووفد عليه أولياؤه من عرب سويد فنهض الى جهة تلمسان

وقد استولى عليها بنو زيان وسلطانهم عثمان بن عبد الرحمن فبرز اليه أبو ثابت أخو عثمان المذكور ولما التقى الجمعان اختل مصاف السلطان أبى الحسن واستبيح معسكره وانتهبت فساطيطه وقتل ابنه الناصر ، وظهر يومئذ من بسالته وصدق دفاعه وشدة حملاته حتى أنه اركب ظعائنه وخلص محاميا عنها واحتمل ولده جريحا فتوفى بالطريق فواراه فى التراب وأخفى قبره ، ثم خلص الى الصحراء مع وليه ونزمار بن عريف بن يحيى السويدى ولحق بحلل قومه قبلة جبل وانشريس وأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت عزه ودار ملكه فارتحل معه وليه ونزمار بالناجعة من قومه وخرجوا الى جبل راشد ثم قطعوا المفاوز الى سجلماسة فى القفر ، فلما أطلوا عليها وعاين أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت الفراش على ضوء السراج حتى خرج اليه العذارى مستورهن ميلا اليه ورغبة فى ولايته ، وفر العامل بسلجماسة الى منجاته

وكان الامير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصد أبيه سجلماسة نهض اليه فى قومه وجموعه بعد أن أزاح عللهم وأفاض عطاءه فيهم ، وكانت بنو مرين نافرة عن السلطان أبى الحسن حاذرة من عقوبته لجنايتهم بالتخاذل فى المواقف والفرار عنه فى الشدائد ولما كان يبعد بهم فى الاسفار ويتجشم بهم المهالك والاخطار فكانوا لذلك مجمعين على منابذته ومخلصين فى طاعة ابنه ، ولما اتصل خبر قدومهم بالسلطان أبى الحسن علم من حاله أنه لايطيق دفاعهم وكان ونزمار قد أجفل عنه فى قومه سويد لان أباه عريف بن يحيى كان قد نزع الى أبى عنان قبل قدوم السلطان من تونس فأكرم محله ورفع منزلته فكتب الى ابنه ونزمار ينهاه عن ولاية السلطان أبى الحسن ومظاهرته له وأقسم له لئن لم يفارق السلطان ليوقعن بابنه عنتر وكان معه فى جملة الامير أبى عنان فآثر ونزمار رضا أبيه وعلم أن غناءه عن السلطان فى وطن المغرب قليل فأجفل عنه ولحق ببسكرة فكان بها الى أن رجع الى أبى عنان بعد هذا ، ولما قرب أبو عنان من سجلماسة أجفل السلطان عنها الى ناحية مراكش ودخل أبو عنان سجلماسة فثقف أطرافها وسد فروجها وعقد عليها ليحتاتن بن عمر بن عبد المومن كبير بنى ونكاسن وبلغه أن أباه قد سار الى مراكش فاعتزم على اتباعه اليها فلم تطاوعه بنو مرين فرجع بهم الى فاس الى أن كان ما نذكره

استيلاء السلطان أبي الحسن على مراكش ثم انهزامه عنها إلى هنتاتة اهل جبل درن ووفاته هنالك

لما أجفل السلطان أبو الحسن عن سجلماسة سنة احدى وخمسين وسبعمائة قصد مراكش وركب اليها الاوعار من جبال المصامدة ، ولما شارفها تسارع اليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب ونسلوا اليه من كل حدب ، وفر عامل مراكش الى أبى عنان ونزع الى السلطان أبى الحسن صاحب ديوان الجباية أبو المجد بن محمد بن أبى مدين بما كان فى الخزانة من مال الجباية فاختصه واستكتبه وجعل اليه علامته ، واستركب واستلحق وجبى الاموال وبث العطاء ودخل فى طاعته قبائل العرب من جشم وسائر المصامدة ، وثاب له بمراكش ملك رجى معه أن يستولى على سلطانه ويرتجع فارط أمره

وكان أبو عنان لما رجع الى فاس عسكر بساحتها وشرع فى العطاء وازاحة العلل ، ثم ارتحل في جموع بنى مرين الى مراكش وبرز السلطان أبو الحسن للقائه وانتهى كل واحد من الفريقين الى وادى أم الربيع وتربص كل واحد بصاحبه عبور الوادى فعبره أبو الحسن ، وكان اللقاء بتامدغوست فى آخر صفر من سنة احدى وخمسين وسبعمائة فاختل مصاف السلطان وانهزم عسكره ، ولحق به أبطال بنى مرين ثم راجعوا عنه حياء وهيبة وكبى به فرسه يومئذ فى مفره فسقط الى الارض والفرسان تحوم حوله ، فاعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن على بن أحمد أمير الذواودة من عرب رياح ورديف أخيه يعقوب كان هاجر مع السلطان من الجزائر ولم يزل فى جملته الى هذا اليوم فدافع عنه حتى ركب وسار من ورائه ردأ له ، وأسر حاجبه علال بن محمد فأودعه أبو عنان السجن ثم امتن عليه بعد وفاة أبيه

وخلص السلطان أبو الحسن رحمه الله الى جبل هنتاتة من جبال درن ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن على الهنتاتى فنزل عليه وأجاره واجتمع اليه الملأ من قومه هنتاتة ومن انضاف اليهم من المصامدة وتآمروا وتعاهدوا

على المدافعة عنه وبايعوه على الموت وجاء أبوعنان على أثره حتى احتل بمراكش وأنزل عساكره على جبل هنتاتة ورتب المسالح لحصاره وحربه وطال عليه ثواؤه حتى طلب السلطان من ابنه الابقاء عليه وأن يبعث اليه حاجبه أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمر فحضر عنده وأحسن العذر عن الامير أبي عنان والتمس له الرضا منه فرضي عنه وكتب له بولاية عهده وأوعز اليه بأن يبعث له مالا وكسى فسرح الحاجب ابن أبي عمر باخراجها من المودع بدار ملكهم واعتل السلطان خلال ذلك فمرضه أولياؤه وخاصته وافتصد لاخراج الدم ثم باشر الماء للطهارة فورم محل الفصادة ومات رحمه الله في الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة (*) هكذا عند ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما ، والذي رأيته مكتوبا بالنقش على رخامة قبره بشالة أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ربيع الاول من السنة المذكورة وبعث أولياء السلطان بالخبر الى ابنه وهو بمعسكره من ساحة مراكش ورفعوه على أعواد نعشه اليه فتلقاه حافيا حاسرا ، وقبل أعواده وبكى واسترجع ورضي عن أوليائه وخاصته وأنزلهم بالمحل الذي رضوه من دولته ؛ ثم دفن أباه بمراكش قبلي جامع المنصور من القصبة بالموضع الذي به اليوم قبور الملوك الاشراف السعديين ، ثم لما نهض أبو عنان الى فاس احتمل شلو أبيه معه حتى دفنه بشالة مقبرة سلفهم ولا زال ضريحه قائم العين والاثر الى الان رحمه الله تعالى

بقية أخبار السلطان أبي الحسن وسيرته

كان السلطان أبو الحسن رحمه الله أسمر طويل القامة عظيم الهيكل معتدل اللحية حسن الوجه ، وكان عفا مائلا الى التقوى ، مولعا بالطيب لم يشرب الخمر قط لافي صغره ولا في كبره ، محبا للصالحين عدلا في رعيته

(*) حكى المؤلف قولا آخر في كتابه « كشف العرين عن ليوث بني مرين » انه مات مسموما ، وفي الروضة انه مات بذات الجنب والله أعلم .

يحب الفخر ويعنى به ، وقال بعض المشارقة في حقه ما صورته : «ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله ، وجرت الى المشرق أنواء نسواله وطابت نسماته واشتهرت عزماته كان حسن الكتابة كثير الانابة ذا بلاغة وبراعة وشهامة وشجاعة» . اه وبنى رحمه الله عدة مدارس منها المدرسة العظمى بمراكش قبلى جامع ابن يوسف ، قال العلامة اليفرني في «النزهة» : «ان الذى بناها هو السلطان أبو الحسن المذكور» قلت : «ومن وقف على هذه المدرسة وتأمل تنجيدها وتنميقها قدر قدر هذا السلطان وعلم عظم أهميته ومحبته للعلم وأهله» ومنها المدرسة العظمى بطالعة سلا قبلى المسجد الاعظم منها ، بناها رحمه الله على هيئة بديعة وصنعة رفيعة ؛ وأودع جوانبها من أنواع النقش وضروب التخريم ما يحير البصر ويدهش الفكر ، ووقف عليها عدة أوقاف رصع أسماءها بالنقش والاصباغ على رخامة عظيمة ثم نصب الرخامة بالحائط الجوفى منهسا كل ذلك محافظة على تلك الاوقاف أن تغير ، وأما المسجد الاعظم ومدرسته الجوفية فهما من بناء يعقوب المنصور الموحدى حسبما تقدم ذلك في أخباره وعندي أن السور المحمول عليه الماء الداخل الى سلا المعروف عندهم بسور الاقواس من بناء السلطان أبى الحسن رحمه الله ، ولى في ذلك مستند غريب: وهو أنى كنت ذات يوم أفاوض بعض القناقنة بسلا ممن كان يباشر أمر المياه بها ويصلح ما احتاج الى الاصلاح منها ، فقلت كالمستفهم لنفسى من غير قصد توجيه الخطاب اليه . يا ترى من الذى بنى سور الماء الداخل الى البلد ، فقال على البديهة : الذى بنى المدرسة هو الذى بنى سور الماء ، فقلت له وكنت متشوفا يومئذ لتحقيق ذلك . وما علمك بهذا ؟ فقال : ان بيلة المدرسة بنيت يوم بنيت المدرسة بدليل الزليج المرصوف حولها بالعمل الكبير الموجود نظيره في سائر حيطان المدرسة وسواريها ، وهذه البيلة لم تتغير عن حالها الى أن باشرت اصلاحها في هذه الايام ؛ فحفرت عن قنواتها وتتبعت مادة الماء الواصل اليهسا فاذا عمل تلك القوادس وصنعة بنائها حتى الكلس المفرغ عليها الجامع بينهسا مماثل لعمل قنوات مبنية بالسور المذكور ، داخلة فيه بحيث بنى عليها يوم تأسيسه من غير فرق بين هذه وتلك في جميع عملهما ، وليس شيء

من القنوات الحادثة بعدهما يشبههما، فعلمت أن الذي بناهما واحد فأعجبني كلامه وباحثته في ذلك فصمم على معتقده وحاولت تشكيكه بكل وجه فلم يتشكك فظهر لي صدق دليله وغلب على ظني ما جزم به وعند الله علم حقيقة الامر

واعلم أن هذا السور من المباني العادية والهياكل العظيمة التي تدل على فخامة الدولة وكمال قوتها مثل ما يقال عن حنايا قرطاجنة ونحوها ، وهذا السور مسوق من عيون البركة خارج مدينة سلا على أميال كثيرة ممتدا من القبلة الى الجوف على أضخم بناء وأحكمه ، موزون سطحه بالميزان الهندسي ليتأتى جريان الماء فوقه على استواء ولذلك ينخفض الى الارض متى ارتفعت ويعلو عنها اذا انخفضت ، ويجرى على متنه من الماء مقدار النهر الصغير في ساقية قد اتخذت له ، ولما شارف البلد عظم ارتفاعه جدا لاجل انخفاض الارض عنه وكلما مر في سيره بطريق مسلوك نتحت له فيه أقواس فسمي لذلك سور الاقواس ، وبالجملة فهو شاهد لبانيه بضخامة الدولة وعظم الهمة ،

وللسلطان أبي الحسن رحمه الله بفاس ومكناسة وغيرهما من بلاد المغرب آثار كثيرة ، فمن آثاره بفاس بيلة الرخام الابيض المجلوبة من المرية زنتها مائة قنطار وثلاثة وأربعون قنطارا ، سيقت من المرية الى مرسى العرائش ثم طلعت في وادي قصر كتامة ؟ ثم حملت على عجل الخشب تجرها القبائل الى منزل أولاد محبوب الذين على ضفة وادي سبو فوسقت فيه الى أن وصلت الى ملتقاه مع وادي فاس ، ثم حملت على عجل الخشب أيضا يجرها الناس الى أن وصلت الى مدرسة الصهريج التي بعدوة الاندلس ؟ ثم نقلت منها بعد ذلك بأعوام الى مدرسة الرخام التي أمر رحمه الله ببنائها جوف جامع القرويين المعروفة اليوم بمدرسة مصباح ، ومصباح هذا هو ابو الضياء مصباح ابن عبد الله الياصلوتي الفقيه المشهور ، وانما نسبت اليه لان السلطان أبا الحسن لما بناها كان أبو الضياء أول من تصدى للدرس بها فنسبت اليه وقد تقدم له خبر المدرسة التي بناها غربي جامع الاندلس ايام أبيه وانفق عليها اكثر من مائة الف دينار ، ومن آثاره بمكناسة الزيتون الزاويتان القدمى والجديدة وكان بنى القدمى في زمان أبيه والجديدة حين ولي الخلافة ، وله

في هذه المدينة عدة آثار سوى الزاويتين من القناطر والسقايات وغيرها ، ومن أجل ذلك المدرسة الجديدة بها وكان قدم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ولما تم بناؤها جاء اليها من فاس ليقف عليها ويرى عملها وصنعتها فقعد على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها ، وجيء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها ، فغرقها في الصهريج قبل أن يطالع ما فيها وأنشد :

لا بأس بالغالي اذا قيل حسن ليس لما قرت به العين ثمن

وكان له معرفة بالشعر فمن شعره قوله :

أرضي الله في سر وجهر وأحمي العرض عن دنس ارتياب
وأعطي الوفر من مالي اختيارا وأضرب بالسيوف طلى الرقاب

وأخباره كثيرة ومن أراد الوقوف على تفاصيلها فعليه بكتاب الخطيب بن مرزوق الذي ألفه في دولته وسيرته وسماه « المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبي الحسن » ولما ذكر الوزير ابن الخطيب في كتابه رقم الحلل هذا السلطان وصفه بقوله :

الملك المعدود من خير سلف ومجموع القول اذا القول اختلف
الدين والعفاف والجلاله والعز والقدرة والجزاله
والعلم والحلم وفضل الدين وصفوة الصفوة من مرين
ممهد الملك ومسدي المنن وواحد الدهر وفخر الزمن
باني المباني النخبة الشريفة بمقتضى همته المنيفه
وتارك المدارس الظريفه شاهدة بأنه الخليفه
وقاطع الدهر بغير لهو في مجلس معظم أو بهو
اما لتدريس وعلم يدرس أو لبلاد من عدو تحرس
أو لأياد في عباد تغرس أو لثواب ورضا يلتمس
أو نسخ قرآن وعرض حزب أو عدة معدة لحرب

ومن أعيان وزرائه عامر بن فتح الله السدراتي ، وعبد الله بن ابراهيم الفودودي ومن أعيان كتابه أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي

وابو محمد بن عبد الله بن ابى مدين العثمانى ، وابو الحسن على بن القبايلى التينملى رحم الله الجميع بمنه

ولنذكر ما كان من الاحداث في هذه المدة :

ففى سنة سبعمائة أسس السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق تلمسان الجديدة المسماة بالمنصورة حسبما تقدم الخبر عنها مستوفى

وفى سنة احدى عشرة وسبعمائة كان القحط بالمغرب فاستسقى الناس وخرج السلطان أبو سعيد ماشيا على قدميه لاقامة سنة الاستسقاء وذلك يوم الاربعاء الرابع والعشرين من شعبان من السنة المذكورة وتقدمت أمامه الصلحاء والفقهاء والقراء يدعون الله تعالى ، وقدم بين يدى نجواه صدقات ، وفرق اموالا ، وفى يوم السبت بعده خرج فى جنده الى قبر الشيخ ابى يعقوب الاشقر بجبل الكندرتين فدعا هنالك ورحم الله تعالى عباده وغاث ارضه وبلاده

وفى سنة تسع عشرة وسبعمائة توفى الشيخ أبو الحسن على بن محمد بن عبد الحق الزرويلى المعروف بالصغير بضم الصاد وفتح الغين وكسر الياء المشددة قاله ابن الخطيب فى الاحاطة ، وكان ربعة آدم اللون خفيف العارضين يلبس أحسن زى ، ويدرس بجامع الاجدع من فاس يقعد على كرسى عال ليسمع القريب والبعيد على انخفاض كان فى صوته وكان حسن الاقراء وقورا صبورا ثبتا ، وكان أحد الاقطاب الذين تدور عليهم الفتيا بالمغرب فيحسن التوقيع عليها على طريق الاختصار وترك فضول

---

* قد ذكر صاحب روضة النسرين بعض اولادالسلطان ابى الحسن فقال :« اولاده الذكور السلطان ابو عمر تاشفين والسلطان ابو عنانفارس والسلطان ابو سالم ابراهيم والسلطان ابو فارس عبد العزيز وابو مالك عبد الواحد وابو عبد الرحيم يعقوب وابو عامر عبد الله وسعود وداوود ويوسف وعبد الحق وابو غالب محمد وأحمد ومحمد المنتصر بالله ومحمد المسعود بالله . بناته : حضرية وام العز وتابو وتاعزنت وسونة وريمة وريامنة والزهراء وصفية وززوا وكان جميع ما ولد بين ذكر وانثى وسقط وغيره الفا وثمانمائة واثنين وستين اخبرنى بذلكثقته الشيخ المعمر علال بن محمد بن« مصمود الهسكورى ».

القول ولاه السلطان ابو الربيع القضاء بفاس وشد عضده فجرى فى العدل على صراطمستقيم ،

وفى سنة احدى وعشرين وسبعمائة توفى الشيخ أبو العباس احمد ابن محمد بن عثمان الازدى المراكشى المعروف بابن البناء الامام المشهور فى علم التعاليم والهيئةوالنجوم والازياج وغير ذلك ، وكان رحمه الله عز وجل معروفا باتباع السنة موسوما بطهارة الاعتقاد منعوتا بالصلاح وكان انتفاعه بصحبة الشيخ ابى زيد الهزميرى رضى الله عنه

وفى سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة فى ذى القعدة منها هبت ريح شديدةبفاس ومكناسة واحوازهما واستمر هبوبها يومين وليلتين فعاقت عن الاسفار وهدمت الدور وقلعت الاشجار .

وفى سنة ثلاث وعشرين بعدها فى المحرم منها جرت العين الموالية للمشرق من عيون صنهاجة باحواز فاس بدم عبيط من وقت العصر الى نصف الليل ثم عادت الى حالها وفيها كان المطر العظيم والثلج الكثير بالمغرب وعدم الفحم والحطب حتى بيع الفحم بفاس بدرهمين للرطل ، وفى جمادى الاولى منها احترق سوق العطارين الكبرى بفاس فجدده السلطان ابو سعيد من باب مدرسة العطارين الى رأس عقبة الجزارين ، وعقد عليه هنالك بابا ضخما وافرده للعطارين دون غيرهم

وفى سنة أربع وعشرين وسبعمائة كانت المجاعة بالمغرب وارتفعت الاسعار فى جميع البلاد فبلغ المد من القمح بفاس خمسة عشر درهما والصحفة منه تسعين دينارا وغلا الادام وعدمت الخضر بأسرها ، وكسى السلطان ابو سعيد واطعم فى هذه المسغبة شيأ كثيرا ، ودام ذلك الى قرب منتصف السنة بعدها ، وفيها فى يوم الثلاثاء ثالث عشر رمضان منها نشأ خارجفاس من جهة جوفيها سحاب عظيم وظلمة شديدة ورياح عاصفة أعقبذلك برد كثير عظيم الجرم تزن الواحدة منه ربع رطل واقل واكثر ونزل فى خلاله مطر وابل جاءت منه السيول طامية حملت الناس والدواب واهلكت جميع ما بجبل زالغ من الكروم والزيتون وسائر الشجر

وفي سنة خمس وعشرين بعدها ليلة الجمعة السادس والعشرين من جمادى منها دخل السيل العظيم مدينة فاس وكاد ياتي عليها بحيث هدم الدور والمساجد والاسواق واهلك ءالافا من الخلق حتى خيف على البلد التلف

وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة انتهى تاريخ ابن أبي زرع المسمى « بالانيس المغرب القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » ومما هو الغاية في باب الاغراب ما ذكره ابن خلدون قال : « حضر أشياخنا بمجلس السلطان ابي الحسن وقد رفع اليه امرأتان من اهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الاكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما الى ان ماتتا وذكرهما ايضا الشيخ ابو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري في كتابه المسمى بـ « المحاضرات » قال : « وردت على تلمسان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رندة لا تأكل ولا تشرب ولا تبول ولا تتغوط وتحيض فلما اشتهر هذا من امرها انكره الفقيه ابو موسى ابن الامام وتلي : «كانا ياكلان الطعام» فأخذ الناس يبثون ثقات نسائهم ودهاتهن اليهافكشفوا عنها بكل وجه يمكنهن فلم يقفن على غير ما ذكر ، وسئلت هل تشتهين الطعام ، فقالت : « هل تشتهون التبن بين يدي الدواب » وسئلت هل ياتيها شيء فاخبرت « انها صامت ذات يوم فادركها الجوع والعطش فنامت فأتاها آت في النوم بطعام وشراب فأكلت وشربت فلما أفاقت وجدت نفسها قد استغنت فهي على تلك الحال تؤتى في المنام بالطعام والشراب الى الان » ، ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عما عسى تجيء أمها به اذا أتت اليها أربعين يوما فلم يوقف لها على أمر ، قال : « بيد اني اردت ان يزاد في عدد العدول ويضم اليهم الاطباء ومن يخوض في المعقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم ويوكل من نساء الفرق من يبالغ في كشف من يدخل اليها ولا يترك احدا يخلو بها (وبالجملة) يبالغ في ذلك ويستدام رعيها عليه سنة لا حتمال ان يغلب عليها طبع فتستغني في فصل دون فصل ، ثم يكتب هذا في العقود

ويشاع أمره في العالم ، وذلك لانه يهدم حكم الطبيعة الذى هو اضر الاحكام على الشريعة ، ويبين كيفية غذاء أهل الجنة ، وأن الحيض ليس من فضلات الغذاء ويبطل التأثير والتولد ، ويوجب أن الاقترانات بالعادات لا باللزوم ، وعند الاسباب لابها الى غير ذلك ، الا انى لما أشرت بهذا انقسم من أشرت عليه بتبليغه الى من لم يفهم ما قلت ومن لم يرفع به راسا لايثار الدنيا على الدين فانا لله وانا اليه راجعون .

قال المقرى : « وقد ذكر أن أمرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة » وحدثنى غير واحد من الثقات ممن ادرك عائشة الجزرية انها كانت كذلك ، وان عائشة بنت أبى بكر يعنى زوجة السلطان ابى الحسن التى استشهدت فى طريف اختبرتها اربعين يوما ايضا وكم من آية أضيعت وحجة نسيت مما لم يعرف مثله قبل المائة الثامنة ، وكذلك الوباء العام القريب فروطه يوشك ان يطول أمره فينسى ذكره ويكذب المحدث به اذا انقضى عصره ، وكم فيه من ادلة على اصول الملة » اه كلام الشيخ ابى عبد الله المقرى رحمه الله ويعنى بالوباء القريب فروطه: وباء منتصف المائة الثامنة أيام كان السلطان أبو الحسن بتونس فانه كان وباء عظيما لم يعهد مثله قد عم أقطار الارض وتحيف العمران جملة حتى كاد ياتى على الخليقة أجمع والامور كلها بيد الله لايسئل عما يفعل وهم يسئلون

الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي عنان فارس بن ابي الحسن رحمه الله

كان السلطان محبوبا فى قومه وعشيرته ، أثيرا عند والده متميزا بذلك عن سائر اخوته لفضله وعمله وصيانته وعفافه واستظهار القرآن الكريم وغير ذلك من الاوصاف الحسنة ، أمه ام ولد رومية اسمها شمس الضحى وقبرها بشالة معروف الى الان رأيت مكتوبا عليه بالنقش : « انها توفيت ليلة السبت رابع رجب الفرد سنة خمسين وسبعمائة ، ودفنت اثر صلاة

الجمعةفي الخامس والعشرين من الشهر المذكور وحضر لدفنهما أعيان المشرق والمغرب » ، اهـ وكان مولد السلطان أبي عنان بفاس الجديد في الثاني عشر من شهر ربيع الاول سنة تسع وعشرين وسبعمائة وبويع في حياة والده يوم ثار عليه بتلمسان حسبما قدمنا الخبر عنه وذلك يوم الثلاثاء منسلخ ربيع الاول سنة تسع وأربعين وسبعمائة . ولما هلك والده أبو الحسن بجبل هنتاتة وانقضى شأن الحصار ارتحل السلطان أبو عنان الى فاس ونقل شلو أبيه الى شالة فدفنه بها ، وأغذ السير الى فاس وقد استتب أمره وخلا له الجو فاحتل بدار ملكه وأجمع (*) أمره على غزو بني عبد الواد لارتجاع ما بأيديهم من الملك الذي تطاولوا اليه . ولما دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة نادى بالعطاء وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد وعرض جيشه ثم نهض يريد تلمسان

واتصل خبره بسلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن الزياني فجمع له قومه ومن شايعهم من زناتة والعرب ، ثم نهض اليه ومعه أخوه ووزيره أبو ثابت فكان اللقاء ببسيط انكاد آخر ربيع الثاني من السنة المذكورة ، وأجمع بنوعبد الواد على صدمة المرينيين وقت القائلة وعند ضرب الابنية وسقاء الركاب وافتراق أهل المعسكر في حاجاتهم ، فحملوا عليهم وأعجلوهم عن ترتيب المصاف وركب السلطان أبو عنان لتلافي الامر وخاض بحر القتال وقد أظلم الجو بالغبار ، حتى اذا خلص اليهم وخالطهم في صفوفهم ولوا الادبار ، واتبع بنو مرين آثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوهم قتلا وسبيا وصفدوهم أسرى ولم يزالوا في اتباعهم الى الليل ، وتقبضوا على سلطانهم أبي سعد فساقوه الى السلطان أبي عنان فاعتقله ، وتقدم على التعبية الى تلمسان فدخلها في ربيع المذكور واستوت في ملكها قدمه ، وأحضر أبا

(*) في بغية الرواد أن الامر كان على ما ينبغي بين أبي عنان وملك تلمسان أبي سعيد إلى أن كتب أبو عنان لابي سعيد متشفعا في مغراوة الذين كان محاصرا لهم فرد شفاعته فحنق على بني عبد الواد من أجل ذلك واستنفر الناس لغزو تلمسان الخ بغية الرواد ص ١٥٨ وما بعدها جزء أول طبع الجزائر ١٣٢١ .

سعيد فوبخه وأراه أعماله حسرات عليه ، ثم أحضر الفقهاء وأرباب الفتيا فأفتوا بحرابته وقتله فأمضى حكم الله فيه فذبح فى محبسه لتاسعة من اعتقاله

وفر أخوه الزعيم أبو ثابت الى قاصية الشرق بعد أن احتمل معه حرمه وحرم أخيه ومتخلفهم ، واحتل بوادى شلف من بلاد مغراوة فعسكر هنالك واجتمع عليه أوشاب من زناتة وحدث نفسه باللقاء ووعدها بالصبر والثبات

واتصل خبره بالسلطان أبى عنان فسرح اليه وزيره فارس بن ميمون فى عساكر بنى مرين والجند فأغذ السير اليهم ، ثم ارتحل السلطان أبو عنان من تلمسان على أثره ، ولما تراءى الجمعان تصادقا الحملة وخاض النهر بعضهم الى بعض ثم صدق بنو مرين الحملة فاجتازوا النهر وانكشفت بنو عبد الواد واتبع بنو مرين آثارهم فاستلحموهم ثانية واستباحوا معسكرهم واستاقوا نساءهم وأموالهم ودوابهم ، وكتب الوزير بالفتح الى السلطان أبى عنان وفر أبو ثابت الى قاصية الشرق فى نفر من عشيرته وبنى أبيه فاعترضتهم قبائل زواوة فانتهبوا أسلابهم وأرجلوهم عن خيولهم ومروا على وجوههم حفاة عراة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، وكتب الوزير الى أمراء الثغور فى شأن أبى ثابت وأصحابه فأذكوا العيون عليهم وقعدوا لهم بالمراصد حتى عثر عليهم بعض الحشم ، فقبضوا على أبى ثابت وابن أخيه أبى زيان بن أبى سعيد المقتول ووزيرهم يحيى بن دواد ، فرفعوهم الى أمير بجاية أبى عبد الله محمد ابن أبى زكرياء بن أبى بكر الحفصى وكان خالصة للسلطان أبى عنان منذ أيام والده فاعتقلهم عنده حتى وفد بهم عليه بلمدية ، فأكرم السلطان أبو عنان وفادته وركب للقائه ، ولما تراءيا نزل الحفصى عن فرسه اعظاما للسلطان فنزل السلطان مكافأة له ولقاه مبرة وكرامة ، وأودع أبا ثابت السجن وتوافت اليه وفود الذواودة بمكانه من لمدية فاكرم وفادتهم ، وأسنى عطاياهم من الخلع والحملان والذهب والفضة وانقلبوا خير منقلب ، ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزنى عامل بسكرة والزاب مع وفدهم فأكرمهم ووصلهم ، وفرغ السلطان أبو عنان من شأن المغرب الاوسط وبث عماله فى نواحيه وثقف أطرافه وسمى الى تملك افريقية على ما نذكره ان شاء الله

تملك السلطان ابى عنان بجاية وتولية عمر بن على الوطاسى عليها

لما وفد أبو عبد الله الحفصى على السلطان أبى عنان بلمدية فى شعبان من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وبالغ فى اكرامه ناجاه بذات صدره ، وشكا اليه ما يلقاه من رعيته من الامتناع من الجباية والسعى فى الفساد وما يتبع ذلك من شقاق الحامية واستبداد البطانة ، وكان السلطان أبو عنان متشوفا لمثلها فأشار عليه بالنزول عنها وان يعوضه عنها ما شاء من بلاده ، فسارع الى قبول ذلك ودس اليه السلطان مع حاجبه محمد بن أبى عمرو أن يشهد بذلك على رؤوس الملأ ففعل وعوضه عنها مكناسة الزيتون ، ونقم بطانة الحفصى عليه ونزع بعضهم عنه الى افريقية وأمره السلطان أبو عنان أن يكتب بخطه الى عامله على بجاية بالنزول عنها وتمكين عمال السلطان منها ففعل ، وعقد أبو عنان عليها لعمر بن على الوطاسى من بنى الوزير الذين قدمنا خبر ثورتهم بحصن تازوطا أيام يوسف بن يعقوب ، ولما قضى السلطان أبو عنان حاجته من المغرب الاوسط واستولى على بجاية ثغر افريقية انكفأ راجعا الى تلمسان لشهود عيد الفطر بها ودخلها فى يوم مشهود ، وحمل أبا ثابت الزيانى ووزيره يحيى بن داوود على جملين ودخل بهما تلمسان يخطوان بهما فى ذلك المحفل بين السماطين فكانا عبرة لمن حضر ، ثم جنبا من الغد الى مصارعهما فقتلا قعصا بالرماح والى الله عاقبة الامور

ثورة أهل بجاية ومقتل عمر بن على الوطاسى بها

لما قدم عمر بن على الوطاسى بجاية واستقر بها ثقل أمره على نفوس أهلها لالفهم ملكة الحفصيين وانصباغهم بالميل اليهم ، فتربصوا بالوطاسى الدوائر وكان أبو عبد الله الحفصى قد استصحب معه فى وفادته على السلطان أبى عنان حاجبه فارحا مولى ابن سيد الناس ، فلما نزل للسلطان عن بجاية

نقم فارح عليه ذلك وأسرها فسي نفسه الى أن بعثه الحفصي المذكور مع الوطاسي لينقل حرمه ومتاعه وماعون داره الى المغرب ، فانتهى الى بجاية وبينما هو يحاول ما أرسل في شأنه شكا اليه الصنهاجيون سوء ملكة بني مرين فنجع كلامهم فيه ونفث لهم بما عنده من الضغن ودعاهم السى الثورة بالمرينيين والقيام بدعوة الحفصيين ، فأجابوه الى ذلك وتواعدوا للفتك بعلي ابن عمر الوطاسي بمجلسه من القصبة ، وتولى كبرها منصور بن ابراهيم بن الحاج من مشيختهم وباكره في داره على عادة الامراء ، ولما أكب عليه ليلثم أطرافه طعنه بخنجره ثم ولج عليه الباقون فاستلحموه وذلك في ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وثارت الغوغاء بالبلد وهتف الهاتف بدعوة أبي زيد بن محمد بن أبي بكر الحفصي صاحب قسنطينة ، وطيروا اليه بالخبر واستدعوه فتثاقل عنهم وبلغ الخبر الى السلطان أبي عنان فاتهم أبا عبدالله الحفصي بمداخلة حاجبه فارح في ذلك فاعتقله بداره واعتقل وفدا من أشراف بجاية كانوا ببابه ، ثم راجع شيوخ بجاية بصائرهم وتداركوا أمرهم في الرجوع الى طاعة السلطان أبي عنان واتفق رأيهم على أن يرقعوا هذا الخرق ويسدوا هذه الثلمة برأس الحاجب فارح وصنهاجة الثائرين معه ، وداخلهم في ذلك القائد هلال مولى ابن سيد الناس ولما عزموا على أمرهم دعوا الحاجب فارحا السى المسجد ليفاوضوه فيما نزل بهم فأحس بالشر ولجأ الى دار الشيخ أبي العباس أحمد بن ادريس البجائي امام بجاية ومفتيها ، فاقتحموا عليه الدار وباشره مولاه محمد بن سيد الناس بطعنة فانفذه ورمى بشلوه من أعلا الدار ، فاحتزوا رأسه وبعثوا به الى السلطان أبي عنان وفر منصور بن ابراهيم بن الحاج وقومه صنهاجة عن البلد ، وسرح السلطان أبو عنان اليها حاجبه أبا عبد الله محمد بن أبي عمرو في الكتائب فدخلها فاتح سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، وذهبت صنهاجة في كل وجه ولحق أصحاب الفعلة منهم بتونس وتقبض الحاجب ابن أبي عمرو على جماعة من غوغاء بجاية المتهمين بالخوض في الفتنة يناهزون المائتين فاعتقلهم وأركبهم الاسطول الى المغرب فأطمأن الناس وسكنوا ، وتوافت لديه وفود الذواودة من كل جهة فأجزل

صلاتهم ، ووفد عليه عامل الزاب يوسف بن مزنى فأكرم وفادته ، ثم ارتحل الى تلمسان غرة جمادى الاولى من السنة ومعه شيوخ الذواودة ووجوه بجاية

قال ابن خلدون : وكنت يومئذ فى جملتهم فجلس السلطان للوفد وعرض ما جنب اليه من الجياد والهدايا وكان يوما مشهودا ، وانصرفوا الى مواطنهم فاتح شعبان من السنة المذكورة ، قال : وانقلبت مع الحاجب بعد اسناء الجائزة والخلع والحملان من السلطان والوعد الجميل بتجديد ما الى قومى ببلدى من الاقطاعات ، ولما احتل الحاجب ابن أبى عمرو ببجاية ضبط أمرها وأقام أودها وألح على قسنطينة بترديد البعوث وتجهيز الكتائب الى أن أذعنوا للطاعة ومكنوه من تاشفين ابن السلطان أبى الحسن المنصوب هناك للفتنة وأوفد أبو زيد الحفصى صاحب قسنطينة ابنه على السلطان أبى عنان فقبل وفادته وشكر سعيه وانكفأ الحاجب ابن أبى عمرو الى بجاية وأقام بها الى أن هلك فى المحرم سنة ست وخمسين وسبعمائة فذهب حميد السيرة عند أهل البلد ، وعقد السلطان أبو عنان على بجاية لعبد الله بن على بن سعيد أحد وزرائه فنهض اليها فى ربيع من سنة ست وخمسين المذكورة فاستقر بها وسلك سنن الحاجب قبله وسيرته وجهز العساكر الى حصار قسنطينة الى أن كان من فتحها ما نذكره بعد ان شاء الله

خروج أبى الفضل ابن السلطان ابى الحسن ببلاد السوس

ثم مقتله عقب ذلك

قد تقدم لنا أن السلطان أبا الحسن لما ركب البحر من تونس الى المغرب عقد على تونس لابنه أبى الفضل هذا ، وانه لما أقلع عنها ثار أهل البلد وشيعة الحفصيين عليه فأخرجوه عنها ولحق بأبيه فكان معه الى أن هلك وخلص الامر الى السلطان أبى عنان فلحق به هو وأخوه أبو سالم ، ففكر أبو عنان فى أمرهما وخشى عاقبة ترشيحهما فأشخصهما الى الاندلس ليكونا مع الغزاة

والقرابة في ايالة السلطان أبي الحجاج يوسف بن الاحمر ثم ندم على ذلك ولما استولى على تلمسان والمغرب الاوسط ورأى أن قد استفحل أمره واعتز سلطانه أنفذ الرسل الى أبي الحجاج في أن يشخصهما اليه لان مقامهما عنده أحوط لجمع الكلمة بخلاف ما اذا غابا عن حضرته ، وخشي أبو الحجاج غائلته عليهما فأبى من اسلامهما اليه وأجاب الرسل بأنه لايخفر ذمته ولايسيء جوار المسلمين المجاهدين لديه ، فغضب السلطان أبو عنان لذلك وقام وقعد وأمر حاجبه ابن أبي عمرو أن يكتب اليه ويبالغ في التوبيخ واللوم ففعل الحاجب المذكور

قال ابن خلدون : وقد أوقفني الحاجب على ذلك الكتاب ببجاية فقضيت عجبا من فصوله وأغراضه ، ولما قرأه أبو الحجاج ابن الاحمر دس الى أبي الفضل وكان أكبر الاخوين باللحاق بالطاغية وكانت بينهما ولاية ومخالصة فنزع اليه أبو الفضل وجهز الطاغية له أسطولا أركبه فيه وأنزله بساحل السوس من أرض المغرب ، ونذر السلطان أبو عنان بذلك فأوعز الى قائد أسطوله باعتراض أسطول الطاغية فاعترضه وأوقع به وكتب ابن الاحمر أثناءذلك كتابا الى السلطان أبي عنان يعتذر عن أمر أبي الفضل من انشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب ونصه :

«المقام الذي شهد الليل والنهار بأصالة سعادته وجرى الفلك الدوار بحكم ارادته وتعود الظفر بمن يناويه فاطرد والحمد لله جريان عادته فوليه متحقق لافادته وعدوه مرتقب لابادته وحلل الصنائع الالهية تضفو على اعطاف مجادته مقام محل أخينا الذي سهم سعده صائب وأمل من كاده خاسر خائب وسير الفلك المدار في مرضاته دائب وصنائع الله تعالى له تصحبها الالطاف العجائب فسيان شاهد منه في عصمة وغائب السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى مسددالسهم ماضي العزم، تجل سعوده عن تحور الوهم ولا زال مرهوب الحد ممتثل الرسم موفور الحظ من نعمة الله تعالى عند تعدد القسم ، فائزا بفلج الخصام عند لد الخصم معظم قدره وملتزم بره مبتهج بما يسببه الله تعالى له من اعزاز نصره واظهار أمره

فلان ، سلام كريم طيب بر عميم ، يخص مقامكم الاعلى ، ومثابتكم الفضلى التى حازت فى الفخر الامد البعيد وفازت من التأييد والنصر بالحظ السعيد ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذى فسح لملككم الرفيع فى العز مدى وعرفه عوارف آلائه وعوائد النصر على أعدائه يوما وغدا وحرس سماء علائه بشهب من قدره وقضائه فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، وجعل نجح آماله وحسن مآله قياسا مطردا فسرب مريد صره ضر نفسه وهاد اليه الجيش أهدى وما هدى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه ورسوله الذى ملأ الكون نورا وهدى وأحيا مراسم الحق وقد صارت طرائق قددا أعلى الانام يدا وأشرفهم محتدا الذى بجاهه نلبس أثواب السعادة جددا ونظفر بالنعيم الذى لاينقطع أبدا والرضا عن آله وأصحابه الذين رفعوا السماء سنته عمدا وأوضحوا السبيل اتباعه مقصدا وتقبلوا شيمه الطاهرة ركعا وسجدا سيوفا على من اعتدى ونجوما لمن اهتدى حتى علت فروع ملته صعدا وأصبح بناؤها مديدا مخلدا والدعاء لمقامكم الاسمى بالنصر الذى يتوالى مثنى وموحدا كما جمع لملككم ما تفرق من الالقاب على توالى الاحقاب فجعل سيفكم سفاحا وعلمكم منصورا ورأيكم رشيدا وعزمكم مؤيدا فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لكم صنعا يشرح للاسلام خلدا ونصرا يقيم للدين الحنيفى أودا وعزما يملأ أفئدة الكفر كمدا وجعلكم ممن هيأ له من أمره رشدا ويسر لكم العاقبة الحسنى كما وعد به فى كتابه العزيز والله أصدق موعدا من حمراء غرناطة حرسها الله ولا زائد بفضل الله سبحانه الا استطلاع سعودكم فى آفاق العناية واعتقاد جميل صنع الله فى البداية والنهاية والعلم بأن ملككم تحدى من الظهور على أعدائه بآية وأجرى جياد السعد فى ميدان لا يحد بغاية وخرق حجاب المعتاد بما لم يظهر الا لاصحاب الكرامة والولاية ونحن على ما علمتم من السرور بما يهز لملككم المنصور عطفا ويسدل عليه من العصمة سجفا فقاسمه الارتياح لمواقع نعم الله تعالى نصفا ونصفا ونعقد بين أنباء مسرته وبين الشكر لله حلفا ونعد التشيع له مما يقربنا الى الله

زلفى ونؤمل من امداده ونرتقب من جهاده وقتا يكفل به الدين ويكفى
ونروى غلل النفوس وتشفى والى هذا وصل الله سعدكم ووالى نصركم
وعضدكم فانا من لدن صدر عن أخيكم أبى الفضل ما صدر من الانقياد
لخدع الآمال والاغترار بموارد الآل وفال رأيه فى اقتحام الاهوال
وتورط فى هفوة حار فيها حيرة أهل الكلام فى الاحوال وناصب من أمركم
السعيد جبلا قضى الله له بالاستقرار والاستقلال ومن ذا يزاحم الاطواد
ويزحزح الجبال وأخلف الظن منا فى وفائه وأضمر عملا استأثر عنا باخفائه
واستعان من عدو الدين بمعين فلا ورى لمن استنصر به زند ولا خفق لمن
تولاه بالنصر بند وان الطاغية أعانه وأنجده ورأى أنه سهم على المسلمين
سدده وعضب للفتنة جرده فسخر له الفلك وأمل أن يستخدمه بسبب
ذلك الملك فأورده الهلك والظلم الحلك علمنا أن طرف سعادته كاب
وسحائب آماله غير ذات انسكاب وقدم عزته لم يستقر من السداد فى غرز
ركاب فان نجاح أعمال النفوس مرتبط بنياتها وغايات الامور تظهر فى
بداياتها وعوائد الله تعالى فيمن نازع قدرته لاتجهل ومن غالب أمر الله
خاب منه المعول فبينما نحن نرتقب خسار تلك الصفقة المعقودة وخمود
تلك الشعلة الموقودة وصلنا كتابكم يشرح الصدور ويشرح الاخبار
ويهدى طرف المسرات على أكف الاستبشار ويعرب بلسان حال المسارعة
والابتدار عن الود الواضح وضوح النهار والتحقق بخلوصنا الذى يعلمه
عالم الاسرار فأعاد فى الافادة وأبدا وأسدى من الفضائل الجلائل ما
أسدى فعلم منه مآل من رام يقدح زند الشتات من بعد الالتئام ويثير
عجاجة المنازعة من بعد ركوب القتام هيهات تلك قلادة الله تعالى التى
ما كان ليتركها بغير نظام ولم يدر أنكم نصبتم له من الحزم حبالة لايفلتها
قنيص وسددتم له من السعد سهما ماله عنه من محيص بما كان من ارسال
جوارح الاسطول السعيد فى مطاره حائلا بينه وبين أوطاره فما كان الا
التسمية والارسال ثم الامساك والقتال ثم الاقتيات والاستعمال فياله من
زجر استنطق لسان الوجود مجدله واستنصر البحر فخذله وصارع القدر

فجدله لما جدله وان خدامكم استولوا على ما كان فيه من مؤمل غاية بعيدة ومتسب الى نسبة غير سعيدة وشانىء غمرته من الكفار خدام الماء وأولياء النار تحكمت فيهم أطراف العوالى وصدور الشفار وتحصل منهم مسن تخطاه الحمام في قبضة الاسار فعجبنا من تيسير هذا المرام واخماد الله لهذا الضرام وقلنا تكييف لايحصل في الاوهام وتسديد لاتستطيع اصابته السهام كلما قدح الخلاف زندا أطفأ سعدكم شعلته أو أظهر الشتات ألمسا أبرأ يمن طائركم علته ماذاك الا لنية صدقت معاملتها فى جنب الله تعالى وصحت واسترسلت بركتها وسحت وجهاد نذرتموه اذا فرغت شواغلكم وتمت واهتمام بالاسلام يكفيه الخطوب التى أهمت فنحن نهنيكم بمنح الله ومنه ونسأله أن يلبسكم من اعانته أوقى جنته فأملنا أن تطرد آمالكم وتنجح فى مرضات الله أعمالكم فمقامكم هو العمدة التى يدافع العدو بسلاحها وتنبلج ظلماته بصفاحها وكيف لانهنئكم بصنع على جهتنا يعود وبشائرنا تطلع منه السعود فيتقنوا ما عندنا من الاعتقاد الذى رسومه قد استقلت واكتفت وديمه بساحة الود قد وكفت والله عز وجل يجعل لكم الفتوح عادة ولا يعدمكم عناية وسعادة وهو سبحانه يعلى مقامكم وينصر أعلامكم ويهنى الاسلام أيامكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته» اهـ

ولما نزل أبو الفضل بساحل السوس لحق بعبد الله السكسيوى صاحب الجبل المنسوب اليه ودعا لنفسه ، وكان ذلك اثر مقدم الحاجب ابن أبى عمرو من فتح بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، فجهز السلطان أبوعنان اليه عسكره من تلمسان وعقد على حرب السكسيوى وأبى الفضل لوزيره فارس بن ميمون بن وردار فسار حتى نزل على جبل السكسيوى وأحاط به وأخذ بمخنقه واختط مدينة لمعسكره وتجمير كتائبه بسفح ذلك الجبل سماها القاهرة ، ولما اشتد الحصار على السكسيوى بعث الى الوزير يسأله الرجوع الى طاعته المعروفة وأن ينبذ العهد الى أبى الفضل ، ففارقه وانتقل الى جبال المصامدة ، ودخل الوزير فارس أرض السوس فدوخ أقطارها ومهد

أكنافها وسارت الالوية والجيوش فى جهاتها ورتب المسالح فى ثغورها وأمصارها

وسار أبو الفضل يتنقل فى جبال المصامدة الى أن انتهى الى صناكة وألقى بنفسه على ابن الحميدى منهم مما يلى بلاد درعة فأجاره وقام بأمره ونازله عامل درعة يومئذ عبد الله بن مسلم الزردالى من مشيخة بنى عبد الواد كان السلطان أبو الحسن رحمه الله قد اصطنعه أيام فتحه لتلمسان فاستقر فى دولتهم واندرج فى صنائعهم ، فأخذ بمخنق ابن الحميدى وأرهبه بوصول العساكر والوزراء اليه ، وداخله فى التقبض على أبى الفضل وأن يبذل له من المال فى ذلك ما أحب ، فأجاب ولاطف عبد الله بن مسلم الامير أبا الفضل ووعده من نفسه الدخول فى الامر وطلب لقاءه ، فركب اليه أبو الفضل ولما استمكن منه ابن مسلم تقبض عليه ودفع لابن الحميدى ما اشترط له من المال وأشخصه معتقلا الى أخيه السلطان أبى عنان سنة خمس وخمسين وسبعمائة فأودعه السجن وكتب بالفتح الى القاصية ثم قتله لليال يسيرة من اعتقاله خنقا بمحبسه وانقضى أمر الخوارج وتمهدت الدولة الى أن كان ما نذكره ان شاء الله

وفادة الوزير ابن الخطيب من قبل سلطانه الغنى بالله على السلطان أبى عنان رحمهم الله

كان السلطان أبو الحجاج يوسف بن الاحمر قد أوفد وزيره لسان الدين ابن الخطيب على السلطان أبى عنان اثر مهلك السلطان أبى الحسن معزيا له بمصابه ، فقدم ابن الخطيب وأدى الرسالة وجلى فى أغراض تلك السفارة وعاد الى غرناطة ، ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة بمصلى عيد الفطر وهو ساجد طعنه بعض الزعانف فأصماه لوقته ، وبايع الناس ابنه محمد بن يوسف الغنى بالله وقام بأمر دولته

مولاه رضوان الراسخ القدم فى قيادة عساكرهم وكفالة الاصـ
واستبد بالامر وانفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لابيه من
لكتابته غيره وجعل ابن الخطيب رديفا لرضوان فى أمره
الاستبداد معا ، فجرت الدولة على أحسن حال ، ثم أن السلطان
وزيره ابن الخطيب سفيرا عنه الى السلطان أبى عنان مستمدا
الطاغية على عادة سلفه فى ذلك ، قال ابن الخطيب : لما أشر
فاس فى غرض هذه الرسالة خاطبنى الخطيب الرئيس أبو عبد
مرزوق التلمسانى بمنزل الشاطبى على مرحلة منها بما نصه :

ياقادما وافى بكل نجاح أبشر بما تلقاه م
هذى ذرى ملك الملوك فلذ بها تنل المنى وتفز بك
مغنى الامام أبى عنان يممن تظفر ببحر بالندا
من قاس جود أبى عنان فى الندا بسواه قاس البحر
ملك يفيض على العفاة نواله قبل السؤال وقبل
فلجود كعب وابن سعد فى الندا ذكر محاه عن
ما أن سمعت ولا رأيت بمثله من أريحى للندا
بسط الامان على الانام فأصبحوا قد ألحفوا منه بظـ
وهمى على العافين سيب نواله حتى حكى سح
فنواله وجلاله وفعاله فاقت وأعيت السن
وبه الدنا أضحت تروق وأصبحت كل المنى تنقاد بـ
من كان ذا ترح فرؤية وجهه متلافة الاحزان
فانهض أبا عبد الاله تفز بما تبغيه من أمل و
لا زلت ترتشف الامانى راحة من راحة المولى

فالحمد لله يا سيدى وأخى على نعمه التى لاتحصى ، -
جميعنا المقصد الاسنى فيبلغ الامد الاقصى ، فطالما كان معظم
فى خبال وللاسف بين اشتغال بال واشتعال بلبال ولقدو
المحل المولوى فى ارتقاب ولمواعيدكم بذلك فى تحقق وقوعه

ولا ارتياب ، فها أنت تجتنى من هذا المقام العلى بتشيعك وجوه المسرة صباحا وتتلقى أحاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحا بحول الله تعالى ولسيدى الفضل فى قبول مركوبه الواصل اليه بسرجه ولجامه فهو من بعض ما لدى المعظم من احسان مولاه وانعامه ولعمرى لقد كان وافد على سيدى فى مستقره مع غيره فالحمد لله الذى يسر فى ايصاله على أفضل أحواله

قال ابن الخطيب : فراجعته بما نصه :

راحت تذكرنى كؤس السراح	والقوب يخفض للجنوح جناح
وسرت تدل على القبول كأنما	دل النسيم على انبلاج صباح
حسناء قد غنيت بحسن صفاتها	عن دملج وقلادة ووشاح
أمست تحض على اللياد بمن جرت	بسعوده الاقلام فى الالواح
بخليفة الله المؤيد فارس	شمس المعالى الازهر الوضاح
ما شئت من شيم ومن همم غدت	كالزهر أو كالزهر فى الادواح
فضل الملوك فليس يدرك شأوه	أنى يقاس الغمر بالضحضاح
أسنى بنى عباسهم بلوائه الـ	ـمنصور أو بحسامه السفاح
وغدت مغانى الملك لما حلها	تزرى ببدر هدى وبحر سماح
وحياة من أهداك تحفة قادم	فى العرف منها راحة الارواح
ما زلت أجعل ذكره وثناءه	روحى وريحانى الاريح وراح
ولقد تمازج حبه بجوارحى	كتمازج الاجسام بالارواح
ولو أننى أبصرت يوما فى يدى	أمرى لطرت اليه دون جناح
فالان ساعدنى الزمان وأيقنت	من قربه نفسى بفوز قداح
ايه أبا عبد الاله وانه	لنداء ود فى علاك صراح
أما اذا استنجدتنى من بعد ما	ركدت لما جنت الخطوب رياح
فاليكها مهزولة وأنا امرؤ	قررت عجزى واطرحت سلاح

سيدى أبقاك الله لعهد تحفظه ، وولاء بعين الوفاء تلحظه ، وصلتنى رقعتك التى ابتدعت وبالحق من مولى الخليفة صدعت والفتنى وقد سطت بى الاوحال حتى كادت تتلف الرحال والحاجة الى الغداء قد شمرت عن

كتسح البطين وثانية العجماوين قد توقع فوات وقتها وان كانت صلاتها صلاة الطين والفكر قد غاض معينه وضعف وعلى الله جزاء المولى الذى يعينه ، فغزتنى بكتيبة بيان اسدها هسور وعلمها منصور وألفاظها ليس فيها قصور ومعانيها عليها الحسن مقصور واعتراف مثلى بالعجز فى المضايق حول ومنة وقول لا أدرى للعالم فكيف بغيره جنة لكنها بشرتنى بما يقل لمؤديه بذل النفوس وان جلت وأطلعتنى من السراء على وجه تحسده الشمس اذا تجلت بما أعلمتنى به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله في عبده وصدق المخيلة فى كرم مجده وهذا هو الجود المحض والفضل الذى شكره هو الفرض وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفات من يبدأبالنوال من قبل الضراعة والسؤال من غير اعتبار للاسباب ولا مجازات للاعمال نسأل الله تعالى أن يبقى منها على الاسلام أوفى الظلال ويبلغها من فضله أقصى الآمال ووصل ما بعثه سيدى صحبتها من الهدية والتحفة الودية وقبلتها امتثالا واستجليت منها عتقا وجمالا وسيدى في الوقت أنسب باتخاذ ذلك الجنس وأقدر على الاستكثار من اناث البهم والانس وأنا ضعيف القدرة غير مستطيع لذلك الا فى الندرة فلو رأى سيدى ورأيه سداد وقصده فضل ووداد أن ينقل القضية الى باب العارية من باب الهبة مع وجود الحقوق المترتبة لبسط خاطرى وجمعه وعمل فى رفع المؤنة على شاكلة حالي معه وقد استصحبت مركوبا يشق على هجره ويناسب مقامي شكله ونجره ، وسيدى فى الاسعاف على الله أجره ، وهذا أمر عرض وفرض فرض ، وعلى نظره المعول ، واعتماد أغضائه هو المعقول الاول والسلام على سيدى من معظم قدره وملتزم بره ابن الخطيب فى ليلة الاحد السابع والعشرين لذى القعدة سنة خمس وخمسين وسبعمائة والسماء قد جادت بمطر سهرت منه الاجفان وظن أنه طوفان واللحاق فى غدها بالباب المولوى مؤمل بحول الله، اهـ

ولما قدم الوزير المذكور على السلطان المذكور تقدم الوفد الذين معه من وزراء الاندلس وفقهائها ومثل بين يديه واستأذنه فى انشاد شيء من الشعر

يقدمه بين يدى نجواه فاذن له وأنشد وهو قائم :

خليفة الله ساعد القــدر علاك ما لاح فى الدجا قمــر
ودافعت عنك كف قدرتــه ما ليس يستطيع دفعه البشــر
وجهك فى النائبات بدر دجـا لنا وفى المحل كفك المطــر
والناس طرا بأرض أندلـس لولاك ما أوطنوا ولا عمــروا
ومن به مذ وصلـت حبلهــم ما جحدوا نعمة ولا كفــروا
وجملة الامر انه وطــن فى غير علياك ما له وطر
وقد أهمتهـم نفوسهــم فوجهونى اليك وانتظــروا

فاهتز السلطان أبو عنان لهذه الابيات وأذن له فى الجلوس وقال له قبل أن يجلس : « ما ترجع اليهم الا بجميع طلباتهم » ثم أدى الرسالة ودفع الكتاب ولما عزموا على الانصراف أثقل كاهلهم بالاحسان وردهم بجميع ما طلبوه

قال ابن خلدون: قال شيخنا القاضى أبو القاسم الشريف وكان معه فى ذلك الوفد « لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان الا هذا »

ونص الكتاب الذى قدم به ابن الخطيب : «المقام الـذى يغنـى عن كـل مفقود بوجوده ويهز الى جميل العوائد أعطاف بأسه وجوده ونستضىء عند اظلام الخطوب بنور سعوده ونرث من الاعتماد عليه أسنى ذخر يرثه الولد عن آبائه وجدوده مقام محل أبينا الـذى رعـى الاذمة شأنه وصلة الراعى سجية انفرد بها سلطانه ومواعد النصر ينجزها زمانه والقول والفعل فى ذات الله تعالى تكفلت بهما يده الكريمة ولسانه وتطابق فيهما اسراره واعلانه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكـذا أبقاه اللـه تعالى محروسا من غير الايام جنابه موصولة بالوقاية الالهية أسبابه مسدولا على ذاته الكريمة ستر الله تعالى وحجابه مصروفا عنه من صروف القدر ما يعجز عن رده بوابه ولا زال ملجأ تنفق لديه الوسائل التى تدخرها لاولادها أولياؤه وأحبابه ويسطر فى صحف الفخر ثوابه وتشتمل على مكـارم الدين والدنيا أثوابه وتتكفل بنصر الاسلام وجبر القلوب عند طـوارق الايام كتائبه وكتابه معظم ما عظم من حقه السائر من اجلاله وشكر خلاله

على لاحب طرقه المستضيء فى ظلمة الخطب بنور أفقه الامير عبد الله
محمد بن أمير المسلمين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن فرج
ابن نصر سلام كريم بر عميم يخص مقامكم الاعلى ورحمة الله تعالى وبركاته
أما بعد حمد الله الذى لاراد لامره ولا معارض لفعله مصرف الامر بقدرته
وحكمته وعدله الملك الحق الذى بيده ملاك الامر كله مقدر الآجال والاعمار
فلا يتأخر شيء عن ميقاته ولا يبرح عن محله ، جاعل الدنيا مناخ نقلة ، لا يغتبط
العاقل بمائه ولا بظله ، وسبيل رحلة فما أكثب ظعنه من حله والصلاة والسلام
على سيدنا ومولانا محمد صفوة خلقه وخيرة أنبائه وسيد رسله الذى
نعتصم بسببه الاقوى وتتمسك بحبله ونمد يد الافتقار الى فضله ونجاهد
فى سبيله من كذب به أو حاد عن سبله ونصل اليه ابتغاء مرضاته ومن أجله
والرضا عن آله وأحزابه وأنصاره وأهله المستولين من ميدان الكمال على
خصله والدعاء لمقامكم الاعلى بعز نصره ومضاء فضله فانا كتبناه اليكم
كتب الله تعالى لكم وقاية لاتطرق الخطوب حماها وعصمة ترجع عنها سهام
النوائب كلما فوقها الدهر ورماها ، وعناية لا تغير الحوادث اسمها ولا مسماها
وعزا يزاحم أجرام الكواكب منتماها من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى
ونعم الله سبحانه تتواتر لدينا دفعا ونفعا وألطافه نتعرفها وترا وشفعا ومقامكم
الابوى هو المستند الاقوى والمورد الذى ترده آمال الاسلام فتروى وتهوى
اليه أفئدتهم فتجد ما تهوى ومثابتكم العدة التى تأسست مبانيها على البر
والتقوى والى هذا وصل الله تعالى سعدكم وأبقى مجدكم فانا لما نعلم من
مساهمة مجدكم التى يقتضيها كرم الطباع وطباع الكرم وتدعو اليها ذمم
الرعى ورعى الذمم ، نعرفكم بعد الدعاء لملككم بدفاع الله تعالى عن ارتقائه
وامتاع المسلمين ببقائه بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه تعالى بالسعادة التى
ألبسه حلتها والشهادة التى فى أعماله الزكية كتبها والدرجة العالية التى
حتمها له وأوجبها وبما تصير لنا من أمره وضم بنا من نشره وسدل على
من خلفه من ستره وانها لعبرة لمن ألقى السمع وموعظة تهز الجمع
وترسل الدمع وحادثة أجمل الله تعالى فيها الدفع وشرح مجملها وان

أخرس اللسان هولها وأسلم العبارة قوتها وحولها انه رضى الله تعالى عنــــه
لما برز لاقامة سنة هذا العيد مستشعرا شعار كلمة التوحيد مظهــرا سمــة
الخضوع للمولى الذى تضرع بين يديه رقاب العبيد آمنا بين قومــه وأهلــه
متسربلا فى حلل نعم الله تعالى وفضله قرير العين باكتمال عــزه واجتماع
شمله قد احترس بأقصى استطاعته واستظهر بخلصان طاعتــه والاجــل
المكتوب قد حضر والارادة الالهية قد أنفذت القضاء والقدر وسجد بعــــد
الركعة الثانية من صلاته أتاه أمر الله لميقاته على حين الشباب غض جلبابه
والسلاح زاخر عبابه والدين بهذا القطر قد أينع بالامن جنابه وأمر من
يقول للشيء كن فيكون قد بلغ كتابه ولم يرعه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى
القلوب وخلصت الرغبات الى فضله المطلوب الاشقى قيضه الله تعالى اسعادته
غير معروف ولا منسوب وخبيث لم يكن معتبر ولا محسوب تخلل الصفوف
المعقودة وتجاوز الابواب المسدودة وخاض الجموع المشهودة والامــم
المحشورة الى طاعة الله المحشودة لاتدل العين عليــه شارة ولا بــزة ولا
تحمل على الحذر من مثله أنفة ولا عزة وانما هو خبيث ممرور وكلــــب
عقور وحية سمها وحي محذور وآلة مصرفة لينفذ بها قدر مقدور فلمــا
طعنه وأثبته وأعلق به شرك الحين فما أفلته قبض عليه من المخلصــــان
الاولياء من خبر ضميره وأحكم تقريره فلم يجب عند الاستفهام جوابــا
يعقل ولا عثر على شيء عنه ينقل لطفا من الله أفاد براءة الذمم وتعاورته
للحين أيدى التمزيق وأتبع شلوه بالتحريق واحتمل مولانا الوالد رحمـــه
الله الى القصر وبه ذماء لم يلبث بعد الفتكة العمرية الا أيســر مــن اليسيــر
وتخلف الملك بنظر من الطرف الحسير وينهض بالجناح الكسير وقد عاد
جمع السلامة الى جمع التكسير الا أن الله تعالى تدارك هذا القطر الغريب
أن أقامنا مقامه لوقته وحينه ورفع عماد بناء ملكه ولما شعث دينه وكان جميــــع
من حضر المشهد من شريف الناس ومشروفهم وأعلامهم ولفيفهم قدجمعه
ذلك الميقات وحضر الاولياء الثقات فلم تختلف علينا كلمة ولا شذت منهم
عن بيعتنا نفس مسلمة ولا أخيف برى ولا حذر جرى ولا فرى فرى

ولا وقع لبس ولا استوحشت نفس و لانبض للفتنة عرق ولا أغفل
للدين حق فاستند النقل الى نصه ولم يعدم من فقيدنا غير شخصه وبادرنا
الى مخاطبة البلاد نمهدها ونسكنها ونقرر الطاعة فى النفوس ونمكنها
وأمرنا الناس بها بكف الايدى ورفع التعدى والعمل من حفظ شروط المسالمة
المعقودة بما يجدى ومن شره منهم للفرار عاجلناه بالانكار وصرفنا على
النصارى ما أوصاه مصحبا بالاعتذار وخاطبنا صاحب قشتالة نرى ماعنده فى
صلة السلم الى أمدها من الاخبار واتصلت بنا البيعات من جميع الاقطار وعفى
على حزن المسلمين بوالدنا ما ظهر عليهم بولايتنا من الاستبشار واستبقوا
تطير بهم أجنحة الابتدار جعلنا الله تعالى ممن قابل الحوادث بالاعتبار
وكان على حذر من تصاريف الاقدار واختلاف الليل والنهار وأعاننا على
اقامة دينه فى هذا الوطن الغريب المنقطع بين العدو الطاغى والبحر الزخار
وألهمنا من شكره ما يتكفل بالمزيد من نعمه ولا قطع عنا عوائد كرمه وان
فقدنا والدنا فانتم لنا من بعده الوالد والذخر الذى تكرم منه العوائد والحب
يتوارث كما ورد فى الاخبار التى صحت منها الشواهد ومن أعد مثلكم
لبنيه فقد تيسرت من بعد الممات أمانيه وتأسست قواعد ملكه وتشيدت
مبانيه فالاعتقاد الجميل موصول والفروع لها فى التشيع اليكم أصول
وفى تقرير فخركم محصول وأنتم ردء المسلمين بهذه البلاد المسلمة الذى
يعينهم بارفاده وينصرهم بانجاده ويعامل الله تعالى فيها بصدق جهاده وعند
ما استقر هذا الامر الذى تبعت المحنة فيه المنحة ورافت من فضل الله تعالى
ولطفه فيه الصفحة وأخذنا البيعة من أهل حضرتنا بعد استدعاء خواصهم
وأعيانهم وتزاحمت على رقها المنشور خطوط أيمانهم وتأصلت قواعد
ألفاظها ومعانيها فى قلوبهم وآذانهم وضمنوا الوفاء بما عاهدوا الله عليه وقد
خبر سلفنا والحمد لله وفاء ضمانهم بادرنا تعريف مقامكم الذى نعلم مساهمته
فيما ساء وسر وأحلى وأمر عملا بمقتضى الخلوص الذى ثبت واستقر
والحب الذى ما مال يوما ولا ازور وما أحق تعريف مقامكم بوقوع هذا
الامر المحذور وانجلاء ليله عن صبح الصنع البادى السفور وان كنا قد

خاطبنا من خدامكم من يبادر اعلامكم بالامور الا أنه أمر له ما بعده وحادث يأخذ حده ونبعث الى بابكم من شاهد الحال ما يبين وقوعها التى استقرارها رأى العيان وتولى تسديد الامور بأعماله الكريمة ومقاصده الحسان ليكون أبلغ فى البر وأشرح للصدر وأوعب للبيان فوجهنا اليكم وزير أمرنا وكاتب سرنا الفقيه الاجل أبا عبد الله محمد بن الخطيب وألقينا اليه من تقرير تعويلنا على ذلك المقام الاسنى واستنادنا من التشيع اليه الى الركن الوثيق المبنى ما نرجو أن يكون له فيه المقام الاغنى والثمرة العذبة المجتنى فلاهتمامه بهذا الغرض الاكيد الذى هو أساس بنائنا وقامع أعدائنا آثرنا توجيهه على توفر الاحتياج اليه ومضار الحال عليه والمرغوب من أبوتكم المؤملة أن يتلقاه قبولها بما يليق بالملك العالى والخلافة السامية المعالى والله عز وجل يديم أيامكم لصلة الفضل المتوالى ويحفظ مجدكم من غير الايام والليالى وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم ويوالى نصركم وعضدكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته اه

وللسلطان الغنى بالله هذا مع السلطان أبى عنان رحمهما الله مراسلات عديدة ومكاتبات مديدة قد ذكر صاحب نفح الطيب منها جملة وافرة مع التنبيه على أسبابها فانظرها فيه ان شئت وأكرم السلطان أبو عنان الوزير ابن الخطيب فى هذه الوفادة وغيرها اكراما بليغا ولما انصرف عنه مدحه بقصيدة طويلة طنانة يقول فى أولها :

أبدى لداعى الفوز وجه منيب ... وأفاق من عذل ومن تأنيب

ويقول فى أثنائها :

يا ناصر الدين الحنيف وأهله ... انضاء مسغبة وفل خطوب
حقق ظنون بنيه فيك فانهم ... يتعللون بوعدك المرقوب
ضاقت مذاهب نصرهم فتعلقوا ... بجناب عز من علاك رحيب
ودجا ظلام الكفر فى آفاقهم ... أوليس صبحك منهم بقريب
فانظر بعين العز من ثغر غدا ... حذر العدا يرنو بطرف مريب
نادتك أندلس ومجدك ضامن ... ألا يخيب لديك ذو مطلوب

وهى طويلة .

وفي سنة ست وخمسين وسبعمائة انتقض على السلطان أبي عنان وزيره وصاحب شوراه عيسى بن الحسين بن علي بن أبي الطلاق من شيوخ بني مرين ووجوهها ، وكان السلطان أبو عنان قد استعمله على جبل طارق فتمكنت رياسته به وانتقض على السلطان لاسباب يطول شرحها ، ثم التاثت حالـه وضاقت مذاهبه فقبض عليه وأحضر بين يدي السلطان أبي عنان هو وابنه يوم منى من سنة ست وخمسين المذكورة فتنصلا واعتذرا فلم يقبل منهما وأودعهما السجن وضيق عليهما ، ولما كان آخر السنة أمر بهما فجنبا الى مصارعهما وقتل عيسى قعصا بالرماح وقطع ابنه أبو يحيى من خلاف وأبى من مداواة قطعه فلم يزل يتخبط في دمه الى أن هلك بعد ثلاثة أيام من قطعه وعقد السلطان على جبل طارق وسائر ثغور الاندلس لسليمان بن داوود ، ثم عقد بعده لولده أبي بكر السعيد وهو الذي تولى الملك بعده والله أعلم

رحلة السلطان أبي عنان إلى سلا وتطارحه (*) على وليها الاكبر أبي العباس ابن عاشر رضي الله عنه

كان لبني مرين عموما وللسلطان أبي عنان خصوصا جنوح الى الخير ومحبة في أهله وتعرض لمن يشار اليه بالصلاح واستمطار لطله ووبله ، وكان الشيخ الاشهر أبو العباس أحمد بن عاشر الاندلسي رضي الله عنه قد استوطن في هذا التاريخ مدينة سلا ، وكان من الافراد الجامعين بين العلم والعمل المتمسكين بالكتاب والسنة ، الناهجين سنن السلف الصالح في الزهد

(*) ما وقع لابي عنان مع ابن عاشر وقع نظيره لمولاي اسماعيل العلوي مع سيدي أحمد بن محمد بن عبد الله معن الاندلسي راجع ذلك في الجزء الاول من المقصد الاحمد لسيدي عبد السلام القادري ص . ١٥٠ وما يليها فإنه مما يحسن الوقوف عليه والتنظير به رحم الله الجميع ولله در القائل: فقل لملوك الارض تجهد جهدها * فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

والورع والانقطاع عن الخلق جملة بحيث طار ذكره وعظم لدى الخاص والعام قدره ، فتحركت همة السلطان أبي عنان لزيارته والاقتباس مما يفتح الله به من وعظه واشارته ، فارتحل سنة سبع وخمسين وسبعمائة الى سلا فقدمها وحرص على الاجتماع بالشيخ المذكور ووقف ببابه مرارا فلم يأذن له وترصده يوم الجمعة بعد الصلاة ولما انفض الناس تبعه على قدميه والناس ينظرون اليه وهو لايراه فقال السلطان عند ذلك لقد منعنا من هذا الولى ، ثم أرسل اليه ولده راغبا ومستعطفا فأجابه بما قطع رجاءه من لقائه غير أنه كتب اليه كتابا وعظه فيه وذكره فسر السلطان أبو عنان بذلك الكتاب وحزن لما فاته من الاجتماع بالشيخ ، وقد ذكر الفقيه العلامة البركة أبو العباس أحمد ابن عاشر بن عبد الرحمن السلاوى المدعو بالحافي في كتابه «تحفة الزائر في مناقب الشيخ ابن عاشر» نص هذا الكتاب ولم يحضرني الآن فانظره فيه وبالله تعالى التوفيق

غزوة السلطان أبي عنان افريقية وفتح قسنطينة ثم فتح تونس بعدها

لما كان أيام التشريق من سنة سبع وخمسين وسبعمائة اعتزم السلطان أبو عنان على النهوض الى افريقية واضطرب معسكره بساحة فاس الجديد ، وبعث في الحشد الى مراكش وأوعز الى بنى مرين بأخذ الاهبة للسفر وجلس للعطاء وعرض الجنود من لدن عزمه على النهوض الى شهر ربيع الاول من سنة ثمان وخمسين بعدها ، ثم ارتحل من فاس وسرح في مقدمته وزيره فارس بن ميمون في العساكر وسار هو في ساقته على التعبية الى أن احتل ببجاية وتلوم لازاحة العلل ، ثم نازل الوزير قسنطينة وجاء السلطان على أثره ولما أطلت راياته وماجت الارض بجنوده ذعر أهل البلد وألقوا بأيديهم الى الاذعان ، وانفضوا من حول سلطانهم أبى العباس أحمد بن محمد ابن أبى بكر الحفصى وجاءوا مهطعين الى السلطان أبى عنان ، وتحيز

الحفصي في خاصته الى القصبة ثم طلبوا الامان من السلطان أبي عنان فبذلـه لهم وخرجوا وأنزلهم بمعسكره آياما ، ثم بعث بأبي العباس في الاسطول الى سبتة فاعتقله بها ، وعقد على قسنطينة لمنصور بن الحاج خلوف اليابانى من شيوخ بني مرين وأهل الشورى منهم وأنزله بالقصبة في شعبان من السنة المذكورة ، ووصلت اليه بيعات أمراء الاطراف من توزر ونفطة وقابس وغيرها ، ووفد عليه أولاد مهلهل أمراء بني كعب من سليم وأقيال بني أبي الليل منهم يستحثونه لملك تونس فسرح معهم العساكر وعقد عليها ليحيى ابن عبد الرحمن بن تاشفين * وبعث أسطوله في البحر مددالهم وعقد عليه للرئيس محمد بن يوسف المعروف بالابكم من أمراء بني الاحمر

وكان سلطان تونس يومئذ أبا اسحق ابراهيم بن أبي بكر الحفصي ولما اتصل به خبر بني مرين أخرج حاجبه أبا محمد بن تافراجين لقتالهم فزحفت الجيوش الى تونس ووصل الاسطول الى مرساها فقاتلهم ابن تافراجين يوما أو بعض يوم ثم ركب الليل الى المهدية فتحصن بها ، ودخل أولياء السلطان الى تونس في رمضان من سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وأقاموا بها الدعوة المرينية ، واحتل يحيى بن عبد الرحمن بالقصبة وأنفذ الاوامر وكتب الى السلطان أبي عنان بالفتح فعظم سروره ، ونظر بعد ذلك في أحوال ذلك القطر وقبض أيدي العرب من رياح عن الاتاوة التي يسمونها الخفارة ، فارتابوا وطالبهم بالرهن عن الطاعة ، فأجمعوا الخلاف واتفقوا على أميرهم يعقوب بن علي ولحقوا بالزاب ؛ وارتحل السلطان في أثرهم فأجفلوا أمامه الى القفر فخرب حصونهم التي بالزاب ورجع عنهم وحمل له ابن مزني عامل بسكرة والزاب جبايته وأطلق المؤن للعسكر من الادام والحنطة والحملان والعلوفة ثلاثة أيام ، وكافأه السلطان على صنيعه فخلع عليه وعلى أهله وولده وأسنى جوائزهم

ورجع الى قسنطينة واعتزم على الرحلة الى تونس ، وضاقت العساكر ذرعا بشأن النفقات والابعاد في الرحلة وارتكاب الخطر في دخول

(*) التيربدى

افريقية ، فتمشت رجالاتهم فى الانفضاض عن السلطان وداخلوا الوزير فارس بن ميمون فى ذلك فوافقهم ؛ ثم أذن شيوخ العسكر وتقباؤه لمن تحت أيديهم من القبائل فى اللحاق بالمغرب حتى يبقوا منفردين وأنهى الى السلطان أبى عنان أن شيوخ العسكر قد عزموا على قتله ونصب ادريس بن عثمان بن أبى العلاء للامر فأسرها فى نفسه ولم يبدها لهم ، ورأى قلة من معه من الجند فارتاب وكر راجعا الى المغرب بعد أن كان ارتحل عن قسنطينة الى جهة تونس مرحلتين ؛ فاتكفأ وأغذ السير الى فاس فاحتل بها غرة ذى الحجة من سنة ثمان وخمسين المذكورة ، وتقبض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون لانه اتهمه بمداخلة بنى مرين فى شأنه وقتله رابع أيام التشريق قعصا بالسرماح ، وتقبض على مشيخة بنى مرين فاستلحمهم وأودع طائفة منهم السجن

ولما رجع السلطان أبو عنان من افريقية بلغ خبره الى الجهات ؛ فارتحل أبو محمد بن تافراجين من المهدية الى تونس ولما أطل عليها ثارت شيعة الحفصيين على من كان بها من جيش بنى مرين فنجوا الى السفن وركبوا البحر الى المغرب ، وجاء على أثرهم يحيى بن عبد الرحمن فيمن كان معه من العساكر وأولاد مهلهل وكان يوم الهيعة بناحية الجريد لاقتضاء جبايته فصوب الى المغرب واجتمعوا كلهم بباب السلطان أبى عنان فارجأ حركته الى العام القابل وكان ما نذكره ان شاء الله .

وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر الى افريقية

لما رجع السلطان أبو عنان من افريقية ولم يستتم فتحها بقى فى نفسه منها شىء وخشى على ضواحى قسنطينة من يعقوب بن على ومن معه من الذواودة المخالفين فأهمه شأنهم واستدعى سليمان بن داود من مكانه بجبل طارق وعقد له على وزارته وسرحه فى العساكر الى افريقية فنهض اليها فى ربيع من سنة تسع وخمسين وسبعمائة ، وكان السلطان أبو عنان لما خالف عليه يعقوب بن

على وفر الى القفر أقام مكانه أخاه المنازع له في رياسة رياح ميمون بن على وقدمه على أولاد محمد من الذواودة وأحله بمكانه من رياسة البدو فنزع اليه عن أخيه يعقوب الكثير من قومه ، وتمسك بطاعة السلطان أيضا طوائف من أولاد سباع بن يحيى فانحاشوا جميعا للوزير ونزلوا بحللهم على معسكره

ثم ارتحل السلطان أبو عنان من فاس حتى احتل بتلمسان فأقام بهـــا لمشارفة أحوال الوزير المذكور واحتل الوزير بوطن قسنطينة وبعث الى عامل بسكرة والزاب يوسف بن مزنى بأن تكون يده معه وأن يفاوضه في أحوال الذواودة لرسوخه في معرفتها؛ فارتحل اليه من بسكرة ونازلوا جبل أوراين(*) واقتضوا جبايته ومغارمه وشردوا المخالفين من الذواودة عن العيث في الوطن فتم غرضهم من ذلك؛ وانتهى الوزير وعساكر السلطان الى أول أوطان افريقية من آخر مجالات رياح ، وانكفأ راجعا الى المغرب فوافى السلطان أبا عنان بتلمسان ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا في الخدمة فوصلهم السلطان وخلـــع عليهم وحملهم وفرض لهم في العطاء بالزاب وكتب لهم بذلك وانقلبوا الـى أهليهم فرحين مغتبطين ، ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزنى أوفده أبوه بهدية الى السلطان من الخيل والرقيق والدرق فتقبلها السلطان وأكرم وفادته ، ثم استصحبه الى فاس ليريه أحوال كرامته وليستبلغ في الاحتفاء به واحتل بدار ملكه منتصف ذي القعدة من سنة تسع وخمسين وسبعمائة

وفـاة السلطان أبي عنان رحمه الله

لما وصل السلطان أبو عنان الى دار ملكه بفاس احتل بها بين يدى العيد الاكبر حتى اذا قضى الصلاة من يوم الاضحى أدركه المرض بالمصلى وأعجله طائف الوجع عن الجلوس للناس يوم العيد على العادة فدخل قصره ولـزم فراشه

وذكر ابن خلدون ما حاصله : « انه كانت بين الوزير حسن بن عمر

(*) صوابه أوراس

الفودودى وبين ولى العهد أبى زيان محمد بن السلطان أبى عنان نفـــرة مستحكمة لسوء طويته وشر ملكته فاتفق الوزير المذكور مع من كان على رايه من أهل مجلس السلطان على تحويل الامر عنه الى غيره من ابناء السلطان فأجمعوا الفتك به والبيعة لاخيه أبى بكر السعيد طفلا خماسيا ، ثم أغروا الوزيـــر مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى بتطلب أبى زيان ولى العهد فى نواحـــى القصر والتقبض عليـــه فدخل اليه وتلطف فى اخراجـــه من بين الحرم وقـاده الى أخيه السعيد فبايع وتل الى بعض حجر القصر فأتلفت فيها مهجته واستقل الحسن بن عمر بالامر يوم الاربعاء الرابع والعشرين من ذى الحجة والسلطان أبو عنان أثناء ذلك يجود بنفسه ، وارتقب الناس دفنه يوم الاربعاء والخميس بعده فلم يدفن فارتابوا وفشى الكلام فدخل الوزير زعموا اليه بمكانه من قصره ثم غطه حتى أتلفه ودفن(*) يوم السبت وحجب الحسن بن عمر الولد المنصوب للامر وأغلق عليه بابه وتفرد بالامر والنهى دونه » انتهى وهـــذا أول مرض نزل بالدولة المرينية .

وقال فى الجذوة : « توفى السلطان أبو عنان قتيلا خنقه وزيره الحسن ابن عمر الفودودى يوم السبت الثامن والعشرين من ذى الحجة متم سنة تسع وخمسين وسبعمائة وسنه يوم توفى ثلاثون سنة »

بقية أخبار السلطان أبى عنان وسيرته

كان السلطان أبو عنان رحمه الله أبيض اللون تعلوه صفرة ؛ طويـــل القامة يشرف على الناس بطوله نحيف البدن عالى الانف حسنه ؛ أعين أدعج جهورى الصوت فى كلامه عجلة حتى لا يكاد السامع يفهم ما يقول ، عظيـــم اللحية تملأ صدره أسودها واذا مرت بها الريح تفرقت نصفـين حتى يستبين موضع الذقن ؛ وكان فارسا شجاعا يقوم فى الحرب مقام جنده ، وكان فقيها

---

[*] بجامع المدينة البيضاء [فاس] وكانت دولته تسعة اعـوام وتسعة أشهر .

يناظر العلماء الجلة عارفا بالمنطق وأصول الدين وله حظ صالح من علمي العربية والحساب ؟ وكان حافظا للقرآن عارفا بناسخه ومنسوخه ، حافظا للحديث عارفا برجاله ، فصيح القلم كاتبا بليغا ، حسن التوقيع شاعرا أنشد له صاحب الجذوة أشعارا حسنة من ذلك في الحكمة قوله :

واذا تصدر للرياسة خامل * جرت الامور على الطريق الاعوج

وقال ابن الاحمر : «كنت يوما جالسا معه بمقعد ملكه من المدينة البيضاء بفاس فدخل عليه رجل يتصلح فلما نظر اليه قال بديهة :

تراهم في ظواهرهم كراما ويخفون المكيدة والخداع»

وللسلطان أبي عنان رحمه الله آثار دينية من بناء المدارس والزوايا وغير ذلك ، ومدرسته العنانية بفاس مشهورة الى الآن ؟ ومن مدارسه المدرسة العجيبة بحومة باب حسين من سلا وقد صارت اليوم فندقا يعرف بفندق اسكور ومما قاله أبو بكر بن جزى في بعض ما أنشأه السلطان المذكور من الزوايا قوله :

هذا محل الفضل والايثار والرفق بالسكان والزوار
دار على الاحسان شيدت والتقى فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار
هي ملجأ للواردين ومورد لابن السبيل وكل ركب سارى
آثار مولانا الخليفة فارس أكرم بها في المجد من آثار
لا زال منصور اللواء مظفرا ماضي العزائم سامي المقدار
بنيت على يد عبدهم وخديم بسا بهم العلي محمد بن حدار
في عام أربعة وخمسين انقضت من بعد سبعمئين في الاعصار

وقال صاحب الجذوة: « حدثني شيخنا أبو راشد اليدري أن السلطان أبا عنان هو الذي أحدث بفاس العلم الازرق في الصومعة يوم الجمعة »

وقال في موضوع آخر منها :«حكى أن السلطان أباعنان المريني صعد الصومعة يعني بالقرويين ليعتبر المدينة وترتيبها ووقف على المنجانة وما اتصل بها فاستحسن ذلك وأنعم على الناظر فيها بمرتب وسع عليه فيه ليستعين به على القيام بشعائر الاسلام » وذلك في سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، قال : وأمر بائر

ذلك بأن ينصب بأعلى الصومعة صارى من خشب وينشر فيه علم فى الاوقات التى يصلى فيها ، وفنار فيه سراج مزهر فى أوقات صلاة الليل ليستدل بذلك من بعد ومن لم يسمع النداء ، وفى ذلك اعتناء بأمور الاوقاف وما يتعلق بها من وجوب الصلوات ويترتب عليها من وجوه الحقوق فى الصادات والعبادات ومما قيل فى ذلك

نور به علم الايمان مرتفـــع ... للمهتدين به للحق ارشـــاد
يأتون من كل صوب نحوه فلهم ... لديه للرشد اصدار وايـــراد

وقد لخص ابن الخطيب رحمه الله فى رقم الحلل سيرة السلطان أبى عنان فقال :

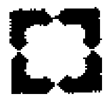
وخلص الامر لكف فــارس ... بانى الزوايا الكثر والمــدارس
الاسد المفترس المصنوع لـــه ... من نال من كل المساعى أملـــه
واحد آحاد الملوك العظمـــا ... ومطلع النصر اذا ما أقدمـــا
ومخجل الغيث اذا الغيث همـا ... وعالم الملك وملك العلمــــا
أوجب حق الشعر والكتابـــة ... فاملت أعلامها جنابـــه
واستجلب الاماثل الكبـــارا ... والنبهاء العلية الاخيـــارا
يجبرهم على حضور الدولــة ... فهم بدور وشموس حولـــه
وكان جبارا عـــلى خدامـــه ... ينالهم بالقسر فى أحكامـــه
مذهبـه ألا يقيـــل عثـــرة ... حتى لارباب التقى والاثـــرة
قطرة السيف تناغى الســدرة ... اذ غلبت على المزاج المـــرة
ومات فيمـا قيل شـــر ميتـــة ... بغيلة لنفســه مفيتـــه
لم يغن عنه الباس والبسالـــة ... وأصبحت مهجته مسالـــة
وألقيت أزمة التدبيــــر ... من بعده فى راحة الوزيـــر

ومن أعيان كتابه : أبو القاسم بن رضوان وأبو القاسم البرجى

ومن أعيان قضاته : أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقرى وهو جد أبى العباس المقرى صاحب نفح الطيب وغيره من التآليف الحسان ،

وأبو عبد الله محمد بن أحمد الفشتالي وغيرهما رحم الله الجميع (*)

(*) ذكر صاحب روضة النسرين أولاد السلطان ابى عنان فقال : اولاده الذكور السلطان ابو زيان محمد والسلطان ابو يحيى ابو بكر السعيد والسلطان موسى والمهدى بالله والمعتمد على الله محمد والمعتصم بالله محمد والمنتصر بالله محمد والمكتفى بالله محمد والواثق بالله محمد ومحمد المدعو بأبى طريق . بناته : فاطمة الصالحة وست العرب ورقية وعائشة وزنو وسكينة وسما وأم جعفر وأم هانى وجنــدوزة وملة العزيز المدعوة بمديلة . وكان جميع ما ولــد ثلاثمائة ونحو خمسة وعشرين ما بين سقط وغيره .



تم الجزء الثـــالث

ويليه الجزء الرابع وأوله :

الخبــر عن دولة السلطــان السعيد بالله

ابى بكر بن ابى عنان بن ابى الحسن المريني

فهرس الموضوعات

فهرس الاعلام والقبائل

حرف «أ»

حرف «ب»

حرف «ت»

حرف (ث)

حرف «ج»

حرف «ح»

حرف «خ»

حرف « ش »

حرف « ص »

حرف « ط »

حرف « ظ »

حرف « ع »

حرف « ن »

حرف « ه »

حرف (و)

حرف (ي)

فهرس الاماكن

حرف «أ»

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (د)

حرف (ذ)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف [س]

حرف [ك]

حرف [ل]

حرف [م]

حرف [ن]

حرف [هـ]

حرف [و]

حرف [ي]

فهرس الخطإ والصواب

صفحة	سطر	خطـأ	صواب
٣	٢٢	ظواغن	ظواعن
٤	٣	ثيربعين	تيربعين
٧	٢٤	نبى	بنى
٩	١٣	شفا	شفى
١٦	٤	انجاش	انحاش
٢٥	٥	قراره	فراره
٤١	٢٣	كثر	كثرة
٦٠	٦	وحرفه	وحرقه
٧٢	٧	لحقو	لحقوا
٧٧	٨	والبعث	والعبث
٧٧	٨	عاضهم	غاظهم
٨٣	٦	البحق	لحق
١٠٠	٨	السطلان	السلطان
١٠٥	٣	أبا الحسين	أبا الحسن
١٠٧	١٧	يوعز	يوغر
١١٠	١٦	أغد	أغذ
١١٣	٥	المعرف	المعروف
١٢٠	١٠	أغد	اغذ
١٢١	٢١	وقبل	قبل
١٢٢	٧	نقلهم	ثقلهم

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٢٥	٢٢	عشر	عشرة
١٢٥	٢٦	وكضت	وكظت
١٤٠	٦	أيضا	أيضا
١٤١	٢١	رحمه	رحمة
١٤٤	٤	وفقه	وفقناه
١٤٩	٩	ازله	ازالة
١٤٩	١٣	سق	شق
١٥٠	١١	فنح	فتح
١٥٤	١٣	قاضى	قاضي
١٥٥	٢٠	بقسطنطينية	بقسنطينة
١٦٦	١	كر	كبر
١٨١	١٩	كان السلطان	كان هذا السلطان
١٨١	١٩	وعشرتيه	وعشيرته
١٨٢	٢١	سعد	سعيد
١٨٨	١١	رافعوا السماء	رفعوا لسماء
١٨٨	١١	وأوضحوا السبيل	واوضحوا لسبيل
١٩٦	٨	أنبائه	أنبيائه
١٩٧	١١	معتبر	بمعتبر
١٩٧	٢١	بنظر	ينظر
١٩٧	٢٣	لما	لم
١٩٩	٩	ومضار	ومدار
٢٠٦	٢٦	ذلك	وذلك